الإمام الخميني واستراتيجيا المستقبلي

ابحاث ودراسات في وصية الإمام الخميني

مكتبة مؤمن فريش
الإمام الخميني اقتبه و استراتيجيّا المستقبل
بحوث ودراسات في ضوء وصية الإمام (قدسه)
جميع الحقوق محفوظة
للكتابة الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٢٠ م

مكتبة
مؤمن قريش

للطباعة والتوزيع

دارالمستشاري

فاكس: 961 1 272364
 điện: 03/8786329 - 01/550487 - Fax: 541199 - P. O. Box: 285/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http://www.daralhadi.com
الإمام الخميني (قده) واستراتيجيا المستقبل

أبحاث ودراسات في ضوء وصية الإمام (قده)

د. فرج موسى

إدارة الفكر الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
الإهداة

إلى التي قرأت معي كتاب الحياة
وحملت معي صبر الأيام والمشاق
إلى التي اختارت عزلة الحياة،
لأكتب كلماتي مع أسحار الليل وعلى أعباء الفقر والحرب.
إلى زوجتي الصالحة الوفية: إيمان دبوق
إلى أولادي: محمد وفاطمة، وشيرين.
أقدم هذا العمل المتواضع راجياً المولى عز وجل التوفيق، إنه ولي
المتوافق.
بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد ونبينا محمد وآله الطبيبين الطاهرين.

إيران الإسلامية والغرب: حوار أم صراع

تمهيد للبحث

في خضم مقولات العصر وتعقيداته، وفي إطار ما ترسمه حضارة الغرب من خطوط شاحبة، وتسعى إليه من عولمة وعالمية طاغية، نرى لزاماً علينا أن نظل على آفاق المستقبل، وهناك أملٌ يحدينا في أن تكون الإطلاعة كاشفة عما يمكن أن تؤول إليه أوضاع الشعوب، سواء في ظل حوار الحضارات، أو في ظل صدامها، كما يحدثنا الأول أيضاً في أن تكون الإطلاعة مستشرفة لكل آفاق المستقبل، بحيث يمكن لنا التعرف الى ما بثته الثورة الإسلامية في إيران من إشعارات روحية ومعنوية باتجاه الشعوب المسلمة والمستضعفة. إضافة إلى ما شكلته هذه الثورة من منعطفات تحفز الباحث في مجال الاستراتيجيا على تعميم ذاته ونظرته، لأجل أن يستكشف طبيعة هذه المنعطفات، التي كان لها أكبر الأثر في
تحول العالم كله نحو الدينية، مما اضطر الكثيرين من المهتمين بالشيء الاستراتيجي إلى إعادة الهيكلة في مجال البنية المختلفة للإجتماع البشري من جهة، والى إعادة النظر في كل ما تم صياغته مهجياً ومعرفياً ومفهومياً في اطار دراسة المقومات والأسس التي تبني عليها نظرة البشر إلى الكون والحياة والإنسان من جهة أخرى، لأن مرتكرات الأبحاث الاستراتيجية في السابق كانت من حيث يسري أصحابها أو من حيث لا يدركون، تلحق الجوانب المادية والقدرات العقلية الهائلة في بناء منظومة الكون والحياة. أما اليوم، فإن البحث الاستراتيجي يقضي ملاحظة الجانب المعنوي في حركة الشعوب، وخاصة بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، حيث أن تبدى للعالم ان المنظومة المشوقة للإنسان والحياة، والقادرة على احداث التوازن في النفس البشرية والعالم، هي المنظومة الإسلامية الدينية بشكل عام، وقد دلت الأحداث والتجارب، بعد انتصار الثورة في إيران، وبرز العامل الديني فيها، على أن المطلوب لرسم وفهم وتحديد استراتيجيا المستقبلي هو ملاحظة، بل واستكشاف الجذر الديني الضارب في اعمق التاريخ والإنسان. هذا الجذر الذي وحده تأصل في الحضارات ودل عليها، بإمكانه دائماً أن يشكل انموذجه العالمي بحسب ما ينطوي عليه كل دين من مباديء وقوانين وتعليم، وكما قال مالك بن نبي: "إذا أردت ان تتعلم إلى حضارة ما، فتعلم إلى الأصل الديني الذي بعثها".

إذنا في هذا البحث سنحاول التعرف الى ما آلت إليه الجمهورية الإسلامية في إيران من وضعية مركزية، ودور محوري وتشكيلات بنائية مختلفة في ضوء أطر وحقتها الإلهية، التي ميزتها عن سائر ما يعرفه العالم من أطر وحقوت ومنظومات. كما أشارنا سنحاول تقديم رؤية معينة حول طبيعة
التحولات الجوهرية التي شهدتها إيران والعالم في ضوء الانتكاسات الدينية والسياسية على مجريات الأحداث، وعودة الشعوب الإسلامية والمستضيفة إلى التفاعل مع القيم المعنوية، بعد أن استبدت بها الأهواء، وضيحتها مفاتن الحضارة في ديار الجرال الظلم.

1- إيران والانبعاثات الدينية

إن إيران اليوم، ليست إيران القديمة، أو إيران الصفوية أو الواقارية، أو الدولة الملحقة بهذا القطب الدولي، أو ذلك، أو التالية لهذه المنظومة أو تلك، وإنما هي إيران الإسلام، هذا الدين الإلهي الذي تميز بها وتميزت به حتى صارت وإياه شيئا واحدا، فلا تكاد تذكر إيران، إلا ويلد معها الإسلام، الذي بات يشكل جوهرها، وقوام وجودها. وقد استطاعت الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني (رض) وسائر العلماء المجاهدين أن تعيد الناس إلى نبع الدين الصافي بعد أن طهرت الثورة مجراه من ملوثات القرون الغابرة. وإذا هو يستمر متوهجاً متدفقاً لعيد الحياة إلى قلوب وعقول المسلمين، ويعظم فيما بينهم، كما كان في حياة الرسول وآلهة الأظهار، وما نشاهده في العالم اليوم من انبعاث ديني، ومن إعادة اعتبار لقيم الحق والخير والعدل والحرية، هو خير دليل على عودة الحياة الدينية وتميز منظومتها. فالشعوب عادت لتعتاش مع ذاتها، وتتصارم مع كل ما يُشيء إلى تدينها وأخلاقها وقيمها الأخلاقية الإنسانية. وإذا كان لهذا الانبعاثات الدينية من أسباب وعوامل، فلنستنتج منها ما كانت عليه الشعوب قبل انتصار الثورة الإسلامية، من طغيان واستبداد واستلاب في ظل سيادة القطبين، النموذجين الرأسمالي والاشتراكي، لكي يتسنى لنا التعرف إلى جملة الأسباب والعوامل التي
أتت إلى أن يتحقق هذا الانبعاث في زمن كادت الأنفاس فيه تحسس
لنقتاسم بين هذا القطب الدولي أو ذلك، وليس أدل على ذلك من ظهور
منظمة دول عدم الانحياز في مؤتمر باندونغ 1955، التي عجزت عن
الاستقلال وكانت النتيجة، أن كثيرًا من الدول التي كانت تسعى للانحياز،
tلقت مساعدات مالية واقتصادية في العالم نفسه من الولايات المتحدة
الأمريكية.

لم يكن هناك منتفخ للشعوب في زمن سيادة القطبين، إلا أن تكون
الأنفاس باتجاه الغرب أو الشرق، وكان ذلك بالنسبة لكثيرين بمثابة القدر
المحتوم والقضاء اللازم، ومع بداية الثورة الإسلامية، وظهور بوادر
الانتصار، بدأت الشعوب الإسلامية والمستضعفة تدرك معنى الثورة على
الذات واليأس قبل الثورة على تجربة الطواغيت وطغيانهم. والحق يقال:
إن الإمام الخميني (رض) هو رائد الانبعاثات الدينية في هذا القرن، وفي
القرن الذي ستشبه، ويمكن أن نشأه ما قام به الإمام (رض) بما قام به الإمام
علي عليه السلام - حينما قاتل المارقين والناكبين والقاطسين بهدف إعادة الاعتبار
لقيم الحق والعدل والعقل والشورى. فالطاغوت هو الطغاتون، سواء
أكان مسلماً أو مسيحياً، أو يهودياً، كان الشرق أو الغرب، أو إسرائيل.
وحيثما تحقق انصارها عليه، تكون قد انبعثت دينياً، وانتصرت
ذاتياً ومعنويًا، ولو أن الشعوب أخلصت الله تعالى، واستمرت في انبعاثها،
ولم شهدت خراباً في هياكلها المادية والمعنوية، كما قال تعالى: «لو أن
أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض. ولكن
كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» (الأعراف، 96).

وقال تعالى: «وأوَلَوْ أَسْتَقَامُوا عَلَى الْطَرِيْقَةِ لَسَقَينَاهُمْ مَاءٌ غَدَقًا»
(سورة الجهن، 16).
إن العالم الإسلامي، وسائر المستضعفين في العالم، كانوا قبل الثورة الإسلامية في إيران، يعيشون في ظروف مادي تستبد به عواصف الشهوات والملذات، وتنحصر فيه القيم والأخلاق لحساب الرغبات، ولم يكن هناك ثمة معنى للعقل، أو للعدل، أو للحرية، وأقصى ما كان يحلم به الإنسان هو أن يكون غنياً بأفكار الغرب وسلعه، لأنها تتجاوز مع ما هو عليه الإنسان في ذات نفسه من استلاب، وتفتتقى مع جموده العقلي، وقواته الروحي، وفرقه النفسي، ومع الثورة الإسلامية عادت دورة الزمان، وبعث الإنسان جديداً في ذات نفسه، وفي علاقته، لأن الثورة فتحت نوافذ العقول والقلوب وحركت دفائنها، وأشعلت الشعوب الإسلامية بضرورة الخروج من أنفاق الحضارة المظلمة، وإزالة الصدا المتراكم على ذاكيتها، لتعرف مجدداً أن لها تاريخاً وحضارة ومجداً وحضوراً تجاوز بها الذات إلى العالم، ومجداً استقر بها على حدود المعمورة، وكاد أن يبلغ بها حدود المملكوت.

2- الإسلام والعولمة الغربية
فالعالم اليوم، وما يعج به من مصطلحات ونظريات حول حقوق الإنسان، والقيم والأخلاق، والحقوق السياسية والدينية، وما إلى ذلك مما تشتد به حضارة الغرب، إضافة إلى وعود النظام العالمي الجديد، والخطبة الدينية، وحوار الحضارات أو صدامها، أو العولمة أو أثرها، كل ذلك لا يزال في إطاره النظري، ولم يتجاوز بعد إلى عالم التطبيق، وفي اللحظة التي يمكن أن يتبين فيها شيء بخصوص هذه العناوين، فإنه لن يبقى الإنسان يتفاعل معها، أو يخضع لها، باعتبار أن العولمة التي يراد لها أن تنطوي حدود القوميات والمحليات والثورات والأديان والثقافات

11
لتبغ منتهى الهيمنة والاستبداد والفرعونية سيكون من نتائجها، فيما لو تحققت، القضاء على كل أمل بالحياة، ودفع الشعوب إلى حافة اليأس والفقر، بحيث لا يبقى أية إمكانية للتعايش أو للحوار. وهذه العولمة إنما يكون ممكناً تحقيقها فيما لو صح الزهوان الغربي، والأمريكي خصوصاً على خلع البشرية من طبعاتها وأدانيها وأعرافها، ومن تاريخها أيضاً لتشكل وفقاً لانموذج العرب وعراقتهم التاريخية الزائفة. إنه حلم واه يا يركزي في الأساس إلى ذهنية التوحش، وانعدام الحسن التاريخي عند من يطمئن إلى تحقيق ذلك، ويدلُّ به، وقد بين لنا القرآن الكريم ملامح هذا المتكبر والساهي عن ذكر الله، حيث قال تعالى: {وامضوا لهم مثلًا رجلاً جعلنا لأحدهما جثتين من أعناب وحفنناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً، كلتا العتدين أبت أكلها ولم تظليم منه شيئاً، وفجراً خلالهما نهراً، وكان له نمر، فقال لصاحبه، وهو يحاوله، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفاً، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال: ما أظن أن تبيث هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة ولئن زودته إلى ربي لأجدن خيراً منها منجلياً...} (سورة الكهف، الآيات: 35-38). فالآيات، كما نلاحظ، تتحدث عن الروح الطبيعية، التي قد تكون رجلًا، أو جماعة، أو مجتمعاً، أو دولة، وترسم لنا صورة واضحة عما يمكن أن تكون عليه هذه الروح من أقوال وأفعال إزاء الآخرين، فهي ترى نفسها أكثر مالاً، وأعز نفاً، ولا بد أن تكون مهيئة على الآخرين، وقاهرة لهم، من منطلق أنها تملك القوة والمال، والأرض والسماء كما قال تعالى في وصف الطاغي الفرعوني: {وادعى فرعون في قومه، قال: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون؟} (43-51).

وإذا تساءلنا عن يقوم بهذه العولمة اليوم، ويسعى اليها، لوجدناه
الطاغوت الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدة، التي سبق لها أن توحشت في التاريخ، ونافست على أكل لحوم الحمر البشرية، ودأت على استعمار الشعوب منذ أن دخلت جنتها وهي ظالمة لنفسها. وهنا نسأل: أي نظام هذا يسعى إلى أمة العالم، وتعظيم الفقر والحرمان والذل، ليفتخر في النهاية انه عالمي، وإنسان أخير يحيا خارج التاريخ كما يزعم فوكويايا؟

ليست عولمة إيران الإسلامية، كعولمة أمريكا الفرعونية، لأن إيران عندها اعتقاد جامد بأن الساعة قائمة، وكل شيء زائف، ولا ينقصها في إطار ما نتمي اليه من أيديولوجيا، وتحتمل اليه من قوانيين إسلامية، لأن تقيم نظامها العالمي الجديد على أنقاض الترهل المادي والتصحر الروحي، أو أن تدعو إلى حوار الحضارات على قاعدة (لكننا هو الله وليا وأشرك بربي أبدا)، وتعالوا إلى كلمة سواء بنا وبينكم ألا نعبد إلا الله ... انها عولمة التوحيد والروح والمبادئ والمعنويات، التي بدأ بها الأنبياء منذ فجر البشرية، وتابعتها الأئمة والأولاء، واقتدى بها الإمام الخميني (رض) وشعب إيران ليكون له ما كان للنبيه من تحقيق في التاريخ والزمان. وهذا الشعب يفطرخ في أنه يعيد هيئة ذاته وقيمه ومفاهيمه ليجعل من نفسه محوراً ومرتكزاً، تنمياً فضاء روحه المعنويات بعد أن يقن العلم أنه لا يمكن للمادحة أن تنذل البشرية من أزمة الاعتقاد بالمعنويات، وهذه الأزمة، كما يرى السيد الخميني، تعد أهم أساس لمعاناة المجتمعات البشرية في الشرق والغرب.

إن العولمة الدينية التي تنشدها إيران، هي ذات مفاعيل عالمية، كونها ترتكز إلى الفطرة الإنسانية وتعبر عنها، كما قال تعالى: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» (30 - 32)، إضافة إلى أن أي شعب في العالم لا
يخلو من دين، ومن حس خُلقي، ومن شأن الانبعاثات الدينية في العالم أن يحقق حوارًا حقيقًا بين الحضارات، وإذا كان البعض قد وجد أفقًا للصدام، كما أظهرت دراسة (هانتنغتون)، فإن مرتزق هذا الصدام قائم على استثناء محرك الدين في إطار ما هو منشور من عولمة مادية طاغية.

أما حوار الحضارات، فإن مرتزقه وأساس انطلاقته، هو الدين، ومهمما كان هناك من تباين واختلاف بين الحضارات، فإن الدين يبقى عملاً أساسياً في الحوار والتلاقي، كما أنه يوفر أساساً للهوية والالتزام الذي يتجاوز حدود القومية ويوجد الحضارات، على حد تعبير جيل كيلب.

وكما رأينا في أبحاثنا ودراساتنا، إن الغرب يراه على صدام الحضارات، ويعمل له، لأنه ذا طبيعة وحشية، ونوعة طغيانية عبر عنها جان ميجير رئيس وزراء بريطانيا، حينما أشار إلى الإجراءات التي يتخذها الغرب ضد العراق، وصارع ميجير إلى تصحيح نفسه وأشار لاحقاً إلى المجتمع الدولي، ومع ذلك فقد كان محقاً عندما ظلّ نسائه، لأن الغرب يدعي بثبات لا يكاد يتغير أنه يتصر نيئة عن المجتمع الدولي.

ذلك هو معنى أن تكون عالمياً في منطوق الغرب ومفهومه. إنه يعتبر نفسه سيد العالم وسلاحه الوحيد، وإذا كان لا بد من الدين في حياة الناس، فلا بد أن يكون هذا الدين أمريكيًا يتم تأويله وفقًا لمنظومه الغرب ومصالحه الحيوية، ويمكن لأي بحث في الشؤون الدينية والسياسية أن يتأمل في سياسات الغرب إتجاه الشعوب الأخرى ليكشف عن طبيعة المحاولات التي يبذلها الغرب لتأكيد ذاته عالمياً، فهو كونه يصارد الدين، ولا يعتبر محركاً أساسياً في الحوار والتلاقي، فإنه مضطر دائماً لاعتماد أسلوب القوة لا في حواره وحسب، بل في علاقاته أيضاً، وخاصة مع
الشعوب العربية والإسلامية، بدلاً أن نرى كثيراً من الشعوب المستضعفة والمتهمة قد استنفدت الغرب ومجلس الأمن للدفاع عن حقوقها، وكانت المعايير المزدوجة في سياسة الغرب سبباً رئيسيًا في الامتناع عن نصرتها، لأنه يتركز في عالميه وعلوته وفي جميع سياساته على مبدأ القوة ويربط الانتصار لأحد بالأبعاد الاستراتيجية لسياسته العسكرية والاقتصادية، وقد أجمعت الأبحاث والدراسات على أن خطاب الغرب عن حقوق الإنسان والديمقراطية مرهون دائماً باعتبارات استراتيجية، وأن الأبعاد الأخلاقية عنده توقف حيث تبدأ المصلحة. فالدين والأخلاق وكل القيم والمبادئ، إنما تكون قيماً ومبادئ حقيقية فيما لو حققت المصلحة المادية للغرب، أما أن يتم الارتباك إليها والصدور عنها في تعميم الأنموذج الغربي، فذلك مما لا ظن فيه ولا طائل تحته، لأنه يكون بمثابة مأسسة جديدة للأنموذج، في وقت بات ملمحاً على الإدارة الأمريكية أن تستكمل طريقها في إطار خياراتها الإنتقائية سواء في الدائرة الخاصة، أو في دائرة مجلس الأمن الدولي.

وهكذا، فإن معنى العالمية العربية والعولمة المادية، بما تعنيه من تعميم للفكر، أن يستمر الإنسان تابعاً، وملحقاً، ومستهلكاً، وقابلًا لكل ما تراها الأخلاقية الأمريكية مناسباً له، بحيث لا يكون له أدنى خيار أمام ذاته موجودة، أو أمام دينه ودينه وتراثه، وهذا كله ليس من شأنه أن يخلق حواراً إيجابياً بين الشعوب، لأنه يوفر الأرضية الصادمة، ويزيد من الهوة الثقافية، التي تفصل الحضارات عن بعضها البعض، وقد يكون ما ذهب إليه "هانتغتون" حول صدام الحضارات مبدأً أساساً على النوايا العربية الهاشمة إلى استنفادة الدين، وتبيت النظرية الحيوانية إلى الإنسان، والنظرة المادية إلى الكون والحياة، وهذا ما لا يمكن للحضارات الأخرى، سواء
الكونفوشيوسية أو اليابانية، أو الهندوسية، فضلاً عن الإسلام والحضارات الأخرى، أن تنخذف خيارًا، لكونه يتناول مع مقومات وجودها، وتعارض رؤتها وتطلعتها، ومنطقاتها، مما يجعل من الصدام الحضاري أمرًا ممكنًا بنظر الساعين إلى إقصاء الدين عن الحياة البشرية، والمعارضين لفكرة أو حقيقة كون الدين محركًا أساسياً في ما ينشده أي حضارة من عالمية، في إطار مفهومها للدين، وأدلجتها للحياة.

إن الوهم الغربي بالانتصار في العولمة على خلفية الانتصار بالحرب الباردة، هو الجرثوم القاتل في الانموذج الغربي، وكذلك في الرؤية الغربية الاستعلائية لما ينبغي أن تكون عليه الشعوب في قرن التحولات الجيوسيتستيكية السريعة، والعقيدات التقنية وثورة الاتصالات وتمدد الناتو . فالانتصار الاستراتيجي في الحرب الباردة لم يكن الغرب سبأً رئيسيًا فيه، وهنا تجد الإشارة إلى أن مقترض الاستراتيجية يستدعى دائماً التفريق بين عوامل داخلية وأخرى خارجية تضافرت وسارت في انحلال الاتحاد السوفيتي. ومن ثم المنظومة الإشتراكية كلها. وليس من الاستراتيجيا في شيء أن نحسب السقوط المريع للشيوعية انتصاراً للمشروع الغربي، أو تكريساً للقطبية الواحدة أو إلغاء لتعدد الأقطاب في المجال الثقافي، أو السياسي، ولا شك في أنه مثلما استفادت أمريكا من الناحية الاستراتيجية في سقوط المنظومة الاشتراكية، فإن هناك منظمات أخرى، كالمنظمة الإسلامية، استفادت من حيث ما أبرزته من خصائص ومزايا في مواجهة الغرب والشرق.

ولسنا نبالغ في ما لو قلنا؛ إن إيران اليوم ليست مجرد حالة ثقافية أو سياسية، وإنما هي، بالإضافة إلى ذلك، ذات بعد استراتيجي من شأنه أن يمنع ظهور القطبية الواحدة في العالم، وثبت تعقدية الأقطاب على نحو
مختلف تماماً عمّا كان عليه الوضع في ظل سيادة الاشتراكية والرأسمالية. إن الإمام الخميني (رض) في رسالته إلى غورباتتشوف 1/1/1989، توقع انهيار الاتحاد السوفيتي وتلاشي المعسكر الشرقي، واستشرافه لهذا المستقبل وتعبيره عن ستؤثر أياً الأوضاع جاء في وقت كان المحلفون فيه ينظرون بتحقّق وحذر لبداية تحولات الاتحاد السوفيتي. وهذا يمكن إدخاله في الدائرة الاستراتيجية، لأن المنظومة الإسلامية ابتنت على أساس أن لا تكون شرقيّة ولا غربيّة، في مسعي جاد لتأكيد هشاشة المنظومات القائمة وفشلها في تأمّن سعادته البشرية، وغير خفي على أحد ان الإمام الخميني (رض) استشرف مستقبل الغرب حينما نصح غورباتتشوف وقابته أن لا يقعوا فرصة النموذج الرأسمالي، لأنه يحمل المشاكل والعقد نفسها التي أرتدت بالنموذج الاشتراكي، بغض النظر عن وجود بعض التمايزات التي تجعل من نموذج ما قابلاً للحياة أكثر من نموذج آخر.

وأياً يكن الأمر، فإن التحول الجوهر في المنظومة الاشتراكية تسببت به أمور كبيرة، كان من جملتها العامل الديني إلى جانب العامل الاقتصادي، فلم يكن هناك أمراض داخلية ونسبية، لما كان لأحد أن يتوقع انهيار الاتحاد السوفيتي، باعتبار أن ظروف والعوامل الخارجية، وتحديداً التربص الأمريكي، كانت أعز من أن تحقق هذا الانتصار الاستراتيجي بوسائلها الخاصة.

وعموماً يمكن القول: إن المنظومة الرأسمالية ليست بأحسن حال من المنظومة الاشتراكية، فهي أيضاً كانت ولا تزال تعاني من أمراض خطيرة. والعقد العمياء تدفع بها إلى المصير نفسه، لأنها تفتقر إلى ما يوجد مجتمعاتها بعد أن تحللت من كل القيم والمبادئ، ونرى أن هناك عاملان واحداً لا يزال تشكل السبب الرئيسي في توحدهما هو عامل المال، أو
الدولار، إلا أننا لا نستطيع أن نراه على عوامل أخرى تنذر بستمرار هذا النموذج إلى ما لا نهاية. فالغlobe يخفي الكثير من مساوته وتحليله تحت شعارات القوة والمال، وأخيراً جاءت العولمة، والنظام العالمي الجديد، ووحدة القطبية، لأجل إظهار فرادة هذا النموذج وقدرته على استيعاب العالم، وقد سهى الغرب عن حقيقة هامة جداً أقلما ما تعشه شعوب العالم من مآزق سياسية واجتماعية واقتصادية، تدفع بها دائماً إلى التماس الحلول لمشاكليها من داخل منظومات خاصة بها، رغم كل ما تمارسه أمريكا والغرب من ضغوط اقتصادية وسياسية وعسكرية عليها، ولم تفلح حتى الآن في التأثير على كثير من شعوب العالم. فهذه إيران، وسوريا، ولبنان، إضافة إلى ما تعرضت له دول شرق آسيا من انهيارات اقتصادية، وما قامت به أمريكا من توجيه ضربات عسكرية لكل من أفغانستان وليبيا، والسودان، والعراق، ويوغوسلافيا، هذا فضلاً عن حروب بالوكالة ضد إيران وسوريا ولبنان، فكل هذه الحروب المباشرة وغير المباشرة لم تفلح في إقناع الشعوب بأن هناك نظاماً عالياً جديداً، وطبيعة واحدة يجب الخضوع لها، والتكيف مع مصالحها. إن أمريكا والغرب يستطيعون يوماً بعد يوم على وهمه، ويشبه لدى تنوع حضاري وثقافي، لاتزدهض الضغوط الاقتصادية، والحروب العسكرية إلا بروزاً ونضوحاً، كما أنه أدرك حقيقة أنه حتى ولو كان العالم من الناحية الاستراتيجية قد أصبح عالماً غير متعدد الأقطاب، فإنه لا يزال متعدد الأقطاب في المجال الثقافي، وخطأ الغرب كما بياناً، ينكم في أنه عادل الانتصار الغربي الواهي في الحرب الباردة بشكل خاطئ، بانتصار النماذج السياسية والثقافية الغربية.

لقد سهى الغرب عن أمر مهم جداً، وهو افتقاره للنظرية الشاملة في
أبعاد الحياة المختلفة وتركيزه على بعد المال والسلطة، هذا فضلاً عن أنه لا يملك ثقافة حية تساعده على بلوغ ذاته عالمياً، بحيث يكون له قصب السباق في مجال الهيمنة على الثقافات الأخرى، أو على الأقل استيعابها لتنشيط ذاته ثقافياً وأيديولوجياً. إن الإفلاس الغربي في إطار مفاهيم الحياة، فضلاً عن القيم والمبادئ، هو الذي يدفع بالكثيرين إلى التنظير والتكهن بوجود آفاق للصدام الحضاري، تدفع إليه تباينات الحضارات واختلاف المنطلقات في الرؤى والمناهج والأهداف.

٣- إيران وقيادة الحوار الحضاري

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول: إن عالمية إيران فيما تنطلق منه من مبادئ وأسس، وفياً تسعى لتحقيقه من أهداف، هي وحدها القادرة على صناعة، بل وقيادة حوار الحضارات، لكون الحضارات كلها تمتلك مقومات وأساساً ورؤية دينية تساعدها على التكيف والتفاعل مع الانموذج الإسلامي الذي يصح القول فيه، إنه كان انموذجاً عالمياً للحياة والكرامة والحرية في الوقت الذي كان لا يزال فيه الغرب متوحشاً، والعالم كله يعيش بدائل الحياة في جميع أنشطته السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية... الخ، وإذا كانت حضارة الغرب اليوم تظهر عالميتها بالانتشار والتوسع عن طريق الطبيعة ووسائل القوة، فذلك لا يمكن أن يعوض لها خسارة الذات والروح، أو أن يجعل منها عالمية من حيث المنبع والمحتوى، كما هو شأن عالمية الإسلام.

إن إيران، وبعد مخاطر عسيرة في تاريخها الديني والسياسي، قبل الإسلام وعده، وصولاً إلى انتصار الثورة الإسلامية، عادت لتنشد الخيار الدینی بكل ما ينطوي عليه من عالمية في المبادئ والقيم.

١٩
والأخلاق، وبكلما يترتب عليه من مسؤوليات إنسانية وحضارية، وهنا تجد الأشارات إلى أن الأولياء الصالحين الذين قاموا بنشر الدين، ودافعوا عنه في مواجهة الطواغيت، والذين اتخذت منهم إيران قدوة فيما رسمته من خطوط، أو عبرت عنه من مبادئ، هؤلاء الأولياء علّموا المسلمين أن لا يكونوا فراغًّا تملاه ثقافات الآخرين، وأرشدوهم إلى أن يكونوا عالميين بما يحملونه من أهداف، ويرسخونه من قيم، كما هو مقتضى الدين الذي ينتمون إليه ويصدرون عنه. ولذا، فإن من أهم ما يمكن الارتقاء إليه في تأكيد عالمية الإسلام في النظرة إلى الكون والحياة والإنسان، وفي بلورة المشروع الحضاري الإسلامي، هو ما أرشدناه اليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث بين للمسلمين طريقة التعامل مع الآخرين، وكيفية التعامل وال الحوار معهم، ويرأينا أن من أهم النصوص الدالة على عمق النظرية الإسلامية إلى الحياة الإنسان، هو النص الذي يقول فيه الإمام علي عليه السلام لولاهي على مصر مالك الأشر، «الناس صنان، إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق».

أليس في قول الإمام علي عليه السلام هذا، ما يدل على عالمية الإسلام فيما ينشده من حوارات وتفاعلات وعلاقات؟

أليس في قوله ما يدل على أن المقياس في العالمية والعولمة، هو كرامة الإنسان، وليس ما ينتج، بحيث تكون قيمة الإنسان ما يحسن، وليس ما يأكل أو يلبس أو يشرب؟

أليس في قول الإمام علي عليه السلام ما يؤكد على أن المعاني تبقى شرطاً أساسياً في التلافي والحوار، بعيداً عن المصالح الضيقة، التي غالباً ما تفقد الإنسان إنسانيته؟
هذا هو منهج إيران في منظمتها الجديدة العالمية، وهي بعدما قامت به من تجارب، وأثبتته من نجاحات في سياساتها الداخلية والخارجية، وفي حواراتها الإنسانية، مع الذين هم أخوة لها في الدين، أو نظراء لها في الخلق، استطاعت أن تلقت العالم إلى منهجية جديدة في الحياة، وإلى قطبية الإسلام الواعدة في أطر من الحرية والاستقلال والتفاعل الحر، لأن الذي بعث الإسلام، وأراد للإنسان أن يكون جديداً وعالمياً، وشاهدنا، قادر على أن يعطيه دوره العالمي الفاعل والمؤثر فيما لو استطاع هذا الإنسان تأكيد ذاته وتحقيقها على النحو الذي يبرزها كنموذج وسطي في خضم ما يعيشه العالم من ثقافات وحضارات.

إن الإمام علياً ﷺ كان رجلاً عالمياً بكل معنى الكلمة، وهو في عالميته الإنسانية، ورؤيته الحضارية كان يصدر عن الإسلام ويعبر عنه، ولهذا، فقد استطاع أن يتجاوز حدود الزمان، والمكان، وذلك من منطلق كونه الإنسان الحر والمالك لإرادة التغيير في النفس والعالم، ومتى يدل على عمق هذه الشخصية العالمية، هو أن الإمام ﷺ كان ينشد الحوار حتى مع أعدائه، ويرفض البدء ب أي عمل قبل التحوار بشأن ما يكون له من آثار ونتائج، وهذه هي طبيعة الإنسان المسلم، إذ أنه يجد نفسه دائماً مسؤولاً عن إدارة الحوار الحضاري، وحتى الصدام الحضاري فيما لو كان ضرورياً كما هو الحال اليوم مع الحضارة المادية، بدليل أن الأنباء جمعاً، جمعاً، حاوروا الغرامة والسلاطين. كما فعل إبراهيم مع نمرود، وموسى وهارون مع فرعون، والنبي محمد ﷺ مع قريش، والإمام علي ﷺ مع أعدائه في حروب الجمل وصفين والنهروان. وهذا كله إنهما كان من أجل تأكيد عالمية الإسلام وحيوته في استيعاب كل الأطر الحضارية التي كانت سائدة في أزمانهم، وقد صوّر لنا القرآن الكريم كيف تكون عواقب
الذين ظلموا واترفوا في الحياة الدنيا، وقالوا: إننا فوقهم قاهرىون، وأمريكا اليوم هذا منطقها، وقد أفلح اليوم من استعلى. وَما أظَن السَّاعَة قَائِمًا، الى ما هيناك من مزاعم واهية، ونظريات خاوية، ونتيجة هذا الطغان لا بد أن تكون، كما كانت نتيجة أي صراع بين النبوة والمترفين، وكم هو ملفت تعبير القرآن في تصوير ملالات النزاع الطغياني، حيث قال تعالى: وأحيط بثمره فأصبح يقلب各方 عليه ما أتى فيها، وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً، ولم تكن له فئة بنصرونه من دون الله وما كان منتصراً (سورة الكهف، الآيتان: 42 - 43).

لقد سبق لروسيا أن قلبت بكفیها، وأمريكا تنتظر المصير نفسه، لأنها تجاوز الآخرين من موقع الكفر، والذي خلق الكون والحياة والإنسان، وتزعم لنفسها جنة الخلد حينما توجهت وانقلب، كما قال تعالى: ولن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً.

إن إيران اليوم تتبع مسيرة الأنبياء وتنشذ الحوار الحضاري وتسعى إليه، وتراه ضرورة من ضرورات الحياة، لأن صدام الحضارات يعني أن يكون العالم ساحة فوضى ونهب وقتال وتناقض في المصطلح والأهداف، خلافاً لما أمرت به رسائل السماء، وقد رأينا، كيف ان الإمام الخميني حاور العالم من موقع رسالة الإسلام وما تنثنىه من حرية ووسطية، كما فعل حينما خاطب غورباتشوف، وأكثر زعماء العالم لأجل أن تكون الإنسانانية والحضارات كلها في متأهل عن الطاغوت، الذي هو على استعداد دائماً لحروب المدن والقرى، بل العالم كله من أجل أن يشعل سراحه.

نعم، الإمام الخميني (رض) لم يكن متساهلاً مع الغرب وأمريكا خصوصاً، لأنها لم تحتزم خيار الشعب، واستمرت في إعداد المؤامرات
للتلألئ من الثورة وشعبها. مما كان يستدعي دائماً التربص بها ومواجهتها، ولو أنها كانت تملك مقومات الحوار، لما كان الإمام ليتوانى عن مخاطبتها والتحدث إليها، هذا فضلاً عن أن أمريكا ارتكبت الجرائم الكبرى بحق الشعب الإيراني، وجمدت أمواله، وغير ذلك مما لا يحصى كثير، مما أقامت عليه أمريكا بهدف الإساءة إلى الجمهورية الإسلامية.

غاية القول: ان إيران دخلت في عالم جديد، من حيث كونها عبرت عن منظوره جديداً في إدارة المجتمع والدولة، وفي سياساتها وعلاقاتها في الداخل والخارج. ونظراً لما تعد له قوى الشر في العالم لجعل إيران على الأقل في موقع الدفاع عن نفسها، لمنعها من ترجمة رؤيتها الحضارية. فإن مما تقتضيه حقيقة الانموذج الإسلامي، أن تستمر إيران في تصدير الثورة الإسلامية عن طريق إثبات الجدارة والقدرة على التعامل مع القضايا والأحداث كافة، وهي تملك من القدرات والكفاءات المادية والمعنوية ما يؤهلها لتصدير رؤيتها للحياة والكون والإنسان، وجعلها محتضنًا نظير وعجب كل الشعوب الإسلامية والمستضعفة، لأن العالم يراهن على أخطاء في التكتيك والاستراتيجيا، لأجل الاستفادة منها في طريق زعزعة النفوس والتأثير عليها حتى لا تمتلك إمكانية التفاعل مع الرؤية الإسلامية، ويضاف إلى ذلك أن دور إيران اليوم يتجاوز الزمان والمكان والجغرافيا والتاريخ الخاص بها، ليضعها في مصاف الدولة المركزية والمحورية، بحيث تكون مركز جذب، دون أن يعني ذلك تحول إيران إلى مركز استقطاب كما كان حال الغرب والشرق في ما عرف بالجبارين، وإنما يكون لإيران الدور والوظيفة والمسؤولية والمنطلقات الفكرية والأيديولوجية التي تساعدها على إبراز ذاتها وإنجاز تجربتها، لتكون نموذجاً حياً فاعلاً ومؤثراً، وذات دور في تعريف الشعوب إلى
نفسها ودفعها إلى تشكيل ذاتها ليكون لها المحورية والمركزية والاستقطاب الذاتي كإيران تماماً، وكما هو حال بعض الدول الإسلامية كالسودان مثلا.

وانطلاقاً من ذلك، فإن إيران اختارت الحل الدينى لجميع قضاياها الدينية والسياسية، في المجتمع والدولة، وفي كل جوانب الحياة الإنسانية، وخرجت من موروثها الفقيه والسياسي، الذي كان مهيمناً عليها طيلة القرون الماضية، كما انها أكثت ذاتها على نحو مختلف تماماً عما كانت عليه في تاريخها، حتى التاريخ الشيعي الخاص منه، وما كان ذلك ليتم لإيران، أو لتقدر عليه، لولا انها استطاعت إعادة قراءة الدين وتطهيره مما علق به من ملوثات سلطانية. وهنا نجد الإشارة، الى ان هناك مسؤوليات جسامة تقع على عاتق الجمهورية الإسلامية، تستدعي منها دائماً عدم التهوي بالشؤون الداخلية والانساب الفكرية ذات الطابع الحجري، لأن عولمة الإسلام تقضي دائماً أن تكون إيران كمركز ثقل في موقع الفعل لا في موقع الانفعال، ويزود إلى ذلك ما هو ملتوى على إيران من مسؤوليات ثقافية، تحتتم عليها دائماً مواجهة الثقافات المعادية للثورة الإسلامية، وذلك من منطلق ان إيران وضعت من خلال ثورتها ومنجزاتها الحضارية المميزة في الموقع الذي يسمح لها بالكشف عن كل الأطر واحضال الضالة، والتي تهدف الى التأثير على الشعوب الإسلامية، وتشويه صورة إيران في العالم.

فإيران ليست دولة يمكن أن تكتفي بمعالجة أوضاعها الداخلية بمعزل عما يشهده العالم من تحولات وتعقيدات في المجالات كافة، كما أنها ليست دولة ذات وظيفة إجتماعية وحسب، بل هي دولة رسالية.
مؤهلة دائماً لرصد الأحداث واستشراف المستقبل بكل ما يمكن أن يجد به من مفاجآت.

لذا، فإن إيران، كما أشرنا، هي دولة ذات وظيفة عالمية، تستدعي منها دائماً الإطلاق على العالم والتأثير فيه من خلال منظوماتها الإسلامية الحية ذات السمة الحضارية المميزة، والمخالفة تماماً لكل ما هو سائد في العالم من منظمات وحضارات.

والحمد لله رب العالمين.

د. فرح موسى
الفصل الأول
الثورة الإسلامية: متطلقات وأهداف

أولاً: ماهية الثورة وعوامل الانتصار
ثانياً: نهضة المجتمع الإيراني وتميز أهدافه
ثالثاً: الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه.
أولا: ما هي الثورة وعوامل الإنتصار

لا شك في أن الثورة الإسلامية في إيران، ليست بذعاً من الثورات في التاريخ البشري، ولكنها تمتاز عن بقية الثورات في كونها انتقلت من الإسلام، واقتضت إليه في جميع شؤونها الدينية والسياسية، وعبرت عنه في جميع علاقاتها الداخلية والخارجية، وذلك خلافاً لكل الثورات التي شهدتها العالم قديماً وحديثاً، وهذا ما أشار إليه الإمام الخميني (رض)، بقوله: «لا ينبغي الشك أبداً في أن الثورة الإسلامية في إيران تختلف عن جميع الثورات في التكون، وفي كيفية الصراع والمواجهة، وفي دوافع الثورة والنهضة، ولا ريب أبداً في إنها تحفة إلهية، وهدية غبيرة من قبل الله تعالى تلطف بها على هذا الشعب المظلوم المنهوب».(1)

إنها ثورة إسلامية متميزة فيما انتقلت منه وعبرت عنه. وسر الامتياز هذا يكمن، أولاً وأخيراً، في الإسلام، الذي وجد فيه الشعب المسلم في

إيران النظام والقانون وحماية المبادئ والأهداف والتعاليم القادرة على إحداث التغييرات الجذرية في حياة الناس وتوجهاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ... وغيرها.

وإذا كان هناك ثمة ثورات كبرى قد سبقت انطلاقة الثورة في إيران، فإن هذه الثورات غالباً ما كانت تجافي الدين، أو تقتصر على حياتها الخاصة فقط دون أن تتعدى به إلى مجالات الحياة العامة. وهناك من الثورات من ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، كثورة أكتوبر الروسية ... التي اعتبرت الدين أفيوناً للشعوب، وعاملاً من عوامل التخلف، بسبب ما رسم في أذهان القائمين بهذه الثورة عن القرون الوسطى، والحكومات الديموقراطية، والدور المطلق الذي كان يقوم به رجال الدين المسيحيون في إدارة شؤون المجتمعات الأوروبية، إضافة إلى ما كانت عليه روسيا نفسها من تخطيط واعتصام ديني وسياسي، وقد أخذ الإسلام بجريدة المسيحية وما كانت عليه من مبادئ ومواقف ضد العلم والعلماء...

(1) كانت السلطة في القرون الوسطى تقوم على أساس إلهي، وان الحاكم متفق للمشيئة الإلهية، وقد لعبت هذه الفكرة دوراً كبيراً في معظم الحضارات القديمة، وأقتربها المسيحية في أول عهدها، وإن حاربها فيما بعد، ثم استبدت بها الملكون في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر لببر سلطاتهم المطلقة واحتضانهم غير المقصودة. را: الطاغية، إمام عبد الفتاح إمام، دراسة فلسفة لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، عدد 183، ص 21.

(2) لقد لاقى العلماء مصاعب جمة من السلطات الدينية في القرون الوسطى. ففي الوسط المسيحي وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسؤولة، ودون الاعتماد على أي نصوص حقيقية للكتب المقدسة، بمعارضة تطور العلم، والحكم على العلماء الذين يقومون بذللك بالنفي أو الموت ما لم يزودوا عن نظرياتهم ويلمسوا العفو، وعلى سبيل المثال نذكر "جاليليو" الذي حكم لأنه استنفند مكتشفات كويرينغ الخاصة بدوران الأرض. أما في الإسلام، فالموقف إزاء العلم كان مختلفاً تماماً. إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي ﷺ الذي =
لقد انتصرت العلمانية، وكل الثورات المادية في أوروبا، سواء في الغرب أو الشرق، تحت شعار العلم، وبناء الحياة الإنسانية وفقاً لرغبات الإنسان وحاجياته المادية، بعيداً عن الدين وما يقتضيه من تقري والتزامات روحيّة وأخلاقية. وعلى هذا الأساس قام صرح الغرب الحديث الذي يقول: «مملكتي في هذا العالم وحده» (1)، ردًا على النصرانية التي نسب فيها إلى النبي عيسى عليه السلام: «إن مملكتي ليست في هذا العالم» (2).

نلاحظ مما تقدّم، أن الموقف السلبي للثورات من الدين، كان نتيجة لما آل إليه وضع الكنيسة وطريقة تعاملها مع الإنسان الأوروبي، ولم يكن هناك أدنى اطلاع على الدين الإسلامي وما ينطوي عليه من قواعد وتعليمات.

(1) يقول: «اطلب العلم ولو في الصين». وهذا الموقف من العلم والعلماء من قبل الكنيسة تسبب في استصدار أحكام وتفاهمات مغلولة عن الإسلام، وهي من الكثيرة بحيث لا يمكن إحصاؤها، ويفتكر أن نشير هنا إلى ما ادعاه المؤرخ الفرنسي «ريتان» في محاورة له عن «الإسلام والعلم»، أُلفها في السوربون عام 1883، من أن الإسلام والعلم لا يتفقان، وقد دخل جمال الدين الأفغاني في نقاش معه، مثلاً خلاف ما يدعيه، ومؤكداً عظمة الإسلام في الحث على طلب العلم والاشتغال به. وكان بعض الباحثين قد أشار إلى أن «ريتان» كان يفكر بالكتالكية، عندما كان يكتب عن الإسلام. را: ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، دار الانتشار للنشر، ط 4، 1986، ص 152.

(2) يقول موريس بوكاي: «كانت البلاد المسيحية في القرن الوسطى في ركود وتزامنت مطلق نتيجة لوقف البحث العلمي... وبعد عصر النهضة في أوروبا، كان رد الفعل الطبيعي أن يأخذ العلماء بأيديهم من منافس الأمم، وهذا التأثر مستمر حتى اليوم لدرجة أن التحدث عن الله في الغرب في الأوساط العلمية يعتبر علامة على الرغبة في التفرد. ولا شك في أنه كان لهذا الموقف تأثيره السيء على العقول الشابة (والمسلمة منها أيضاً) التي تلقى التعليم الجامعي في أوروبا. را: دراسة الكتب المقدسة، دار الأفكار، بيروت، ط 1، 1991، ص 141.
وقيم، وقد أدى هذا الجهل بالإسلام، عقيدة، وشريعة ونظام حكم، إلى أن تنحي بعض الثورات منهج المعايدة للدين، وترفض اعتباره أساساً لحياة الجماعات البشرية، للحيلولة دون أن يكون له أدنى دور أو تأثير في حياة الناس وإدارة أمورهم، وذلك بهدف أن يكون هناك فضالة ثامناً بين الدين والسياسة. وما ينصح له هو تأثر بعض الشعوب الإسلامية بالدعوات العلمانية، وقبول فكرة الفصل بين الدين والسياسة، والواقع انسجاماً منها مع مزايا الثورات العلمانية وما نشأ عنها من حكومات، بأن الدين، كل دين، يمكن أن يشكل عائقاً أمام تقدم الشعوب وازدهارها، على الرغم من أن الإسلام يمتاز عن المسيحية امتيازاً جوهرياً، سواء لجهة احتواه على قوانين إدارة البشر، أو لجهة احتواه على القيم والمبادئ الأخلاقية، هذا فضلاً عن عما يمتاز به الإسلام من حيث خروجه عن أية ثنائية تؤدي إلى التنافر، أو إلى الصراع في المجتمع، كما هو الحال في المسيحية.

كما أنه لم يحدث في أي عصر من العصور الإسلامية أن تكوت جماعة طبقية تستمد وجودها الطبقي من الإسلام، وتعتمد في حكمها للناس على ادعاء الحق الإلهي المباشر، كما كان عليه الحال في القرون الوسطى.

(1) كما هو معلوم، أنه لا يوجد في الإسلام كنيسة ودولة، ولا مملكة للح، ولا مملكة قبض، ولا روح طاهرة وجدت محتوى، كي يؤدي ذلك إلى الصراع والتنافر، بل توجد عقيدة التوحيد الذي تعطي العالم الطبيعي كله (العالمي الإنساني)، انسجاماً وتكاملاً رائعين... والوعي الشرعي المبتعد عن المعنى التوحيدى الإسلامي و متفرعاته في العقيدة كان يلبر صفة التكامل بين المادي والروحي في الطبيعة والمجتمع والإنسان، يجعل كل واحد منها ضرورياً للآخر، بل أن يجعل منه ضداً له. را: شمس الدين، محمد مهدي، العلمانية، نقد وتحليل، دار مجد، بيروت ص 164.
(2) لا يوجد في الإسلام طبقة إسحها طبقة «رجال الدين» على غرار ما كان عليه.
إن تأثير العلمانية على الشعوب الإسلامية، كان ولا يزال كبيراً جداً، وقد حرصت دوائر الاستعمار الغربي والشرقي على تعزيز فكرة العلمانية في بلاد المسلمين من خلال البعثات التبشيرية تارة، والنخب التي تتعلّم في جامعات الغرب طوراً آخر. وكان من جملة ما عادت به بعض النخب العربية والإسلامية إلى بلادها(1)، فكرة الفصل بين الدين والسياسة، التي روّجها الاستعمار لإحكام سيطرته على بلاد المسلمين. وقد شاع هذا المنطق، منطق الفصل بين الدين والسياسة، في جامعات المسلمين وحوزاتهم العلمية لدرجة أن كثيراً من الطلبة قد أخذ بهذا المنطق، وسلم بعدم وجود أي فرق بين المسجد والكنيسة، وإن الإسلام لا يملك أكثر من تنظيم علاقة الفرد بره، وكما يقول السيد الخميني (رض): «إن هذا الوضع لو كتب له النجاح للأمر الروحاني والحوزات العلمية إلى ما كانت عليه الكنيسة في القرون الوسطى إلا أن الله تعالى منعه على المسلمين والروحانية، وحفظ كيان الحوزات ومجدها الواقعية، حيث ترّبّى في هذه الحالة في العالم المسيحي، ولا حكام يحكمون باسم الله، كما كان حال ملوك أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فالقُيّمة والسياسي، في الإسلام، يتكاملان، ويصدرون عن رؤية واحدة للكون والحياة والإنسان، وإذا كان بينهما نزاعات، فإن هذه بداية، فإنها ناشئة من الاختلاف في المجال الوطني لكل منهما، وهذا يعني تكاملهما. ومن خلال ذلك، فإنه لا يمكن التخويف من حكومة رجال الدين، لأنه لا وجود لهذه الحكومة في الإسلام على المستوى الديني. والتعبير به (رجال الدين) تعني دخيل في الثقافة الإسلامية واللغة العربية. را: شمس الدين، العلمانية، م. س، ص125.

(1) يقول علي شريف: "لا يطلق الأوروبيون على الذين يصنعون في أرضهم، لقب المثقفين، بل أشخاص الحقيقيين، أي الأفراد الذين يحكمون الأوروبيين، ودور هؤلاء كان ولا يزال أشبه بسيادهم وحمل الرسالة التي عهد اليهم بها، ليفتحوا للأوربيين الطريق للعودة والاحتلال..." را: الأمة والإمامة، دار الأمير، بيروت، ص2.
الحوزات علماء مؤمنون بالدين، ومتميزون عن الآخرين، وثورتنا الإسلامية الكبيرة نشأت من هذه البارقة(1).

إذن، الثورة الإسلامية في إيران، هي نتيجة لجهود ومساعي علماء وجماعين مؤمنة بالله تعالى. وهي وإن كانت تتشكل مع ثورات كثيرة في كثير من الخصائص والمميزات، إلا أن بقية للثورة الإسلامية ما يميزها عن سائر الثورات، ذلك أن وجود عواصم وظروف وأوضاع سياسية وإقتصادية واجتماعية تساهم في إحداث الثورة، لا يكفي وحده للتعريف على ماهيتها، فلا يقال مثلاً، بأننا إذا عرفنا ماهية الثورة الروسية، أو الصينية، أو الجزائرية، فإننا نعرف إلى ماهية الثورة الإسلامية في إيران(2). فهذه الأخيرة، كما رأينا، تمتاز عن سائر ثورات العالم من حيث كونها اعتمدت الإسلام طريقةً وحدها في حركتها التغييرية، وفي بلورة المشروع الإسلامي للحكم، الذي يتجاوز مجرد الدعوة إلى تعديلات دستورية، وإصلاحات إقتصادية، إلى إقامة الحكومة الإسلامية، وتحقيق المجتمع والدولة بالإسلام، بحيث يكون كل شيء ديني في حياة المسلمين، خلافاً لما يقال بأن هناك أموراً لله تعالى، وأخرى لقيصر، تبرراً لمنطقة الفصل بين الدين والسياسة، وتأكيدها للحكم العلماني في

(1) جاء هذا الكلام للإمام في الخطاب التاريخي، الذي ألقاه بتاريخ 22 شباط 1369 م.

(2) ليست النهضة والثورات في التاريخ واحدة من حيث الماهية، فهناك عدة طرق للتعرف على ماهية الثورة أية ثورة، وقد أجمل مظهر هذه الطرق بالآتي:
- عن طريق معرفة الأفراد والجماعات التي قامت بالثورة.
- عن طريق معرفة العلل والجذور التي هيأت أرضية الثورة.
- عن طريق معرفة أهداف الثورة.
- عن طريق الشعارات التي أعطت القدرة والحيوية للثورة.
ر: مطهري، الحركات الإسلامية في القرن العشرين، م. س، ص 84.
رعاية شؤون الناس وتدير أمورهم. فالثورة هدفت إلى أسلمة المجتمع والدولة، على قاعدة أن كل شيء يتعالى، وما على الناس إلا أن يقوموا بأمر الله تعالى، ويحكموا الإسلام في جميع شؤونهم، كما قال تعالى:
"فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت وسلموا تسليماً" (1).

إن الثورة الإسلامية شكّلت منذ اطلاعها هذا الامتياز، وأكّدت على ثورتها الدينية، وأهدافها الإسلامية، وأرضيتها العقائدية، وقدّمت نفسها للعالم كنموذج بريّد فيما انتهجه من سياسات، وعبرت عنه من مبادئ وأهداف، وحقّقت من إنجازات اقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية...

لذا، فإن قولنا بأن الثورة الإسلامية ليست بدعاً من الثورات في التاريخ البشري، إنما يعني به تجذر هذه الثورة في التاريخ والزمان، وانتهاء جذورها إلى كربراء التي كان لها أكبر الأثر في تميّزها، شكلاً ومضموناً، هدياً وشعراً، قولاً وعملًا. إنها الثورة التي امتدت في التاريخ والزمان حتى بلغت الخلوذ، وقد استطاعت الثورة المباركة في إيران متابعة هذه الثورة بكل أبعادها وامتداداتها، والاستفادة من مبادئها وتعليمها، وهذا ما أكده الإمام الخميني (رض) بقوله: "إن كل ما عندنا هو من عاشوراء" (2). وما أن عاشوراء تعني التغيير الجذري، وتحقيق المجتمع والأمة والدولة بالإسلام، فإن أي ثورة إسلامية تقتدي بالحسين عليه، في الحاضر والمستقبل، لا بد أن تقوم بهذه المهام، لأن

(1) سورة النساء، الآية: 65.
(2) الإمام الخميني، الاستقامة والثبات، ترجمة كاظم يوسف، بيروت، ط1، 1992، ص169.
ثورة الحسين عليه السلام رفضت أنصاف الحلول، وأثبت أنها لا يكون الإسلام حاكماً لكل أنشطة الإنسان في الحياة. وإذا كان تأكيده الإمام الخميني (رض) يدل على شيء، فإنه يدل على ضرورة تجاوز كل الثورات المادية، سواء أكانت اشتراكية أو رأسمالية، وعدم الركون إلى ما انطوت عليه من مبادئ وتعاليم، وإلى ما رفعته من شعارات، ودعت إلى تحقيقه من أهداف، لأن الثورات المادية، كما ألفهم الإمام، سواء العلمانية المادية، أو تلك التي رفعت شعارات إسلامية تمويها وخداعاً، قد شابها الكثير من الممارسات والتمويهات، بهدف تضليل القائمين بها، واستثمارهم في مشاريع السلطة لحساب أفراد أو جماعات تستغل الشعور الثوري لتحقيق أهدافها الخاصة. في حين أن عاشوراء، كما يرى السيد الخميني (رض)، كانت ولا تزال وسطبى تمثل قيمة التحرك الثوري باتجاه قضايا العدل والحرية وقيم الإنسانية، مما يحتم دامياً الاعتبار بها واستلهام معانيها، والالتزام بكل ما دعت إلى تحقيقه من أهداف نبيلة وغايات سامية. ولا شك في أن ما حققه الشعب الإيراني المسلم من انتصارات في جميع الميادين، كان بفضل التزامه واعتباه بالثورة الحسينية(1). ولهذا، فإن الشعب الإيراني يصلح لأن يكون قدوة لجميع الشعوب الإسلامية والمستضعفة في العالم لما حققه من إنجازات على الصعيد كافحة. إذ أنه يكفي هذا الشعب فخراً وعزاءً، إنه لا يوجد لا في تاريخ إيران، ولا في تاريخ الثورات، مثل الثورة الإسلامية(2).

(1) يقول السيد الخميني (رض): "إن الحسين عليه السلام لو لم يكن موجوداً في هذه الثورة، لما كان لها أن تتقدم، ولا يجب التحليل عن مجالس العزاء، لأننا إنما نحيا بها ...". را: الاستقامة والثبات، م. س، ص 159.
(2) م. ع، ص 273.
إن الإمام الخميني (رض) استطاع بعد قرون من الزمن، بل من الانحطاط والتشتت والسقوط أمام الغرب والشرق، أن يدخل الشعوب الإسلامية في حزام الحسنين عليه، وأن يدفع بها باتجاه الثورة الحقيقية، حتى يكون لها ما كان للحسنين عليه في حياته وموماته، وحتى لا يكون لها قدوة غير الحسنين عليه، ولا مدرسة غير مدرسة الحسنين عليه.

لقد انطلق الشعب الإيراني في أجواء عاشوراء وتعاليها، مستفيداً من كل الظروف والمعطيات لتحقيق الانتصار، وعلى الرغم من كل العوامل التي ساعدت على ذلك، وبمغزل عما كان يسود العالم من توازنات مختلفة، فقد بقي العامل الأساسي في الانتصار، هو العامل الدين، باعتبار أن المجتمع الإيراني متميز فيما هو عليه من التزام بالإسلام، عقيدة وشريعة، إضافة إلى تشبيه بتعاليم ومبادئ الثورة الحسينية، التي كانت ولا تزال، وستبقى من أهم تعبير حركة الإسلام في الاجتماع البشري، وهذا كله ساهم، وبشكل ملفت للنظر، في بلورة مشروع الدولة والحكومة الإسلامية، الذي كان ميثساً منه، أو غير مبهم شرعاً في كثير من الظروف، فالمما أن الإمام المعصوم مغني، إلى ما هنالك من نظريات تدعو إلى تعليق المسألة السياسية وعدم إقامة الحكومة(1)، وهذا ما رفضه الإمام الخميني (رض) بشدة، مؤكداً على ضرورة إقامة الدولة ونصب الحكومة، باعتبارها الفلسفة العملية لجميع الفقه في جميع زوايا حياة البشرية، إضافة إلى كونها تبلور بعد العملي.

(1) إلى جانب شعار فصل الدين عن السياسة، ظهر شعار آخر، وهو أكبر خطورة، يدعو إلى عدم تحمل المسؤولية، وترك الأمور إلى صاحب الزمان عليه، باعتبار أن الحكم قبل ظهوره باطل. انظر: الإمام الخميني، الخطاب التاريخي 22 شباط 1389 م.
للقاء في التعامل مع جميع المعطيات الاجتماعية والسياسية والعسكرية،
والثقافية ...

وإذا كان تبلور مشروع الحكومة الإسلامية قد تأخر في الظهور إلى
زمن الإمام الخميني (رض)، فإن ذلك لم يكن بسبب أن المجتمع الإيراني
غير مدرك لطبيعة النظام السياسي في الإسلام، أو غير مؤهّل لإقامة
الحكومة الإسلامية والدفاع عنها، وإنما كان بسبب ظهور دعوات تقلّل من
شأن الإسلام، وتحصر دور الفقهاء في حدود بيان المسائل الشرعية،
وتقييد المواعظ والإرشادات، وهذه الدعوات غالبًا ما كانت تصدر عن
الاستعمار وعملاه في الداخل لإدامة النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية،
وكان يوجد من بين العملاء من تزيّن القداسة البلهاء بهدف منع الشعب
من التعرف على ماهية قوانين الإسلام، ولكي يحولوا دون وصول
الروحانية الحقق إلى السلطة (1). وقد ذكر السيد الخميني (رض) أنه كان
من جملة دعوات هؤلاء، أن الدين لا يلتقي مع السياسة، وليس على
الروحانية أن تتدخل في الشؤون الاجتماعية، وليس من حق الفقهاء أن
يعملوا للتقرر مصير الأمة (2).

(1) يقول الإمام الخميني (رض): «أذات مرة اجتمع في منزلية: المرحوم آية الله
البروجي، والمرحوم آية الله الحجة، والمرحوم آية الله الصدر، والمرحوم آية الله
الخوئي، وهم من كبار مراجع الجمعة (1) للتداول في أمر سياسي مهم،
وتشددت إليهم أن يحدثوا موقفهم من المتظاهرين بالقداسة البلهاء، وان يعتبرواهم
أعداء من الداخل، لأن هؤلاء لا يهتمون بما يجري، ويحبونون بين العلماء
الحقيقين وبين تسلم السلطة والأخذ بزمام الأمور ...». ر: كتاب الحكومة
الإسلامية، ط النجف، 1389هـ، ص 139. وفقًا أيضاً مع الخطاب التاريخي
للإمام الخميني، تاريخ 22 شباط 1989.

(2) م. غ. ص 138.

38
إن عظمة السيد الخميني (رض) تكمن في أنه تابع مسيرة الفقهاء
الأعلام، واجتهاد في إقامة الدليل على شرعية إقامة الدولة والحكومة
الإسلامية على أساس ولاية الفقيه العادل، وكشف عن مضمون الإسلام
بكل أبعاده، نافعاً أن يكون معنى الفقاهة الأكثر من الصمت، مؤكداً على
دور الفقيه والاجتهاد في الشؤون الاجتماعية والسياسية، وفي تقرير مصير
الأمة، لكون ما قرره القرآن والسنة من أحكام في شؤون الحكم والسياسة
يراوي على ما قرره في الشؤون الأخرى، بل إن الكثير من الأحكام العبدية
في الإسلام، هي عبادية سياسية أدت الغفالة عنها إلى كثير من المآسي (1).

ومثلما كان للإمام (رض) دور كبير في الكشف عن طبيعة الظروف
والملابسات والتمويهات الخذاعة في زمنه، فكذلك كان له جملة آراء
ومواقف مما كانت تشهده العهود السالفة من ملابسات وممارسات دينية
وسياسية، وتحديداً في العهد الدستوري، الذي شهد صراعاً حاداً بين
العلماء، وفي أوساط الشعب الإيراني أيضاً، وكانت النتيجة تعبث المشروع
الإسلامي على مستوى النظرية والتطبيق معاً، ومزيداً من الإرباك للشعب
الإيراني إلى حد أن اختار الدستور لمجرد أنه يخفف من وطأة الاستبداد،
ويقيد سلطات الحاكم، في حين أن المطلوب آنذاك كان، بحسب رؤية
السيد الخميني (قده)، اختيار الإسلام، والاستمرار في التعبير عنه، لأنه
الأقوى حضوراً وفعالية، وينبني على كل محاسن النظام الدستوري
الحقيقي، هذا فضلاً عن أن يحاول دون أن يستغل شعارات الحرية
والديمقراطية وحقوق الإنسان للسيطرة على البلاد وثوراتها، كونه أريد
للشعب في كثير من الأحيان أن يتلقي بالشعارات وأن يختلف حولها.

(1) م.ع، ص.9.
بهدف صرفه عن مبادئ وأهدافه الإسلامية، وتقييده بالدستور، بدلاً من تقييد الحاكم الجائر به.

وهذا ما كشف عنه السيد الخميني (رض)، بتأكيد على أن الهدف من الدستور لم يكن حرية الشعب، وتحقيق العدالة، وتحكيم القانون، حتى يختلف العلماء والناس حوله، وإنما كان يهدف الإنكليز من وراء وضعه إلى أمرين: أحدهما: دحر نفوذ روسيا القيصرية في إيران، والآخر: إخراج الإسلام وطرده من ميدان التطبيق تزاماً مع استيراد القوانين الغربية وإحلالها محل قوانين الإسلام (1).

غاية القول: إن الثورة الإسلامية في إيران انصرت وتوسعت وعممت بسبب تجذر عامل الإيمان في نفوس أبنائها، وإذا كانت هذه الثورة، فيما حققته من أهداف، فقد تجاوزت ذاتها لتكون قوة لكل الحركات والشعوب الإسلامية والمستضعفة في العالم، فإن ذلك ما كان ليتم لولا تبلور المشروع الإسلامي المتكامل على يد الإمام الخميني (رض)، الذي أزاح جانباً كل ما كانت تحفه به الساحة الإيرانية من نظريات وأيديولوجيات منافية لطبيعة التشكل الثقافي والسياسي للشعب الإيراني. فهو التزم بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم، وطمغ دائماً إلى أن تكون روح الإسلام سارية في المجتمع والدولة على حد سواء.

وإذا كان هناك في تاريخ الفقه الشيعي ما يمنع من إقامة الدولة، ونصب الحكومة الإسلامية لما تعنيه من مصادرة لدور المعصوم ووظيفته، أو من يقول بحرمة إقامة الدولة لما يؤدي إليه من تأثير في ظهور صاحب

(1) رابعاً كتاب الحكومة الإسلامية، طبعة النجف، ص. ١٦٠.
الزمان، فإن الإمام الخميني (رض) قد تجاوز ذلك إلى القول بوجب إقامة الدولة ونصب الحكومة تأسسًا بالرسول ﷺ والإمام علي ﰊ، اللذين شكلا الحكومة، وتزعمها إدارة المجتمع.

لقد صرح الإمام الخميني (قده) أنه كان بالامكان إقامة الحكومة الإسلامية في أكثر من مرحلة تاريخية، باعتبار أن الظروف والأوضاع كانت مؤتية لذلك، وخاصة في بداية حكم محمد رضا، بدلاً ما أظهره الإمام من تحسّن على تأخر وقوع الثورة إلى زمانه، يقول الإمام (رض): «وحسرة وألف حسرة، إن هذه الثورة تحققت متأخرة، وعلى أنها لم تتفجر إلا في بداية، في الأقل، حكم محمد رضا الحكيم، ولو كانت قد وقعت لما كانت إيران، «إيران الممهوبة».

وقول الإمام (رض): «في الأقل» إشارة دقيقة إلى إمكانية قيام الثورة، قبل محمد رضا أيضاً، وتحديداً في زمن انتفاضة الدستور، وثورة النبك، ولكن كما بيت، في أبحاثنا عن الثورة الإسلامية وقائدها، حال دون ذلك انعدام المساعي الفقهية الجادة في سبيل إقامة الحكومة، ولا شك في ان انعدام المساعي الفقهية والسياسة كان له ميراثات، التي ترتكز أساساً إلى الحذر الشديد من إقامة الدولة في عصر الغيزة، والقلق الذي كان يساور أكثرية العلماء من الدخول في العمل السياسي والتصدي له.

(1) يقول الإمام الخميني: «إن الرسول ﷺ استخلف بأمر من الله من يقوم به بعده، وهذا الاستخلاف يدل بوضوح على ضرورة استمرار الحكومة وأجهزتها، كل ذلك بأمر من الله أيضاً. را: حديث الشمس، منظمة الإعلام الإسلامي، ترجمة ردّ جبارة، 1992، ص 27.
(2) را: وصية الوداع، نشر مجلة المعهد اللبناني.
(3) را: كتابنا فقهاء السلطة وسلطة الفقهاء عند الإمام الخميني، دار الورشة، بيروت، 1997، ص 110 وما بعدها.
على الرغم من أن الحكم الحكومي الذي أصدره المرجع الشيرازي ضد امتياز التبناي كان كافياً لاستثمار حركة الشعب باتجاه إقامة الحكومة الإسلامية، لأن حكمه، كما يرى السيد الخميني، كان صادراً عن موقف ولاية الفقيه العامة على الناس والفقهاء الآخرين (1).

وانتظراً ما تقدم، فإننا نرى ضروراً للإجابة على العديد من التساؤلات حول انتصار الثورة الإسلامية في إيران، طالما عرفنا، فيما سبق من تقديم، أن لهذه الثورة ما يميزها عن سائر الثورات في العالم، سواء من حيث الإلتزام الديني الذي قامت عليه الثورة، أو من حيث الأهداف الإلهية لهذه الثورة، أو من حيث الشعارات، أو من حيث فئات الشعب التي شاركت فيها. ومن جملة ما يثير حول إيران والثورة الإسلامية الأسئلة التالية، وهي:

ماذا كان ينشد المجتمع الإيراني من نهضته، وما الذي يميز أهدافه عقباً كان سائداً في العالم من قيم وثقافات؟

لماذا اختر المجتمع الإيراني الحل الديني؟

كيف تم توعية المجتمع الإيراني بجدوى الحل الديني؟ وما هو الفارق بين الدعوة الدينية للثورة، والدعوة الدينية التقليدية السائدة؟

لماذا لم يتوقع أحد حدوث ثورة بهذه السمات والخصائص، ولماذا لم يتسن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟

إن أي باحث في الشؤون الإسلامية، لا بد أن يطرح هذه الأسئلة

(1) ر. الإمام الخميني (رض)، كتاب الحكومة الإسلامية، م. س، ص 116.
حوَل الثورة الإسلامية، ونظراً لأهمية هذه الأسئلة، فإننا سنعرض لها
تباعاً، لترى ما إذا كانت الثورة قد تجاوزت ذاتها وحققت أهدافها على
النحو الذي يجعل منها ثورة متميزة في الخصائص والتميزات.

كما أنه مما تقتضيه طبيعة البحث أيضاً حول الثورة وتميزاتها، أن
يسلَّط الضوء على بعض الحقائق التاريخية، التي لا بد من الإشارة إليها في
سياق الحديث عن نهضة المجتمع الإيراني وتميز أهدافه وقيمته، باعتبار أن
الثورة لا تأتي من فراغ، وإنما لها جذورها الإسلامية الأصلية. ومن جملة
هذه الحقائق، أن نهضة المجتمع الإيراني ليست حديثة، وإنما قدماً نسبياً
فيما لو قورنت ببعض الثورات والنهضات التي قامت بها الشعوب في
القرن الخالي، وهذا ما سنعرض له في أبحاثنا اللاحقة.
ثانيا: نهضة المجتمع الإيراني وتميز أهدافه

رأينا، فيما سبق، أن المجتمع الإيراني يختلف عن سائر المجتمعات فيما هو عليه من التزام ديني وخلقی. وهذه حقيقة لا يختلف عليها الباحثون في شؤون الثورة الإسلامية، والمتبعون للأوضاع الدينية والسياسية في العالم الإسلامي. ولعل من أبرز ما يمكن ذكره في هذا المجال هو دور المؤسسة الدينية في الحياة الإيرانية، منذ أن دخل الإسلام إلى المجتمع الإيراني، وأخرج من ذهن الإيراني فكرة احترام روحانية الدين بطبقة خاصة، وكذلك فكر الحكم الأرستقراطي أو الاشرافي (1)
وقد ازداد دور المؤسسة الدينية فعلاً وتأثيراً مع اتخاذ قرار التشيع والتحول

(1) انظر: مظهر، مرتضى، الإسلام وإيران، بيروت، دار الحق، 1982، ص 238. ومما يذكر في هذا المجال أيضاً، ملاحظة الباحثين للعلاقة الحساسة بين الدين والسياسة في تاريخ إيران، فهذه الأخيرة قبل الإسلام تقدم صورة بارزة عن هذه العلاقة، وتحديداً في العهد الساساني، حيث كان الدين إما حام للسلطة، وإما أداة للانقلاب عليها، ومع دخول الإيرانيين في الإسلام استمرت هذه العلاقة الحساسة، بل توطدت أكثر نظراً لما ينطوي عليه الإسلام من مميزات وخصائص جعلت من هذه العلاقة أكثر بروزاً. را: وجه كورثاني، الفقيه والسلطان، دار الراشد، بيروت، 1989، ص 139.
الجذري نحو المذهب الجعفري، حيث برز عامل التقليد للمجتهدين، وتنامي دور فقهاء الشيعة، وأصبحت المرجعية الدينية هي الممثلة الوحيدة للمسلم الإيراني (١)، ومما يدل على هذه الحقيقة، هو ما وصلت إليه المؤسسة الدينية في إيران من قوة واستقلال في إدارة شؤون الناس وتوجه المجتمع ليس فقط من النواحي العقائدية والثقافية، ولكن في النواحي السياسية أيضاً.

وإذا كانت هذه المؤسسة الدينية قد تأخرت للوصول إلى السلطة وحكم البلاد، فإن ذلك لم يكن نتيجة لضعفها فيما تمارسه من دور توجيهي، وإنما كان نتيجة لوعاء كثير (٢)، ولم يكن السلطان الحاكم من جملتها، لأن هذا الأخير لم يكن قادراً على مواجهتها، أو أن يحول بينها وبين الشعب، وكان دائماً ينطلق إلى أن يكون في مأمن من أي قرار أو فتوى صادرة عن هذه المؤسسة، ويكفي هنا أن نشير إلى حقيقة هامة جداً، ألا وهي انضمام المجتمع الإيراني مع المؤسسة الدينية لدرجة أنه كان من غير الممكن التوجه بالخطاب إلا إليها، خلافاً لما كان يجري في سائر أنحاء العالم الإسلامي من التوجه بالخطاب إلى السلطات الحاكمة. ففي الوقت الذي كان يخاطب فيه الإنسان المسلم كاري إيران من خلال السلطة والمؤسسات السياسية القائمة، كان الإنسان الإيراني يخاطب من خلال المؤسسة الدينية، بدلاً من جمال الدين الأفغاني غالباً ما كان يضطو

١) يرى فهمي هويدي أنه منذ تشريع إيران رسميًا في بداية القرن السادس عشر الميلادي، فقد ظهر أن تصبح "المذهب" تبلور فيه الفكر السياسي الشيعي، بحيث انتقل من حيّز الدعوة إلى صيغة المؤسسة الدينية أو المرجعية، وأخيراً إلى الدولة. را: فهمي هويدي، إيران من الداخل، ط٣، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٥٧.

٢) كنا قد أشرنا إلى بعض هذه العوامل في مقدمة البحث.
لمخاطبة السلطان في الدولة العثمانية لتحقيق أمر ما، لما كانت عليه المؤسسة الدينية من وقائ تام ومستمر مع الدولة والسلطان، بينما هو كان يخاطب في إيران والعراق المؤسسة الدينية، كما فعل تماماً حينما خاطب المرجع الشيرازي، طالباً منه التدخل لإيقاف المؤامرة التي كانت تستهدف إيران وثوراتها.

إن نهضة المجتمع الإيراني، وإن كانت قد بلغت ذروتها مع انتصار الثورة الإسلامية، إلا أنها كانت قديمة، وتمكنت في أكثر من مرحلة تاريخية مررت بها إيران، وذكر في هذا المجال ثلاثة مراحل كان المجتمع الإيراني يعبر فيها عن انتفائه الحقيقي للإسلام، وهذه المراحل، هي المرحلة الصفوية (1501-1722 م)، والمرحلة القاجارية (1795-1925 م)، والمرحلة البهللوية (1925-1978 م). وفي بعض هذه المراحل كان الصراع على أشدة بين المؤسسة الدينية والسلطان الحاكم، والحق يقال: إنه لشدة ما كانت تمثله المؤسسة الدينية من حضور، وتمارسه من ضغوط على السلاطين، كان يقوم هؤلاء بالانحناء أمامها، وذلك إما خوفاً منها، وإما بدافع الحاجة إليها، كما هو الحال بالنسبة للصقور الذين استعانوا بالعلماء الشيعة من جبل عامل وغيره لتوحيد الداخل، وتعزيز الملكية المطلقة في مواجهة ضغوط الخارج، ظناً منهم

(1) يقول الأفغاني في رسالته إلى مراجع الشيعة، وتحديداً إلى المرجع الشيرازي، "وأنى وحذك أذنها الحجة بما أنتي في الدرجة السامية وال منزلة الرفيعة علية فاعلة في نفسك الناس... وإن كلمته ضغط تأتي بوحدانية ناحية يحق لها أن تدفع الشر المحدد بالبلاد وتحفظ حوزة الدين... فالكل مك ويك وإليك... وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس... وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمرًا...».

انظر: جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق عمارة.

محمد، ح2، صـ274.

46
بأن ذلك يعرّز المناخ الصوفي الذي اختلط بالتشيع، ولكن، كما يقول الشيباني، ما إن وقعت الصوفية تحت تأثير فقهاء الشيعة، حتى تحولت إلى تشيع فقهي معتادًا (1)، وبغض النظر عما كان يهدف إليه الصفويون من وراء ذلك، فإن فقهاء الشيعة قاموا بدورهم في نشر العلوم الإسلامية، وتحقيق المجتمع الإیراني بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا، بعيدًا عن التصوّف الصفوي وما يعتني به طرائف حلولية، دون أن يسمحوا للسلطة باستمرارهم في مشروعها السياسي الخاص. وإذا كان بعض الفقهاء قد اطلع بدور خاص في الدولة الصفوية، كما الحقق الكركي، وغيره، فإن ذلك لم يكن منهم بهدف تعزيز البعث الصوفي للدولة الصفوية، أو دعم التوجه السياسي لها (2)، وإنما كانت بهدف أبرز الوجه الحقيقي للتشيع، وترجمته على النحو الذي يؤدي به الي أن يكون حاكماً في المجتمع والدولة معاً (3).

(1) را: كامل الشيباني، الصفويون، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج 3، ص 231.

(2) صحيح ان الحقق الكركي قد أحرر عملاً بسلطان الدولة الصفوية وتعامل معها بما يوحي بالاعتراف بشرعيتها، لكن ذلك لا يصح لأن يكون معياراً للحكم السلمي على الفقهاء في تعاملهم مع الدولة القائمة، لأن الموقف الفقهي الشرعي، كما يرى شمس الدين، من هذه الدول هو عضو شريفتها، باعتبار اتحاده معاهدة لكل الحكومات التي قامت في التاريخ الإسلامي خلافًا لإرادة المعصم، ولا يجوز الاعتراف بشرعيتها، وغاية الأمر في الفرق بين الحكومات التي ادعت التشيع وبين غيرها من الحكومات المخالفة للتشيع، هو في درجة التعامل، وليس في طبيعته، فطبيعة التعامل واحدة، إلا أن الحكومات الشيعية كانت لا تضطهد الشيعة، فكان التعامل معها أيسر والانفتاح عليها أكبر. را: الشيخ شمس الدين، محمد مهدي.

(3) يشير كوتراي إلى أنه بقي دور الفقهاء الشيعة الذين استعانوا بهم الدولة الصفوية أساسياً في نشر المذهب الشيعي في أنحاء إيران ومعهم تحولت الطريقة الصفوية إلى دولة، ولم يكن ذلك ممكنًا دون الاستعانة بالفقهاء الشيعة، باعتبار أن إيران = 

47
لا شك في أن تتابع الأحداث في العهد الإيراني الثلاثة، (الصفوي، القاجاري، البهلوي) قد أوصى الشعب الإيراني إلى ذروة الوعي الدیني والسياسي، ودفع به إلى أن يلمسم الحلول لمشكلاته الخاصة والعامة من الإسلام، وليس مما كان سائداً من نظريات غريبة عنه، أو مفروضة عليه. كما أدى به هذا الوعي إلى صياغة مفردات وشعارات خاصة به تبلورت شيئاً فشيئاً إلى أن بلغت تمام التميز مع الثورة الإسلامية.

وإذا كان الشعب الإيراني قد وعى ما للإسلام من دور في تحقيق أهدافه، وتعزيز وحدته، فإنه لم يدخر جهداً إلا بذله لترجمة الإسلام بكل مضامينه وأبعاده، بحيث يكون نشانات الحق والعدل والحرية والاستقلال من خلاله، وليس من خلال شعارات واهية ومزيفة تلجأ إليها الحكومات والسلطات لإيحم الشعب بأنهم يشدون ذلك، وقد كان الفقهاء - في العهود الثلاثة - يشدون الناس إلى زيف ادعاءات السلطة، ويركمون عليها بعدم الكفاءة. وغالباً ما كانت تصل الأمور إلى حدّ المواجهة مع السلطان، كما حصل حينما اصطدم المقدس الأردبلي مع الشاه عباس(1)، والمراجع الشيرازي مع الشاه ناصر الدين(2)، وغير ذلك كثير.

= في ظل الظاهرة الصوفية الصفويّة كانت تعاني من نقص كبير في الثقافة الفقهية.
= ر: وجه كوثري، الفقيه والسلطان، م، ص، 142.

(1) يذكر الشهيد مطهرى أن الشاه عباس الكبير (1587 - 1629م) كان يصرّ إصراراً شديداً على مجيء المقدس الأردبلي إلى أصفهان، ولكن هذا الأخير كان يرفض دائماً، وذات مرة اصطدم به وذكره بأن قوته وعرشه لا يقومان على حق إلهي، ولا على كفاءة من جانب ملوك أسرته، كما أنه كان يخاطب الشاه عباس بصاحب الملكية العارية عباس. ر: مطهرى، مرثي، الإسلام وإيران، م، ص، 323، وقا: مع تفصيل أكثر مع فهمي الهويدي، إيران من الداخل، مؤسسة الأهرام، مصر، ص، 60.

(2) لقد وقع الشاه ناصر الدين عام 1890م مع أحد البريطانيين على امتياز يعطي
مما حفلت به الساحة الإيرانية من صراعات وصدامات بين الفقية والسلطان.

إن نهضة الشعب الإيراني، وما كان ينشده من حق وعدل وحرية واستقلال، استمرت في النمو والتصاعد إلى أن بلغت ذروتها مع الإمام الخميني (فده)، ولو لم يكن المجتمع الإيراني على وعي كبير بقدرة الدين والروحانية الحقيقة على الإصلاح، لما كان لأحد أن يتوقع أن تصل الأمور إلى ذروة الانتصار الكبير، الذي تجلى بإقامة الحكومة الإسلامية. مع الإشارة إلى أن ما كان ينشده المجتمع الإيراني في نهضته من حقوق وتطلائعات، يمكن أن يجاب عليه من انتصار الثورة الإسلامية ذاته، لأن هذا الانتصار جسد كل قيم الحق والخير والعدالة والحرية، وأكد لكل أصحاب الشعارات المزيفة، أن الإسلام والعمل بمضامينه، هو وحده الذي يضمن الحرية ويحقق الاستقلال. وأدى تأمل فيما هي عليه إيران اليوم، قياساً إلى ما كانت عليه في السابق، يُظهر مدى ما للإسلام من قوة في تحقيق النهضة ضد الظلم والجزر والطغيان.

لقد جسد المجتمع الإيراني نهضته لقضايا الحقوق والحرية والعدل، بما هي الإسلام كله في نموذج نهضة الإمام الحسين عليه السلام على هدى نورته المقدسة، وتعاليها التي كانت ولا تزال تشكل حجر الزاوية

= بموجه حق استمرار النهج لمدة 50 عاماً مقابل 15 ألف جنيه استرليني للحكومة الإيرانية، ونبوغة لقصة الفلاحين على هذا الامتناع المجحف بحقهم رسل المبرزا الشيرازي نرقية إلى الشاه يشتره من الاستمرار في العمل بالاتفاقية المجحفة بحقوق المسلمين، ولم لا يلق راجح به أننا صاغية أصدر فناء التاريخية وحكمه الحكومي بتحريم النهج، وكانت النتيجة أن أذعن الشاه وألغي الاتفاق عام 1899.

(1) انظر: دراسة كورثاني، الفقية والسلطان، ص. 180، ص 180.
في انتصار الثورة الإسلامية، وما دام الشعب على ارتباطه الوثيق مع هذه الثورة، فإنه يستمر في نضخته حتى تبلغ مداها بحيث تعم كل المجتمعات التي تعاني من الظلم والاضطهاد، سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية، لأنها نهضة الإنسان الطامح إلى الحرية، والمؤمن بضرورة أن يتحول العالم كله إلى ساحة أمن وسلام وخلاص من شرور الطواويت.

وإذا كانت نهضة المجتمع الإيراني قد تعززت بإقامة الحكومة الإسلامية، فإن على المجتمع، كما يرى السيد الخميني (رض)، أن يتابع انتصاره بحفظ ما كان منه من التزام حقيقي بالدافع الإلهي، الذي هو إلى جانب الهدف السامي للحكومة الإسلامية - سر انتصار الثورة، وسرّ ديمومتها.

وانتطلاً من هذا الدافع الإلهي، فإنه من الطبيعي جداً أن يستمر الشعب الإيراني على تمييزه في الأهداف والقيم عمّا هو سائد في العالم من أهداف وقيم وثقافات، ذلك أن ارتباط المجتمع الإيراني بالإسلام وعلاقته الوثيقة به، وانسجامه التام مع حركة النبوة والولاية في التاريخ البشري، من شأنه أن يبقى على هذه التمييز في الأهداف والقيم. وهنا تجد الإشارة إلى أن المجتمع الإيراني، رغم أنه عاش تجارب سياسية كثيرة، واطلع على ما هو سائد في العالم من قيم وثقافات، وخبر بدقة ما شهد العالم من ثورات وتحولات، وما رفع من شعارات، ورغم ما تعرض له من محن ومظالم وآلام، فإنه استمر على ارتباطه الوثيق بأهداف الإسلام وقيمه، ولم تشهده مفاجات الحضارات، ومخاطر السلاطين، بل استمر على أهدافه المعلنة، وقيمته المعاشرة، متخذًا من الإسلام نظامًا لحياته الخاصة.

(1) انظر: وصية الإمام الخميني (رض)، النداء الأخير، مؤسسة الإمام الخميني (فده) الثقافية، طهران، ط 1، 1992، ص 28.
ومع ذلك، ومن الأئمة الأظهار علَّمواً وقِدَّمواً وقِدَّمواً في القول والعمل،
وهو أمرٌ من الوضوح بمكان.
ولما كان المجتمع الإيراني قد شهد تحولات كبيرة، وصراعات
دامية تراجعت بين أن يكون المهيمن على البلاد الانكليز تارا، والروس
طرا، والأميركيين، تارا ثالثة.
ولما كان الصراع على أشده بين المؤسسة الدينية والسلطانين، ولما
كانت الشعارات والنظرات تتراوح بين أن تكون دستورية تارا، واستبدادية
طرا، وإسلامية ثالثة، فإن هذا التجاذب كله لم يحل دون استمرار الشعب
على أهدافه المعلنة، التي تستبطن ضرورة أن يكون الإسلام هو البديل
لكل ما يتضد به الغرب والشرق من نظريات وأيديولوجيات ما أنزل الله بها
من سلطان.
وإذا كان المجتمع الإيراني في مرحلة ما قد أسقطت عليه شعارات
الدستورية والديمقراطية من فوق بطريقة تكتيكية من قبل سياسيين وعلماء
دين، فإن تاريخ تلك المرحلة يطلعنا على الطريقة التي تعامل بها المجتمع
الإيراني مع تلك الشعارات، ويظهر لنا أن الشعب، رغم انسحابه بين مؤيد
ومعارض للدستور، استمر في تساؤله عمّا تعنيه الديمقراطية والدستورية،
وما يمكن أن تحقيقة من تقدم إلى ما هايلك من تساؤلات كان الهدف منها
ليس الاحتكام إليها والأخذ بها، وإنما اكتشاف مضامينها ومعرفة مدى
مطابقتها لقوانين الإسلام (1).

(1) يذكر الشهيد مطهري حول الحركة الدستورية، في أن الذي كان يعمل أجلها لم
يكن يدرك مغزاها، وكذلك الذي كان يعارضها، فلم يجب ما عليه أن يعمل
وذاك أن كان يدل على شيء، فإنه يدل على عدم استعداد الشعب للتجارب مع
شعارات ونظريات تخبئه وراءها الكثير من السياسات المشبوهة، فالشعب =
إن ارتباط المجتمع الإيراني بأهداف وقيم الإسلام كان يدفع به دائماً إلى الشك في كل ما كان يطرحه الاستعمار وأعوانه في الداخل من شعارات ونظريات حول العدالة، وحقوق الإنسان، ومحاربة الظلم، وهذه كلها أهداف تسعى أية ثورة صادقة لتحقيقها، لكن، كما أشرنا، وعي المجتمع الإيراني بالإسلام، واحتكامه إليه في جميع شؤون حياته، كان يجعله دائماً في حالة من عدم الاطمئنان إلى طبيعة تلك الأهداف والشعارات، وقد أوضح السيد الخميني (رض) أن المجتمع سيستلم بكثير من الألفاظ ذات المظهر الجميل من أمثال الديمقراطية والحرية وغيرها، والتي لم تنجسد في أي مكان من العالم حتى الآن(1).

وكيف كان، فإن الشعب الإيراني لم يخلو يوماً من الروحانية الحقيقة، التي تأخذ على عاتقها مهمة الكشف عن زيف ادعاءات الغرب والشرق في مجتمعات المسلمين، وخصوصاً إذا كانت هذه الادعاءات تترافق مع شعارات الفصل بين الدين والسياسة(2). وبما أن الشعب الإيراني

الإيراني سبق له أن قام بثورة الثورة سنة 1953 م بقيادة علماء الدين، وكان للحكم الحكومي الذي أعلنه الشيرازي أثره البالغ، فما معنى أن تقوم ثورة الدستور عام 1905 م، وبقيادة علماء الدين أيضاً على أساس معايير أخرى، غير ما ذكره الإمام الخميني (رض) من أن الانتفاضة الدستورية لم تسر في الطريق السليم بشكل كامل، لأنها انتهت إلى تجسيد العلماء، بينما كان المطلوب أن يستمر العلماء بالثورة لتكون متواصلة مع ثورة الثورة، ولهذا نلاحظ أن الإمام الخميني تواصل مع ثورة الثورة ولم يتواصل مع ثورة الدستور خصوصاً أن نصاب إيران بنكهة المؤيد والمعارض لهذا النطق أو ذاك، أو أن ينتهي الشعب بالآلفاظ الجميلة الوافدة من الغرب والشرق، فكان الإسلام هو البديل والحل.

(1) انظر: الإمام الخميني، حديث الشمس، منظمة الإعلام الإسلامي، ترجمة: رعد جبارة، 1992 م، ص 76.
(2) يقول الإمام الخميني (رض): إن علماءنا على مر التاريخ لم يكونوا متعزلين عن السياسة وكانت قضية الدستور (المشروطة) قضية سياسية وتدخل فيها أكابر علمائنا.
يدرك تمامًا العلاقة الوثيقة بين الدين والسياسة، فقد استحلل على المستعمرين وأعوانهم في داخل إيران، استمالة الشعب إليها، لأنه متشبع بالإسلام، عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وقدر على أن يصغ حيائه وفقاً لهذا الدين، الذي كان له أكبر الأثر في انبهارته وتحريره، مما يعني أنه لم تكن تنقص الشعب الإيراني ثقافة أن الإسلام دين كامل ومتميزة فعلاً ينطوي عليه من أحكام وتشريعات. ولا شك في ان هذه الثقافة حالت دون تشتيت الشعب الإيرانية، ومكنته من بلوورة مشروعه الإسلامي بعيداً عن كل نظريات وشعارات الغرب والشرق معاً.

وهذا الشعب، بمقتضى الدافع الإلهي الحي، حاكماً الفطرة السليمة لحياته الخاصة والامة، وتحققه الدائم بالشعور الإسلامي، فقد استطاع التميز فيما أعلنه من شعارات وفيما حققه من مبادئ وأهداف، كما أنه بفضل ذلك استطاع التحرر من عبودية الأشخاص، والخروج من دائرة التبعية لهذا القطب أو ذلك، ليتحول في النهاية إلى مركز استقطاب وجذب بما حققه من وسطية في سياساته، ومن توازن في علاقاته الداخلية والخارجية.

إذن، المجتمع الإيراني من خلال نهضته، وما عزم على تحقيقه من أهداف، وترسيخه من قيم إسلامية، استطاع أن يتجاوز ذاته، وأن ينطلق في حدود ما يملك من طاقات وقدرات ومعارف ووضوح في الرؤية والهدف باتجاه قضايا العدل والحرية، لا في إيران وحسب، وإنما في

أمسوها، وكذلك قضية تحرير التربة، وفي الفترات الأخيرة، كان السيد حسن المدرسي، والسيد الكاشتاني من العلماء السياسيين. فالساحة الإيرانية لم تخل يوماً من العلماء العالميين، والهادفين إلى تحميل الإسلام في شؤون الناس الدينية والدنيوية. را م.ع ص 32.
عالمه كله، لأن الروحية التي حركت هذا المجتمع وجعلته في صراع دائم مع قوى الشر، لم يكن ممكنًا احتواء مفعولها، أو الحد من انتشارها. وقد شاء الله تعالى أن تكون إيران مركز إشعاعها، ومصدر انبعاثها نحو الشعوب الإسلامية وسائر المستضعفين في العالم.

لقد أيقن الإمام الخميني (رض) أن التجربة الثورية في إيران سيكون من آثارها الكشف عن زيف المبادئ والقيم السائدة في الغرب والشرق. هذا فضلاً عن هذه التجربة من محاسن وизма الأبعاد الإسلامية في زمن تكاد تتحسر فيه المعنويات، وتنعدم فيه الأخلاق والقيم الإنسانية، أو على الأقل تتحول إلى مادة اجتذاب لدى الحكام والسلاطين. يرفعون عنها لتبزير مسلكهم العدواني اتجاه الشعب، كما كان يفعل رضا خان وخلفه محمد رضا حينما استغلَّ شعارات القيم والأخلاق والحرية والمدنية الكبرى، لإحكام السيطرة الاستعمارية على البلاد وثرواتها.

ومما لا شك فيه ان تميز المجتمع الإيران وثورته في الأهداف والقيم، وفي الثقافة أيضًا، ساهم، ولا يزال يساهم في إيجاد الرؤية الموحدة والواضحة حول طبيعة الصراع الدائر بين الحق والباطل، وبين الإسلام والكفر، إذ أنه لم تعد هناك غشوات تحول دون التعرف على

---
(1) انظر: وصية الإمام (رضى، النداء الأخير، م. ص، ص 49. ورا. أيضًا الإمام الخميني، في الاستقامة والثبات، م. ص 95.
(2) يقول الإمام الخميني: "إن النمط الذي دخل إيران من الديمقراطية والحرية والاستقلال، وكل الأمور التي وردت إيران حتى الآن من النوع الذي كان الشاه المقرب يرفع به عفريته ويرده باسم المدنية الكبرى، فكانت مدينته تلك التي رأيتها، والتي دمرت الشعب وأدانته الأمورين." را: حديث الشمس، م. ص 77.
هوية المبادئ والقوانين، وكذلك القيم والثقافات والمشاريع التي يراد لها أن تتحكم بالشعوب الإسلامية لتسير وفقها وتعمل بمقتضاها بعيداً عن الروحية والمعنوية والدينية وغير ذلك مما يشكل قوام وجوهر ومضمون النهضة الدينية في إيران والعالم.

فالمجتمع الإيراني أثبت في نهضته القديمة الفائقة على الانبعاثات الدينية في وسط وخصم صراعات القيم والثقافات المادية، كما انه استطاع من مكان معين في الجغرافيا، ومن خلال لحظات معينة في الزمان، لا تقاس بشيء في زمن الانبعاثات المادية، والتصحر المعرفي والقيمي والروحي، أن يوجه نفسه وسائر شعوب الإسلام المتسعة، باتجاه هدف وحدوي توحيد، هو تثبت واستقرار القيم الإسلامية وحدها. هذه القيم التي عمل الاستثماراً قديماً وحديثاً من أجل نفيها، إما مباشرة، وإما من خلال أعقابها في الداخل، لتعبيد نماذجه الأخلاقية والحضارية والقيمية لتكون بديلاً للإسلام في حياة المسلمين.

لكن الشعب الإيراني في نهضته، كان على حله تامة بأن نجاح الشعوب الإسلامية في تحقيق الهدف الوحدي التوحيد في مجال الأهداف القيم من شأنه أن يخلق الأجواء المناسبة للتحرر من قيود الاستعمار القيمية والمعرفية والثقافية المادية، مما يساعد مجتمعات المسلمين في ظل أهدافها السامية، وقيمتها الروحية والمعنوية على التحول لتكون جزءاً من إدارة الصراع ضد الباطل، بدلاً من أن تكون وقوداً في صراع الباطل ضد الحق. ولهذا، فإن ما استطاع المجتمع الإيراني تحقيقه وتقديمه للشعوب الإسلامية المستمعة، هو أنه قدم النموذج الحيّ لهذا التحرر والاستقلال عن كل تبعية واستغلال، رغم كل ما أبداه المستعمرون من استياء وندم وخوف واعان في مواجهة الانبعاثات الدينية للمجتمع.
الإيراني، وهم لم يذخروا جهداً إلا بذلوا للحيلولة دون انتصار هذا المجتمع، مقدمين كل وسائل الدعم لأدواتهم في الداخل الإيراني وخارجها لافتعال الأزمات المختلفة، للحد من نفوذ وامتداد هذا النموذج بكل أهدافه وقيمته، إلا أن جهودهم لم تثمر في منع هذا النموذج من التبلى ليشكل نقطة ارتكاز وجذب عن طريق تقديم نموذج للحياة الإنسانية بكل ما تزخر به من قيم وأهداف، وبريء من مساوئ الجاهلية الحديثة، وحافل بخيرات الحضارة الإنسانية التي يطمح إليها، إضافة إلى انسجامه التام مع الوضعية الإنسانية الأخلاقية والروحية، وفضلًا عن ذلك كله تقديم النموذج الإسلامي للحكم، والذي لم يسبق للمسلمين أن تعرّفوا إلى مثله منذ مئات السنين.
ثالثا: الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه

وهذا العنوان يفرض علينا الإجابة على السؤال التالي:

هل يتيسر تحقيق الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه؟

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل لا بد من الإشارة إلى شيء من تتابع الأحداث في إيران، فنقول:

إن الحديث عن النهضة الإسلامية في إيران يستدعي دائماً الأخذ بعين الاعتبار ما كانت تشهد تلك البلاد من صراعات بين الفقهاء والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم إيران.

وإذا كانت المؤسسة الدينية ممثلة بالفقهاء قد ظهرت بوضوح التوافق مع السلطان، وتحديداً في العصر الصفوي، فإن كثيراً من الباحثين والمؤرخين لتلك المرحلة قد أجمعوا على أن السر الكامن وراء هذا التوافق هو الحاجة إلى الفقهاء الشيعة من قبل الحكام الصفويين، لبلورة مشروع للحكم كان الصفويون عاجزين عن بلوغه لما كانوا عليه من صوفية وتعبيرات شعرية وحلوائية. وقد جاءت الاستعانة بالفقهاء، بحسب ما
نرى، لا لتحقيق الأهداف الإسلامية في الدولة والمجتمع، بحيث يكون دور السلطان ثانياً أو تابعاً للمؤسسة الدينية، وإنما لأجل تمتين قواعد الدولة الصفوية في مواجهة الأحداث والضغوط الداخلية والخارجية، وتتأكد، فإنه لم يكن خافياً على الفتى الشيعة هذا الأمر، وهم إنما لقوا الدعوة تحملًا للمسؤولية، وحرصاً على الاستفادة من فرصة كانت مؤاتية جداً لنشر العلوم الإسلامية الصحيحة وبلورتها على النحو الذي يجعلها متميزة عن الصوفية الصفوية التي كانت تسود إيران في تلك الفترة.

واستناداً من ذلك، فإنه يمكن القول، بأن التعامل مع السلطان كان محكوماً لهذا الهدف، ألا وهو تعميق الوعي الديني، وإرشاد الناس إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه في الدين والدنيا، دون أن يتعدي ذلك إلى الاعتراف بشرعية الحكم الصفوي، إلا بالقيد الذي يحفظ النظام العام، ويؤمن حقوق الناس، ويحقق العدالة، ويوفر الأمن والاستقرار في المجتمع الإسلامي.

(1) يذكر المؤرخون أن الشاه اسماعيل حاول الاستفادة من التشغيل للثورة على السلطة العثمانية.

(2) هناك نصوص كثيرة تظهر أن التعامل مع السلطان لم يكن يعني الاعتراف الكامل بشريعته، بلديًا، حينما اصطدم المقدّس الأردنجي مع الشاه عباس الكبير، ذكره بأن قوته وعرشه لا يقومان على حق إلهي، ولا على كفاءة من جانب ملوك أسرته، ولكنها تستند إلى نبأ عن الإمام الغائب. وإذا أخل بشروط التفاوض، نوافرها فين يباشر تلك النبأة، فلعلما، حتى تجنبه عن نجمه. وكذا الحال بالنسبة للشيخ الكركي، فهو لكي عاملاً لدى السلطة الصفوية ليكون رهن أمرها وتهيئها، وإنما كان تعامله معها واعترافها بها مرتكرًا إلى مباني فقهية.

وقد أشار المؤرخون إلى أن الشيخ في زمن الشاه اسماعيل الصفوي نأى جانباً، وغادر إيران عام 1521م إلى النجف، ولم يعد إلى إيران إلا في عهد ابن الشاه اسماعيل طهماسب وفقاً لشروط اشترطها، ومع عودته نشر طهماسب أمراءً ملكياً، يأمرون ببطاعة الشيخ ويحذرون من مخالفته، وقد صبي أمره بلغة فقهية، مما يحمل =

58
وجمع أول العهد الصفوي، إثر غزو الأفغان لإيران عام 1722م، ودخول إيران في زمن الفراغ (1)، ومن ثم في أزمة البيردي، التي تمثلت بالقاجار والحكم البهلوي، بدأت الأهداف تتمازج بين الفقهاء والسلطين لتصبح إلى حد التنافس في كثير من الرؤى والأهداف، فبعد أن كانت هذه الأهداف تتلاقى نوعاً ما في العهد الصفوي، أصبحت في العهود الأخرى متناضرة، وذلك انما كان نتيجة لوعول وأسباب كثيرة، منها: ازدياد التبعية للغرب، أو للشرق، مما كان يحول دون توافق السلطة مع الفقهاء في كثير من الأمور المتعلقة بالسياسات الداخلية والخارجية. ويمكن أن نذكر في هذا السياق ما كانت عليه المؤسسة الدينية والفقهاء من قوة في مواجهة السلطان في العهد القاجاري، عندما احتل الروس المقاطعات الشمالية من إيران واستسلم القاجار لهم، فتحرك الفقهاء إثر ذلك بقيادة السيد محمد المجاهد، ونظموا في سنة 1826م، حركة لمقاومة الاحتلال الروسي، وكانت النتيجة انتصار الفقهاء على السلطان، نظراً لما كانوا يشكلونه من ثقل في الساحة الإيرانية (2). وإذا كنا نحن بصدد الإجابة على

-----------
(1) لقد عاشت إيران، بعد سقوط الصفويين، أكثر من نصف قرن في ظل الفوضى والحروب المحلية حتى استولى القاجار على السلطة في عام 1765م، وبدأوا عهداً جديداً شهد الدور السياسي الفعال للمؤسسة الرئيسية. را: هويدي، فهمي، إيران من الداخل، م. س، ص 61.
(2) إن إعلان المقاومة من جانب الفقهاء، والتهديد بخلع الشاه، دفع بالروس آنذاك إلى التحدث مع الفقهاء لإقناعهم بوقف المقاومة. وهذا بين لنا مدى الثقل الذي كانت عليه المؤسسة الدينية في عهد الشاه فتح علي (القاجاري). ولنكن كانت المعركة مع الروس قد أدت إلى الخسارة العسكرية، وتوقيع معاهدة (تركمانشاي) سنة 1828م، التي كرمت الاحتلال الروسي لعدة مقاطعات إيرانية، فذلك، كما يستفاد من تاريخ تلك المرحلة، إنما كانت له أسبابه الداخلية، لأن السلطان =
ما يمكن تحقيقه من أهداف في ظل نظام الشاه، فإن تاريخ إيران وما شهدته من صراعات وصدمات وثورات ضد السلاطين والأجانب، يدلل بوضوح على أن الشعب الإيراني كان دائماً يملك القدرة على التحرك بقيادة العلماء لتحقيق الكثير من الأهداف.

كما أن توالي الأحداث في ثورة التنباك، وفي ثورة الدستور؛ وانهاء بالثورة الإسلامية، كل ذلك يؤكد أن شعب إيران، حينما كانت توفر له القيادة الحكيمة، والظروف المؤتية كان يتحرك باتجاه الثورة والتغيير والتحرر من التبعية للغرب أو الشرق، وهذا ما دُلّت عليه الأحداث، وأثبتته الوقائع في التاريخ الإيراني (1).

لقد وعى الاعتمار وأعوانه في الداخل، مدى أهمية وخطورة الدور الذي يلعبه الفقهاء في حياة الشعب الإيراني، فعمد منذ انقلاب رضا خان عام 1924م، إلى اعتماد أساليب ووسائل جديدة للتأثير على الشعب، وتشويه مبادئه. وقد تراوح وسائل الاعتمار بن الدعم المطلق للسلطان في كل ما يحتاج إليه من أجهزة وأموال وأبواق دعائية، وبين استثمار بعض المقدسين المزيفين في ضبط إيقاع التحرك الشعبي تحت شعارات واهية ومزيفة لا تمت بصلة إلى الإسلام ومبادئه. و.TODO، كما يقول الإمام الخميني (رض): "تراوح وضعهم بين أن يكونوا من البطالين من عديمي الهمم، أو من الكسالي الذين يكفون بالدعاء والثناء.

(1) لا شك أن تاريخ إيران هو تاريخ الفقهاء، ثورة التنباك والدستور كانت بقيادةهم، والثورة الإسلامية المبارك، كانت بقيادةهم، مما يدلل بوضوح تام أن التاريخ الإيراني هو تاريخ الفقهاء وليس تاريخ السلاطين.
والتحدث في بعض المسائل الشرعية، أو من الداعين إلى عدم التدخل في السياسة بحجة أن ذلك يتنافى ومقام المجتهد. (١) ً، إلى ما هنالك من دعوات توجت بمقوله أن الحكم قبل ظهور صاحب الزمان باطل (٢) ً، وبأنه ليس علينا نصب الإمام أو اختياره، لأن ذلك مما اختص الله تعالى به.

فكلام الإمام (رض) يكشف عن أنه كان يراقب الأحداث والوقائع بدقة، ويشهد الآثار السلبية لكثير من الدعوات الضالة والمضللة، ويرى مواطن الخلل في إدارة الأزمات في الواقع الإيراني، وفي العالم أيضاً، وهو حينما يسلّط الضوء على المراكز الدينية، وعلى فقهاء السلاطين، وعلى مَن تزَّى بِزيّ القداسة البلهاء (٣)ً، إنما يريد أن ييـَّن لنا أن الخلل ناشيء من كون هذه الدعوات قد شقّت طريقها إلى قلوب الكثيرين من الناس، وعقولهم، ومن عدم تبّلور مشروع إسلامي للحكم في عصر الغيبة، مما أدى إلى تأرجح الشعب الإيراني خاصة، والشعوب الإسلامية عامة، بين نظريات وأفكار وشعارات مختلفة، وافدة من الغرب تارة، ومن الشرق طوراً. ولهذا، فإننا نجد الإمام (رض) يقف دائماً في مقام الثناء والشكر للشعب الإيراني لما يتمتع به من وعي وإرادة وحيوية وصر، مبرّعاً إياها من كل الاختصقات التي شهدتها الساحة الإيرانية على مستوى الدين والسياسة معاً.

فالشعب الإيراني، شعب مفطور على التدني، ومدرك تماماً لطبيعة المهام الإسلامية الملائمة على عاتقه. وقد أثبت في ثورات كثيرة ومتواصلة أنه قادر على تحقيق أهدافه، وليس أدل على ذلك من تجلي هذه المقدرة

(١) رأ: الإمام الحسيني، كتاب الحكومة الإسلامية، م، ص ١٣٨.
(٢) رأ: الخطاب التاريخي للإمام الحسيني، م، تاريخ ٢٢ شباط، ١٩٨٩ م.
(٣) رأ: الإمام الحسيني، الحكومة الإسلامية، م، ص ١٣٩.
في تمامها في انتصار الثورة الإسلامية المباركة بقيادة الإمام الخميني (رض)، رغم كل ما كان يعيشه العالم من توازنات ومحاور استقطاب كادت في زمن انتصار الثورة أن تحبس الهواء لتقاسمه بين هذا القطب وذاك.

فالخليج لم يكن في وعي الشعب أو في إرادته، كما يستفاد من كلام الإمام، وإنما كان ناشتاً من طبيعة النظريات والأفكار والأوضاع السائدة في المراكز العلمية والدينية وغيرها، ولما تصبحت هذه الأوضاع، وتبلور المشروع الإسلامي للحكم، وكشف عن زيف الدعاوى والنظريات التي عززها الاستعمار وأعوانه يوماً ما، ودعاياته، من خلال القيادة الدينية الحكيمة وعلى رأسها الإمام الخميني (رض)، خرج الشعب الإيردني ليقول كلمته الأخيرة، ويفتح الحكومة الإسلامية لوعي تماماً أن التدين والأخلاق الفاضلة والمناقشات العليا التي يتمتع بها، لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا في ظل حكومة عادلة تعوز عنه في جميع شؤون حياته. وهذا ما سبق للإمام الخميني (رض) أن أكدته قبل انتصار الثورة، ويوم كان منفياً إلى العراق، حيث قال: "إن المسلمين في أي وقت لا يصلون الي ما يريدون من العدل، والأمن والاستقرار إلا بعد تحلِّيهم بالإيمان الكامل والأخلاق الفاضلة، في ظل حكومة عادلة تتبع قوانين الإسلام، وتستغني عنها سواء" (1).

ومن هنا، نرى أن تحقيق الأهداف السامية في ظل أنظمة الجور، لن يكون ممكناً ما دام هناك ضياع على مستوى صياغة النظرية، وتأقلم تام مع دعاة الفصل بين الدين والسياسة، كما أنه لن يكون ممكناً فيما لو تمتع الاستعمار بنفوذ قوي داخل إيران والبلاد الإسلامية.

1) م. ع. ص 149.
وإذا كانت هناك مساعي كثيرة، في ظل نظام الشاه في إيران، قد أخفقت في الوصول إلى الهدف المنشود، فقد عزى ذلك الإمام الخميني (رض) إلى تلبس الاستعمار بكل دوائر الدولة، وانتشار جهاز العمالية له في إيران على نحو أدى إلى أن تكون كل جوانب وأوضاع الحياة الإيرانية مراكبة، وضفت إلى ذلك إحكام الطرق على المدارس الدينية والعلمية من داخلها وإثارة النفاق والعداوات بين الجامعيين وعلماء الدين. وهذا الوضع، كما أسلفنا، بدأ العمل به منذ قرون، وتمييز تمييزاً شديداً في عهد رضا خان، وعهد محمد رضا (1) حيث بدأ العمل بقوة لافراد الحياة الدينية للناس على نحو لم يسبق له مثيل، يقول الإمام الخميني (رض): «القد مررت قرون وعملاء الاستعمار وأجهزة التربة التابعة له ودوائر السياسة تنفون السموم في أفكار الناس وأخلاقوهم حتى أفسدوها ...» (2). وهذا ما أدى إلى أن تكون المؤسسة الدينية بما تمتلكه من روحيانية حقيقية، عاجزة عن تحقيق بعض الأهداف الإسلامية، لأن قوة السلطان في الحياة الإيرانية دفعته إلى الإعلان عن جملة من الأهداف والسياسات الفاسدة لتطوير الشعب وصرفه عن مبادئه الإسلامية.

ولاعة في أنه حينما يصل الأمر إلى حد الناقط والتصارم بين الفقيه والسلطان، فإن أهداف احدهما تكون نفسها هي أهداف الآخر،

(1) يقول الإمام الخميني: «إن عزل علماء الدين هو من المخططات الشيطانية التي تنفذها القوى الاستعمارية منذ أمد بعيد، وفي إيران بلغت ذروتها على عهد رضا خان، وتويع في عهد محمد رضا باساليب أخرى، فعلى عهد الأول كانت تنفذ على صور العنف والقمع ونزع الزي، والسجن ... أما في عهد محمد رضا، فقد كانت تنفذ بإثارة العداوات بين الجامعيين وعلماء الدين ... را: الوصية، في كتاب، النداء الأخير، م. س، ص 50. 
(2) را: الإمام الخميني (رض)، كتاب الحكومة الإسلامية، م. س، ص 149.
وكذلك السياسات ستكون هي أيضاً مختلفة بحسب منطقات كل منهما، ففي الوقت الذي يسعى فيه الفقيه إلى تحقيق العدالة في المجتمع، وضمان الحرية للناس، واتباع سياسة الوسط في العلاقات الداخلية، والخارجية، يسعى السلطان إلى خلاف ذلك، لأن حكمه وقوته وسياساته لا تتشد شيئاً من ذلك، هذا فضلاً عن أنه يكره ان تتنور الرعية بنور العلم، وهذا ما أشار إليه الكواكب في حديثه عن الاستبداد والعلم، إذ هو يشبه المستبد بالوصي الخائن، يقول: «ما أشبه المستبد في نسبته إلى رعيته بالوصي الخائن القوي على أبناه أغنياء، يتصرف في أموره وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بنور العلم» (1).

وهذا الكلام يكشف عن طبيعة السلطان الجائر المستبد، ودوره الفعال في مواجهة حركة الإصلاح في المجتمع، وقد كشفت السن التاريخية أيضاً عن طبيعة هذه العلاقة، بين المترفين والمستبدين من جهة، وبين الأنباء والأولياء والصالحين من جهة أخرى، وما دام هناك حياة فإن هذا الصراع سيستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن من عليها.

وغير خفي على أحد ان الإمام الخميني (رض) سجن وعذب ونفي من إيران من قبل الشاه، لا لشيء إلا لأنه يشيد العدالة والحرية والمساواة للشعب الإيراني.

إن ميزة الإمام الخميني (رض): هي أنه لم يكن بينه وبين الشاه نقاط تواصل وافتراء، كما كان الحال بالنسبة لكثير من الفقهاء مع سلاطين

(1) انظر: الكواكب، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد،... دار النفاث، بيروت، 1984، ص 50.
زمانهم، فهو اختيار القطعية المطلقة مع السلطان، لأن هذا الأخير أعلن عن عدائه للشعب، وتواطأ مع الأعداء للهيمنة على إيران وثوراتها، هذا نضالًا عن تعامله مع أعداء الدين وتهاونه بمقدسات المسلمين، وتحديداً الكيان الغاصب لفلسطين. كما أنه تميز عن أسلافه الفقهاء بوصفه الرؤية والأهداف، فلم يقبل بأنصار الحلول، وأبى إلا أن تكون الثورة إسلامية في جميع وسائلها وأهدافها؛ عملاً بقول أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يبتغ الفطره» (1).

فالسؤال عما يمكن تحقيقه من أهداف وتطالبات سامية في ظل الشاه أو أي حاكم مستبد، تبقى الإجابة عليه رهن تجاوب قطاعات الشعب كافة مع الدعوة الإصلاحية للعلماء، ورهن وضوح الأهداف والخيارات الممكنة، سواء في مجال التكتيك أو في مجال الاستراتيجيا، وهذا ما حصل بالفعل مع الإمام الخميني (رض) الذي استطاع، من منطقته وأهدافه الواضحة، أن يجمع كل فئات الشعب بمختلف طوائفه ومذاهبه وتيازاته السياسية في مشروع واحد لإسقاط نظام الشاه، وغالباً ما يكون ذلك ممكناً، كما أسلفنا، فيما لو توفرت للشعب قيادات حكيمة ووعادية وقادرة على كشف مواطن الخلل والضعف في حركة السلطان وأجهزته القمعية. ومن هنا، فإن ما يمكن تحقيقه من أهداف إسلامية يبقى شرطه الأساسي والضروري إلى جانب القيادة الحكيمة والشجاعة، تحديد الشعب حول قضاياه وحقوقه المشرعة باعتبار أن ذلك يشرف به على النيل من الحكومة الجائزة وإلحاق الأذى بها، وهذا ما دعا إليه الإمام الخميني، حينما أكد على ضرورة ترك التعاون مع الشاه والابتعاد عن كل عمل يعود بالنفع على حكومته، على أن يقابل ذلك كله اهتماماً زائداً بالمسائل

(1) الإمام علي، نهج البلاغة، قصار الحكم: 110.
الأخلاقية والثقافية، وبكل القيم الإنسانية لدى قطاعات الشعب باعتبارها الأساس في حركة النهوضات وانتصارها.

إن تحكم الدكتاتورية العنيفة، وانعدام أنواع الحرية، ونمو الاستعمار في جميع جوانب الحياة الإنسانية، وخصوصاً السياسية والاقتصادية والثقافية، إضافة إلى أبواق الدعاية المأجورة الداعية إلى الفصل بين الدين والسياسة، إلى ما هنالك من أساليب ووسائل تعتمدها الحكومات الجائرة لإظهار عدم جدوا حل الدينى. كل ذلك من شأنه أن يمنع من تحقيق الأهداف الإسلامية السامية، فيما لو انعدمت من المجتمع وسائل الردع والمواجهة، وتم القبول بها تحت عنوان مساعدة التقدم ومواكبة العصر!

ولا شك أيضاً في أنه بمقدار ما يتوحد الشعب، ويكون على وعي بأهدافه، بمقدار ما يكون قادراً على تحقيقها، وذلك كله يبقى ناقضاً وغير مجدي فيما لو لم تتوفر القيادة الحكيمة التي يبقى لها الفضل الأكبر في توجيه الشعب وإرشاده، وتحديد مراحل نهوضه، وبالتالي، في الوصول إلى الانتصار الكبير، لأن الثورة، أية ثورة، لتحقيق الهدف، أي هدف، لا يكون كيفما اتفق، بل لا بد من ملاحظة الظروف والمعطيات الواقعية، إضافة إلى معرفة درجة تهيئة الشعب وتجاوزه مع الهدف المعلن. وهذا ما تم فعله في نهضة المجتمع الإيراني التي بلغت ذروتها في انتصار الثورة وإقامة الحكومة الإسلامية.

إن نهضة المجتمع الإيراني في مواجهة الشاه من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية السامية، كانت تقوى وتزداد كلما كان الشاه يقدم على

(1) انظر: الإمام الخميني، كتاب الحكومة، م. س، ص 145.
اتخذ أي قرار بشأن الهوية والثقافة والتاريخ والمصير، ومما يدل على ذلك، هو أنه حاول مرارًا إرجاع إيران إلى عهد جاهلية ما قبل الإسلام وإحياء الشعائر المجوسية، وإماتة الشعائر الإسلامية الأصلية، وقد كان تغيير التاريخ الهجري المحمدي إلى التاريخ المجوسي مثالًا واحدًا لذلك، ولكنه أخفق في التلاعب على أتوار القومية والعصبية والعنصرية، وكانت النتيجة مزيدًا من التمسك بتعاليم الإسلام وقيمه(1).

كما أنه حاول تحريف الثقافة الإسلامية، وتسميتها بتسمية وهمية، هي الثقافة الإيرانية، وكان مصير محاولته الفشل أيضًا، بسبب ما أبداه الشعب الإيراني من الالتزام وتلاحم مع ثقافة الإسلام(2).

لقد تسعى الشعب الإيراني لتحقيق الكثير من الأهداف السامية في ظل نظام الشاه، وكان أقل ذلك، هو أنه حال دون تمكن الشاه من تحقيق أهدافه، وهذا بحد ذاته يشكل إنجازاً مميزاً في ظل أجهزة الشاه القمعية، وعودة الزاهية بالثورة البيضاء والمدنية الكبرى؟

وهكذا، فقد استمر الشعب في نضجه، مقدماً أغلى ما عنده في سبيل الإسلام، الي أن وصلت الثورة إلى قمة التحرك الثوري، الذي نتج عنه في النهاية وعياً شاملاً، وحرصًا شديدًا على ضرورة تحقيق الانقلاب، وتحكيم الإسلام في جميع شؤون الدين والدنيا، وهذا ما أشار إليه الشهيد مطهرى وصفًا حالة النهوض الشعبي العارم، بقوله: «لقد انتشرت الشعارات الإسلامية في كل إيران، ابتداء من العاصمة وحتى أبعد قرية حدودية، ولم يطرح أحد هذه الشعارات الإسلامية على الشعب، وإنما

(1) ر: مطهرى، مرتضى، الحركات الإسلامية في القرن العشرين، م. س، ص 88.
(2) ر: م. ع، ص 89.
استطاع هو بنفسه أن يستوحيها من أعماق ضميره الإسلامي" (١).

وعموماً يمكن القول: إن أي مجتمع يمكنه تحقيق الأهداف وحماية القيم المعنوية في مجتمع ما، في ظل نظام طاغوتي متجرد، لكن ذلك، كما أشارنا سابقاً، يبقى مشروطاً بوعي الشعب ومدى استعداده وقابلته لتقديم نفسه قرباناً على منحرج العشق الإلهي، كما فعل الشعب الإيراني في نهضته، وكما تفعل اليوم المقاومة الإسلامية في لبنان. وما لم تكن هناك وحدة إسلامية، ووعي شامل بقضايا الحياة وجميع الشؤون الدينية والسياسية، وما يقوم عليه العالم من علاقات وتوازنات، فإنه لم يكن ممكناً تحقيق الهدف المنشود، لأن السلطان المستبد سيكون أقوى بكثير من مساعي الشعب، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الحكومات الجائرة، كان ولا يزال من جملة مساعيها، العمل على شرذمة الشعب وتجرزته إلى مذاهب وطموحات وتباطسات متناقصة لا تلتقى على هدف، لكي تحول دون اجتماع عناصر قوته، وحتى لا يكون لديه المقدرة الكافية لتحقيق النهضة المطلوبة، مما يدل على هذه الحقيقة هو تعثر الشعوب الإسلامية، وغريبتها في أوطانها، وشدة التحكم الاستعماري بها ثقافياً وسياسياً واقتصادياً، وعسكرياً أيضاً من خلال القواعد العسكرية المنتشرة في أكثر من مكان في العالم الإسلامي، وتحديدًا الكيان الصهيوتي في فلسطين المستقل أشد الاستغلال في تقطيع أوصال المنطقة العربية، والمؤثر على كثير من توجهاتها السياسية والاقتصادية والثقافية... الخ.

وكيف كان، فإن تحقيق بعض الأهداف في ظل نظام الشاه وإن كان له بعض الآثار الإيجابية على مستوى الحياة الإيرانية الخاصة، ولكنه لم يعط إيران دورها المميز، لكي تكون نقطة جذب لشعوب العالم

(1) م. ع. ص. ٩٢.
المستضعف عامة والإسلامية خاصة، باعتبار أن أنموذج العدالة والحرية والاستقلال، وانخاذ الموقع الوسط في العلاقات، وغير ذلك مما تطلعت الثورة الإسلامية إلى تحقيقه من مبادئ وأهداف سامية، ما كان يعرف إلا بإقامة الحكومة الإسلامية التي ساهمت تبلور مشروعها في حالة الانبعاث نحو العالم وففي تحقيق الذات الإسلامية بكل أبعادها المعنوية والمادية. وقد كان من غير الممكن بل من المستحيل على شعب إيران أن يبلغ إلى هذه المرتبة الرفيعة، والدرجة السامية، وعلي هذا الدور الكبير في التأثير والحضور وفي رسم سياسات الوسط، فيما لو كانت إيران محكومة من قبل الشاه أو غيره، أو في ظل حكومة غير إسلامية. إنها بلغت إلى تلك المرتبة، ووصلت إلى هذا المستوى والحضور والفاعلية بفعل الإسلام والروحانية الحقيقة، ولذلك يعتني على شعب إيران خاصة، وعلى المسلمين عموماً، كما يرى السيد الخميني (رض) بعد تأسيس الجمهورية الإسلامية بذل كامل الوسع لحفظ الأمانة الإلهية التي أعلن رسميًا حكمها في إيران(1)، لأنها امتداد لحركة النبوة والرسالة المقدسة في هذا العالم، ومن خلالها سيتم التعرف على طبيعة القيم والأهداف النبيلة التي يتضمنها الإسلام ويدعو إلى تحقيقها(2).

وأما أن هذه الأهداف والقيم قد تم التعرف عليها من خلال الثورة الإسلامية، رغم كل ما بذله الاستعمار من جهود لحرمان (الثورة) والدولة الإسلامية من ثمار نهضتها، فإنه يبقى على الشعوب الإسلامية أن تتماهى مع هذه الثورة، وتعلقيد بشعبها ليكون لها من الحرية والعدالة، والاستقلال، ما كان للثورة الإيرانية من ذلك. إذ أنه من الطبيعي جداً أن

---

(1) را: الوصية، أو البداية الأخيرة، م. س، ص 276.
(2) م. ع، ص 277.

69
تأخذ الشعوب وكل الحركات الإصلاحية في العالم، وبغض النظر، عما تتميّز إليه من دين، وتأخذ به من سياسات، بكل الخيوط التي تساعدها على تحقيق ذاتها، والتخلص من كل القيود والأغلال التي وضعها الاستعمار لتحول بينها وبين تحقيق أهدافها في الحرية والاستقلال. وللهذا، فإننا نجد الإمام الخميني (رض) ينصح الشعوب الإسلامية وسائر الشعوب المستضعفة، أن تتخذ إيران والجمهورية الإسلامية، والشعب الإيراني المجاهد نموذجاً وقدوة، وأن تضع حداً لممارسات الحكومات الجزيرة، كما نصح الشعوب الإسلامية أيضاً بأن لا تصغي لدعائي أبوين أعداء الإسلام والجمهورية الإسلامية، فهم جميعاً، بحسب رأيه، يسعون لعزل الإسلام وإخراجه من ساحة الصراع خدمة لمصالح القوى الكبرى (١).

(١) م. ع، ص ٤٩.
الفصل الثاني
المجتمع الإيرانى وخيارات الحل الديني

أولاً: معنى الدين في اللغة والإصطلاح
ثانيًا: الدين في الحياة الإيرانية القديمة
ثالثًا: إيران الإسلام وخيارات الحل الديني
أولاً: معنى الدين في اللغة والإصطلاح

قبل أن نتحدث عن الأسباب والظروف والعوامل التي حملت الشعب الإيراني على الفناعة التامة بجدوى الحل الديني لجميع مشاكله الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، الخ، لا بد من التعرف إلى ما تعنيه كلمة دين، سواء من حيث اللغة أو من حيث الإصطلاح، فنقول: إن الدين في اللغة يأتي بمعاني عدة، تارة يأتي بمعنى الحكم والقهر، وأخرى بمعنى الخضوع والطاعة والانقياد(1)، وقد استعمر، كما يقول الراوي الافضائي، للشريعة، ويقال اعتباراً للطاعة والانقياد للشريعة(2)، قال تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام»(3).

وإذا كان الدين يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة، فإن ذلك لا يصرف الدين إلى معنى خاص بعينه، بل يجعله لفظاً يدل على

(1) را: ابن منظور، لسان العرب، ج 2، دار التعرف، القاهرة، (لا ت)، مادة دين، ص 1467.

(2) را: الراوي الافضائي، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ت)، ص 137.

(3) سورة آل عمران، الآية: 19.

73
الشريعة بصفة عامة، ويشهد لهذا المعنى العام في كتاب الله تعالى، قوله تعالى: "ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله")1)، وقوله تعالى: "لكم دينكم ولي دين"(2).

إذاً، الدين هو الشريعة وطريقة الحياة المتبعة، وهذا ما كان معروفاً عن الدين في عصر ما قبل الإسلام(3)، ويرى المفسرون أن الدين في عرف القرآن يطلق على الآداب والقوانين والسنن المتبعة بصورة عامة، باعتبار أن المؤمنين والكافرين، وحتى المنكرين لله تعالى لا يخلون من دين ما، لأن كل إنسان يتبع قوانين خاصة في أعماله، سواء أكنت هذه القوانين مستندة إلى نبى، أو موضوعة من قبل شخص أو جماعة ما، قال تعالى في أعداء الدين: "الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً")4).

وانطلاقاً مما تعني كلمة دين من طاعة وخصوص وانقياد لنفس معينة في الحياة، فإننا لا نجد شعباً أو أمة، أو حضارة إنسانية، إلا وكان لها سننها وثقافةها وأعراضها وقوانينها الخاصة بها. ومما لا شك فيه أن كل ما كانت تنتجه الشعوب والحضارات في تاريخها، كان يعبر عنه بالدين، سواء أكان حقاً أو باطلًا، خيراً أو شراً، وهذا ما أشار إليه القرآن حول ما زعمه فرعون لمله من أنه على دين الحق، قال تعالى: "إني أخف أن
يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (1). فالآية ناظرة إلى ما كان عليه الناس من سنن وأعراف وتقاليد ومناهج حياتية متبعه في زمن فرعون...

وهكذا، فإن الحضارات القديمة، وكل الشعوب البسيطة كانت لها أديانها وعباداتها المختلفة، وهي إنما تميز عن بعضها البعض بما تقدمه كل حضارة إلى سابقتها من رؤى وأفكار حول طبيعة الأرض والسماء، ومن ثم حول طبيعة الإنسان والكون والحياة والمصير، وما إلى ذلك مما يستهوي الإنسان ويجعله أكثر حيرة وارتباكًا إزاء ما يراه من مظاهر الكون والطبيعة والحياة... فالإنسان منذ أن انتقل من طور البداوة إلى طور التحضر، وهو يساهم بشكل فردي أو جماعي في بناء الحضارة، وإقامة أسسها، وهو من خلال بناء حضارته كان يصنع حقه وباطله، ويعتقد بما كان يصنعه في ضوء أهوائه وغرائزه ومخاوفه، ولا شك في أنه ما كان ليفعل ذلك لولا أنه مسكون بالغيب والقدرة الخفية التي تقلب العالم من حوله، وتدفع به إلى أن يتبسم الخلاص من خارج العالم الذي يعيش فيه، وقد قيل: "إنها لا توجد جماعة بشريه، مهما كانت بدائياً، ليس لديها أفكار عن موجودات تعلو على الطبيعة يعتمد الإنسان على عنها" (2).

ومن هنا يمكن القول: إن الدين كان ولا يزال نقطة ارتكاز أساسية في حياة الإنسان، سواء في طور البداوة أو في طور الحضارة، وإن كان هناك ثناء اختلاف بين الطورين، فإنه يعد إلى تفحي ذهنية الإنسان على

(1) سورة غافر، الآية: 26.
(2) را: دراز، محمد عبد الله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان، دار القلم، الكويت، 1980م، ص.32.
معارف جديدة كانت ولا تزال تساهم في تبلور الحقيقة الدينية الثابتة. وإذا سلّمنا بأن الحس الديني جزء أساسي في تكوين الإنسان وانه موجود بدرجات متفاوتة عند الناس جميعاً. فلا بد أن نسلّم بالتالي ان تفسير هذا الحس الديني قد خضع لنفس التطور الذي خضع له الإنسان، فاختالف وفقاً لمراحل كثيرة لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالإطار الثقافي الذي وجد فيه.

(1) را: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، عدد 172، ص 7.
ثانياً: الدور في الحياة الإيرانية القديمة

لم تكن إيران، أو فارس، كما كانت تدعي في يوم من الأيام، بدعاه من الشعوب والحضارات والدول، وانما كانت، كغيرها من البلاد القديمة، مسرحاً للتجاربات الدينية والسياسية، وذلك نظراً لطبيعة موقعها وجغرافيتها، وقد سمح لها ذلك بأن تكون أرض تقابلات عظيمة، فهي من جهة كانت تخضع لتأثيرات بلاد ما بين النهرين واليونان، ومن جهة أخرى كانت تخضع لتأثيرات الهند والصين، وهذا ما حمل المؤرخون على القول بأن إيران تقف كجسر بين الشرق والغرب، وهي حقيقة لم تؤثر في ديناتها وثقافاتها المختلفة فحسب، بل جعلت من إيران أيضاً ملتقي روافد تاريخية عديدة(1).

فإيران دولة متزامنة الأطراف، سادتها في تاريخها، ديانات كثيرة وكان للدين فيها، بما هو منهج وطريقة متبعة في الحياة الإيرانية، وبما هو تقاليد وأعراف وقوانين سائدة، دوراً كبيراً وأساسياً فيها، بمعنى أنه لم تكن هناك حياة سياسية أو اجتماعية، أو ثقافية متفصلة عن أعراف وتقليد

(1) را: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، م. س، ص 115.
وقوانين، وقبل ذلك كله، عن طقوس دينية كان لا بد أن تنتهي أي عمل سياسي أو اجتماعي أو ثقافي يقوم به الفرد، أو المجتمع، أو الدولة في إيران القديمة.

وكما يلاحظ الباحثون في تاريخ إيران، ان العلاقات بين الدين والسياسة كانت بارزة دائماً فيها، على الرغم من أن ظاهرة العلاقات هذه هي عامة في تاريخ الحضارات الإنسانية جميعها، بيد أنها في إيران تكمن صفة الاستمرارية والعمق عبر العصور القديمة والحديثة، فإنها قبل الإسلام، كما يقول المؤرخون: تقدم صورة بارزة عن العلاقة الحميمة بين الدين والسياسة، فالدين كحليف وحامي للسلطة أو على العكس كمعارض وخصم لها، كان دائماً إما دعامة للنظام القائم أو أداة للإيقلاب عليه»(1).

ففي العهد الساساني، كانت الزرادشتية الدين الرسمي للدولة، وهذه الديانة، كما يرى مطهري، كانت تنظيم الحياة بكلمها، وترتكز إليها سياسات المجتمع والدولة كافة، ومنها مثل سائر الديانات والحضارات الأخرى، فقد أعطت الدولة والسلطان امتيازاً إلهياً في الحكم، وأظهرته بمظهر القداسة، ووفقاً لما تميز به الحاكم الساساني من امتيازات، فقد اعتبر نفسه من عنصر سماوي، ولم يكن يرضى من الشعب بأقل من السجود خضوعاً له»(2).

لقد تجاوزت إيران القديمة فرقاً ومذاهب دينية كثيرة، فكانت فيها إضافة إلى الزرادشتية، اليهودية والمسحية، والمزدكية، والبوذانية،

_________________________
(1) انظر: وجه كورثاني، الفقه والسلطان، م. س، ص 110.
(2) انظر: مطهري، مرتبات، إيران والإسلام، م. س، ص 223.
ويرى بعض المؤرخين أن تنازع الأديان والمذاهب فيما بينها قبل دخول الإسلام إلى إيران، دفع بالإنسان الإيراني إلى حدٍّ يأس مما بلغته إيران آنذاك من تعسف ديني وسياسي، وخصوصاً بعد أن نشط فيها صراع المذاهب الدينية، وخاصة بين الزرادشتية والمسيحية على اكتساب الأكثرية الساحقة من الناس(1). ومما يلفت النظر، ويسترعي الانتباه في إيران القديمة، أن المسيحية كانت أكثر انتشاراً من الزرادشتية فيها، وقد تعزز هذا الانتشار أكثر مع تحول الامبراطور قسطنطين من الوثنية إلى المسيحية، مما كان يدفع دائماً بالدولة الساسانية إلى التوحد ضد روما المسيحية لما كانت تشكله من تهديد لها(2). وهنا تجدر الإشارة إلى أن اضطراب الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية في إيران القديمة، وعجز الفرق والمذاهب عن إيجاد الحلول المناسبة لتدهور الأوضاع، ساهم إلى درجة كبيرة في تحول البلاد نحو الإسلام نجاحاً وتحريرًا وشوقاً وبحثاً عن دين يضمن السعادة في الدنيا والآخرة(3). ولعل

(1) يقول مطهری: “إن الدين الزرادشتی كان الدين الرسمي للدولة على عهد الساسان، ومع ذلك فإن الدولة رغم أجهزتها العظيمة لم تستطع أن تحول أكثرية الشعب باتجاه الزرادشتیة، لأن المسيحیة لم تكن وحدها منافسة الزرادشتیة، بل كانت اليهودیة والبوذیة فی تقدم وانتشار أيضاً...” را: الإسلام وإیران، ص، ص 136.

(2) نشير هنا إلى ما ذكره بعض المؤرخین من أنه لو لم يدخل الإسلام إلى إیران، لكان الدين السماح هو السباق إلى الدخول، لتكون بدلاً عن الزرادشتیة. ولا شك أنه مع دخول الإسلام، خسرت الأدیان الأخرى، وخاصة المسيحیة، فرصها المؤثرة للانتشار في إیران. انظر: مطهری، الإسلام وإیران، ص 86.

(3) يشير مطهری أيضاً إلى أن سیرة وتعسف الزرادشتین بالنسبة إلى اتباع سائر الأدیان والمذاهب تسببت في نعث الشعور بالبغض في قلوب الناس، وهذا أدى إلى أن يعدوا استيلاء المسلمين عليهم نجاة وتحرراً. ومن المسلمین به أن أكثر الذين غزروا عقیدتهم من المجوسیة إلى الإسلام، كانوا قد اقتصوا على ذلك بإرادتهم =
من أبرز الحقائق التاريخية والثابتة في تاريخ هذا الشعب، هو أنه كان يبحث دائماً عن دين يجد فيه هويته، ويعزز من خلاله وجوده، ولم تكن تدفعه الأحداث والصراعات الدينية والسياسية بكل ما كانت تفرزه من يأس وحمرام وآسيا اجتماعية وحياتية شاملة، إلى اتخاذ موقف سلبي من الدين، كل دين، لأن الشعب الإيراني، كما يستفاد من تجاربه الدينية والسياسية، كان يتحرك بدافع من فطرته، وحيثما كانت هذه الفطرة تجد نفسها، وتعبر عن مكنونها، كانت تظهر وتتلاقى وتفاصل حتى تشكل وتنكّيّف مع المناخ الذي يسمح لها بالتشبع بالعقائد الصحيحة. وهذا ما لم تجده فطرة الشعب الإيراني في الزرادشتية، ولا في المسيحية، ولا في اليهودية، ووجدته في الإسلام، وإلا كيف تستطيع أن نفسّر اكتساب الإسلام للأكثرية الساحقة من الناس تدريجيًا، «ببحث اقتلع على مدى قرون أو ثلاثة، مذاهب ماني ومزدك وبودا من شرق إيران وأفغانستان، وجعل المسيحية واليهودية والزرادشتية في أقلية ضئيلة»؟

إن الظواهر الدينية والتحولات العميقة في تاريخ الشعوب، لا يمكن أن تفهم بمعزل عن الخلفيات النفسية والروحية والشعورية للشعوب، باعتبار أن هذه الخلفيات هي بمثابة القواعد والأسس لكل تحوّل جذري في المجتمع البشري (2). وإذا كانت إيران القديمة قد تحولت تدريجيًا وجذريًا نحو الإسلام، في وقت كانت فيه آديان أخرى أكثر حضوراً وانتشاراً، فإن ذلك يحتاج تفسيره إلى الكشف عن عاملين أساسيين ساهمتا

(1) را: مطهرية، م، س، ص، 58.
(2) را: مطهرية، مرتشي، الإسلام وإيران، م، س، ص، 136.
(3) لقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، حيث قال تعالى: «إن الله لا يغيّر ما يقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم».
مساهمة فعالة في تبلور الحياة الإيرانية بكل ما كانت تزخر به من أديان وأفكار واعتقادات. وهذان العاملان، هما:

أولاً: العامل الفطري، النفسي، الروحي، الذي كان يعيشه الإنسان الإيراني ويحثه على اكتشاف ذاته.

الثاني: ما قدمه الإسلام من نظام فكري واعتقادي جديد.

فالعامل النفسي الروحي كان دائماً موجوداً، ولكنه كان يصاب بالإخفاق ويتوارى خلف الحجب بسبب ما كانت تشهده الحياة الإيرانية القديمة من مروج وأسرار وطقوس عبادية وتحكيمات استبدادية. ومع مجيء الإسلام استطاع الإنسان الإيراني أن ينطلق في البحث عن ذاته، وان يكتشف عن مكاؤن فطرته، وكانت النتيجة دخوله في الإسلام على نحو مذهل فعلاً. وما كان ليحصل ذلك صدقته أو بطريقة عشوائية، وإنما حصل بفعل تدبر واضح في ما جاء به الإسلام، عقيدة وشريعة ونظام حكم، وبفعل مثابرة الفطرة الإنسانية الثابتة على اكتشاف ذاتها وأبعادها، باعتبار أن الإنسان مطمور على التدين، وليس أمامه إلا تعبيرات الفطرة وتجلياتها في كل ما كان يتفاعل معه من قضايا الدين والسياسة؛ مما يعني أنه لم يكن غريباً أبداً عن الحياة الإيرانية هذا التواصل الحقيقي مع الإسلام، وهذا الربط المحكم عموماً بين الدين والسياسة قديماً وحديثاً، والذي تجلّى بقول الشاعر الإيراني:

الدين والدولة فيما أولى
الحكم بلا دين يسود البلاد

(1) انظر: مظهري، مرتضى، م، س، ص 137.
ثالثاً: إیران الإسلام وکیاک الحد الجیمی

كان لا بد من التعريف بالذین، والتعرض لما كانت عليه إیران من أديان وعبادات وطقوس مجوسية، قبل أن نجيب على تساؤلات عدیدة;
منها: لماذا اختار الشعب الإيرانی المسلم الحل الديني؟
والماذا لم يتوقع أحد حدوث ثورة بهذه السمات والخصوصیات؟
والماذا لم يتسن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟
والمماذا لم يتسن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟

وأمثلة كثیرة طرحها الكثیرون من الدارسین والمحققین لهذه الثورة
منذ انطلاقةها وحتى انتصارها.

ونحن في إجابتنا هذی سرکار على السؤال الأول لما له من علاقة
وثيقة مع ما تم بحثه سابقاً، حيث كنا قد أشرنا الى أن الإنسان مفترض على
البدن (1)، وان أي جماعة لم تخلو في تاريخ البشریة من دین (2)، وان
الإنسان على حد تعبیر الفلاسفة حیوان متدى (3)، وان الدين من الفطرة

(1) انظر: جفیر بارندر، المعتقدات الدينیة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح
ایمام، م، ص، 7.
(2) دراز، محمد عبدالله، الدين، بحوث ممهدة، م، ص، 82.
(3) ذهاب هیغل إلى القول: بأن الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون له دین، وان
على حد تعبير السيد الخميني (رض)\\(^1\) وطبيعة أصيلة على حد تعبير السيد موسى الصدر\\(^2\)، إلى ما هنالك مما يميز حالة الدين الفطرية، عن الدين بما هو منهج وطريقة متبعة في الحياة، باعتبار أن كلمة الدين التي تستخدم في تاريخ الأديان لها معني لا غير.

أحدهما: هذه القوة النفسية التي نسميها الدين.
والآخر: هو تلك الحقيقة الخارجية التي يمكن الرجوع إليها، أو الآثار الخالدة والروايات المتأثرة، ومعناها جملة المبادئ التي تدين بها أمة من الأمم اعتقاداً وعملاً، وهذا المعنى، كما يرى الباحثون، أكثر وأغلب\\(^3\).

فالشعب الإيراني، كما أشرنا سابقاً، شعب متميز عن سائر الشعوب في العالم، وهو كان دائماً يحتكم إلى فطرته، ويميل إلى التعبير عنها، بعيداً عما كانت تحفظ به حياته من روائع وآثار وطقوس دينية، لأن الفطرة السليمة، أو ما يمكن أن نسمي بحالة التدين، لا بد أن لها دوراً.

---

\\(^1\) رأ: الإمام الخميني (قدمه)، الأربعون حديثاً، تعريب م. محمد الغمري، دار التعارف، بيروت، ط ٤٤، ص ١٠٨.
\\(^2\) رأ: الإمام موسى الصدر، أن الدين حسب رأي كبار علماء تاريخ الأديان طبيعة أصيلة في الإنسان، وليس عقدة تنسية حصلت لخواف الإنسان أو عجزه أو ضعفه أو عوامل أخرى، بل تؤكد دراسات تاريخية وآثرة أن الشعور الدينى يعم المجتمعات البشرية على مختلف أنواعها، ويمتد إلى أسبق تجمعات الإنسان...
\\(^3\) رأ: دراز، محمد عبدالله، الدين، بحوث مهيئة لدراسة الأديان، م، ص ١٠٣.
كبراً في التأثير على الرؤى والتطلعات والأهداف، بدليل ان هذا الشعب في تاريخه كان دائماً يعيش حالة القلق والاضطراب، ويبحث عما يوفر له السعادة في حياته. ولا شك في أنه من أسرار هذا الشعب وتميزاته عن شعوب أخرى، اننا لم نشهد ولم يذكر المؤرخون أن حصل تحول جذري في حياته، كما حصل لهذا الشعب مع الإسلام (1)، الذي دخل فيه أفواجاً أفواجاً دون قهر أو إجبار، بل بمعنى إرادته وإختياره. وقد ذكر مطهر فيما أرخ له من تاريخ إيران، ان هذا الشعب قبض السباق في نشر الإسلام في بقاع عديدة من العالم عن طريق التجارة والتواصل، يقول مطهر: «إن انتشار الإسلام في الدول الشرقية والجنوبية الشرقية كشبه القارة الهندية وباكستان وكشمير وبنغلادش وتركيا وضاجكستان، والأفغان والصين، وماليزيا، وأندونيسيا، كل ذلك كان من آثار النشاط الإسلامي للإيرانيين الذين حملوا الإسلام معهم عن طريق التجارة إلى أقصى نقاط آسيا وعرّفوا الأمم بالإسلام إرشاداً وتيهغاً» (2).

لقد سادت إيران القديمة، كما رأينا سابقاً، أديان ومذاهب وعبادات كثيرة من مسجية ويهودية ونصرانية... الخ، ولم يذكر لنا المؤرخون أن الشعب الإيراني تحول جذرياً باتجاه أي دين كان، وكذلك ذكرنا ان الصراعات كانت على أشدها بين النصرانية والزرادشتية بهدف تحويل الشعب، بحيث تكون الأكثرية الساحقة منه تابعة لهذه الديانة، أو تلك.

وهذه نقطة بارزة في التاريخ الإيراني القديم.

(1) يقول المستشرق المعروف «دورزي»: «إن أعظم الأمم التي غيرت دينها القدم في الإسلام، هي الأمم الإيرانية...». (2) مطهر، مرتضى، الإسلام وإيران، م. س، ص 133. (2) م. ع، ص 87.
مع مجیء الإسلام، حصل هذا التغيير الجذري باتجاه الإسلام، مما يؤكد أن الفطرة، فطرة الشعب الإيراني كان لها الدور الأساسي في هذا التحول (1)، وإلا كيف يمكن للمؤرخ أو للمباحث أياً كان، وإلى أي دين انتهى، أن يفسر هذا التحول الجذري باتجاه الإسلام؟

فالسؤال لماذا اختار الشعب الإيراني الحل الدين، سؤال قد يبدو غريباً للهويلة الأولى، ولكن تناجلي غرابته حينما ينتمي للمرء التعرف على حقيقة ومكانة الدين في الحياة الإيرانية. إذ أن الشعب الإيراني باعتراض المؤرخين أنفسهم، له امتياز عن سائر الشعوب والحضارات، لا من جهة أنه شعب متدين وحسب، وإنما من جهة أنه لا يرى تصادماً بين الدين والسياسة، أو بين الدين والأخلاق. وهذا الشعب ما كان ينطلق بالإسلام نحو العالم، كما أشارنا سابقاً، في التبليغ والإرشاد، لولا تيقنه التام، بأن الإسلام ينطوي على كل ما يحتاج إليه البشر في حياتهم الخاصة والعامة.

إن تشع فطرة الشعب الإيراني بتعاليم الإسلام، جعل الأكبرية الساحقة من الإيرانيين تذوب في هذا الدين. وإذا كان الشعب الإيراني قد انطوى قلبه على هذا الحب والعشق والمعرفة للاسلام، في ظل سيادة الحياة الصوفية والشعرية وجمال الطرائق الحلولية التي كانت معاشة آنذاك، فإن هذا

(1) ان المطلوب في البحث التاريخي الاجتماعي والديني، هو أن تصفح تاريخ إيران المقارن لظاهرة الإسلام، وكان نحق في الأنظمة الفكرية والاعتقادية والاجتماعية والسياسية والعاطفية والأخلاقية في ذلك العهد، فقيض ذلك بما جاء به الإسلام وقدمه للعالم المسلم ومنها إيران، كي نصل بالدراسة إلى النتيجة الصحيحة. وقد رأينا، ان السبب في التحول لم يكن الغزوات أو حروب العرب المسلمين، وإنما كان العامل الأصيل في ذلك نفس الجماهير الكادحة المحرومة والمتعطشة إلى العدالة الحقيقيه، وكما يقول تقي زاده: «إن الإسلام جاء بأصول عادلة وقوانين منظمة، را: مطهری، م. ع، ص133».
الشعب ازداد ارتباطاً بالإسلام مع دخول التشريع إلى الحياة الإيرانية، الذي كان من جملة آثاره إغنية الشعب الإيراني بالفقه والكلام والفلسفة والعرفان، واللى جانب ذلك كله، بل وفي سياقه، إغنية الحياة السياسية للإيرانيين، الذين كانوا أشاروا الحياة الصوفية والشعرية. وكل ذلك بحسب ما نرى، تعود أسبابها إلى تشع الفطرة بالإسلام، والحرص الشديد لدى الشعب على ترجمتها والصدور عنها في التعامل مع جميع القضايا والأحداث، وكما يقول الإمام الخميني (قده): «عودوا إلى كتاب الفطرة وتصفحوا ذاتكم لتروا أن قلم قدرة الفطرة الإلهية قد كتب فيه: إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» (1). إنها فطرة التوجه نحو المحبوب المطلق ... (2).

لذا، فإن اختيار الشعب الإيراني الحل الديني لمواصلة نهضته، لتحقيق تطلعاته، هو اختيار لذاته وجودوه، وتاريخه الإسلامي الحافل بالعطاءات النورانية.

فبالإسلام في الحياة الإيرانية، ليس مجرد أثر أو رواية متأثرة، وإنما هو رسالة إلهية تسبعت بها الفطرة، فأنتجت وعياً شاملاً، وبلورت مشروعًا متكاملاً، وحققت وجوذاً متفانياً في طريق العشق نحو المحبوب المطلق والدائم الأزلي.

كما أنها ليست المرة الأولى التي يختار الشعب الإيراني فيها الحل الديني لتحقيق أهدافه وتطلعاته، فهناك خيار الشعب في ثورة التنبك عام 1895، وثورة الدستور عام 1905 م إضافة إلى انتفاضات شعبية كثيرة.

---
(1) سورة الأعوام، الآية: 79.
(2) را: الإمام الخميني (قده): «الأربعون حديثاً، م. س، ص 214.
بقيادة رجال الدين، ومنها انتفاضة اصفهان، وتبريز، ومشهد، وكل هذه الثورات، كما نعلم، كانت تنشد الحل الديني، ولا ترى له بدلاً على الرغم مما كان يسود إيران في كل مرحلة من نظريات وأيديولوجيات وضعية، هادفة إلى صرف الشعب عن مبادئه وأهدافه وقيمته الإسلامية. ومما لا شك فيه أن الإسلام والتشتّع كان ولا يزال وسيبقى رحم وبريب كل الثورات على مدى التاريخ، لأن كربلاء، كما ترى الشعوب الإسلامية عامة والشعب الإيراني خاصة، هي أساس وجوهر كل تبلور وتشكيل ثوري في حاضر البشرية ومستقبلها. وبمقدار ما يتم التواصل معها، وأخذ بتعليمها، بمقدار ما تنجلل الشعوب وتتجه في التاريخ والزمان والوجود.

إن نشدن الحل الديني في حياة الشعب المسلم في إيران حقيقة ثابتة ودائمة، وهمنا حاول أعداء الإسلام والمسلمين أن يقللون من أهميتها، أو التلاعب في شأنها، لأن حالة التدين، والفطرة التي فطر الإنسان عليها، هي في حالة توهج وتنور دائم، ولم تتمكن كل النظريات والأيديولوجيات الواقعة من الغرب أو الشرق إلى إيران من أن تنفذ عليها، وقد بذل السلاطين الكثير من المستعمر، وقدموا الكثير من المغنيات، واستوعبا ما لا ينسى به من الطاقات، الإيرانية في سبيل الحد من حالة التدين، أو على الأقل لتشويهها، ولكن مساعهم كلها ذهبت هباءً منثوراً عند أول نداء وجهته القيادة الروحانية. وهذا إن كان يدل على شيء، فإنه يدل على مدى ما لهذه الحالة الدينية من تجزر في الحياة الإيرانية، الخاصة والعامة.

والحق يقال: أنه ليست إيران وحدها هي التي نشدت الحل الديني واقتنعت بجدواه، وإنما كل شعوب الأرض اليوم، في ظل ما تعاني منه من أزمات ساسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، تتجه نحو هذا الخيار، وقد
ل хозя هانتغتون هذه المسألة مؤكداً على أن زمن العلمنة بدأ
بنحس ن صالح الدين(1) منذ مطلع هذا القرن، وإن العالم بعد تفكك
الاتحاد السوفيتي، وانهيار جدار برلين، عاد ليتشكل وفق النظرية الدينية
سواء أكانت إسلامية أو مسيحية، أو يهودية، أو هندوسية، ودليل
هانتغتون على ما يذهب إليه، هو أن أغلب الديمقراطيات الجديدة منذ
1970 كانت بلدان كاثوليكية. مما يدل بطريقة ما، على أن الدين ليس
عائقاً، بل محرك للدوقطة(2). ومن جملة ما لحظه أيضاً في تبيان هذه
الحقيقة، ما أشار إليه جورج فايلد(3) من أن الغلبة علمنة العالم، هي
إحدى الحقائق الاجتماعية المهيمنة على الحياة في أواخر القرن العشرين.
فإحياء الدين، كما يسميه جيل كيل يوفر أساساً للهوية والالتزام الذي
بتجاوز حدود القومية ويوحد الحضارات(4).

والي مثل هذا ذهب الأمير تشارلز في محاضرة له تحت عنوان
الإسلام والغرب، حيث أكد على ضرورة الحفاظ على الطابع القدسي
والروحي للعالم من حولنا، يقول: لقد أصبحت الحضارة الغربية مولعة
بالكرب واستغلاله على نحو متزايد بما يتنافى مع مسؤولياتنا البيئة...

(1) صموئيل هانتغتون، صدام الحضارات، مطبعة مدبولي، القاهرة، 1995,
صح 11. من جملة الأسباب التي ذكرها هانتغتون لوقوع الصدام بين الحضارات،
السبب التالي: إن عملية التحديث الاقتصادي والتغير الاجتماعي في مختلف
أنحاء العالم تزعج الناس من هوياتهم المحلية طويلة الأمد، كما أنها تضعف الدولة
القومية كمصدر للهوية. وفي معظم أرجاء العالم تقدم الدين ليس هذه الفجوة
وغالباً في شكل حركات توصف بالأصولية، وتوجد مثل هذه الحركات في
الصريحة الغربية واليهودية والبوذية، والهندوسية والإسلام.
(2) انظر: هانتغتون، نقلًا عن: فوكياما، فرنسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير،
 مركز الاتحاد القومي، بيروت، 1993، ص 207.
(3) رأ: هانتغتون، صموئيل، م، ص 13.
فما أدعو إليه هو فهم أوسع وأعمق ومتأنًّ أكثر لعالمنا. إنني أدعو إلى إيجاد بُعد غيبي بالإضافة إلى البعد المادي لحياتنا بغية استعادة التوازن الذي تخلَّينا عنه، والذي اعتقد أن غيابه سيثبت أنه مدمر في الأمد الطويل، وهذا الشعور الهام بالوحدة والوصاية على الطابع القديسي والروحي للعالم من حولنا شيء مهم يمكن أن نتعلمه من جديد من الإسلام١).

انها عودة حقيقية للعالم إلى الخيار الديني، لا بدفاع اليأس من الأوضاع السائدة في المجتمع البشري، وإنما بدفاع القناعة بأن الروحانية المرتكزة إلى إيمان حقيقي، هي وحدها التي تضمن خلاص البشرية، وهذا الأمر تأكده أكثر فأكثر مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وما أحدثه من تحولات في بنى المجتمع المختلفة، ومن صدى في عالم الأديان، وخاصة بعد رسالة الإمام الخميني إلى غورباتشوف وتبيهيره إياه بتحول الشيوعية إلى متاحف التاريخ. فالثورة الإسلامية لم تخطب المسلمين وحسب، بل توجهت إلى المسيحية أيضًا٢، ودعتهم إلى النهوض الديني في مواجهة الحضارة المادية المهيمنة على غرب أوروبا وشرقها، وقد لاقت دعوة الثورة الإسلامية رواجًا واسعاً في أوروبا والعالم المسيحي، فانطلق بروحية الخير والتسامح، وإن بطيء شديد، باتجاه قضاياه العادلة، وهذا ما أكده جبل كبيل المتخصص في شؤون الحركات

1) را: الأمير تشارلز، الإسلام والغرب، ولي العهد البريطاني، ط1، 1993، طبع في لندن، مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ص20.
2) يقول الإمام الخميني(رض) في خطاب للشعب المسيحي: «أيها الشعب المسيحي، وبا أتباع عيسى روح الله، انضموا ودافعوا عن شرف عيسى المسيح والشعب المسيحي، ولا تسمحوا لأحداء العاليم السماوي ومن خلفي الأحكام الإلهية أن يعذروا أمة المسيح وفساد عيسى لشعب العالم المستضعف بشكل سبيه". انظر: الاستقامة والثبات، م، ص323.
الدينية، فيما ذهب إليه من أنه بعد سقوط جدار برلين، عاد العنصر الديني بديلاً من الشيوعية، وكانت بولونيا نموذجاً لإعادة تنصير أوروبا... ومن هنا، فإن إعادة التنصير هيكلت مفاهيمها حول رفض النظام الاجتماعي الظالم بالنسبة إلى الفقراء، والتعطيل نحو نظام جديد، أي إلى مجتمع يجسد العدالة، وهذه الانطلاقة المسيحية في العالم، بعدما شهدته من تحولات، جاءت نتيجة لتفقيمة مجتمع لتقديم العلوم واستلاب الإنسان والمسؤول هو هيئة العقل على الإنسان، ولا بد من محاكمة كما كان يفعل اللاهوت دائماً.

نحن لسن في قلب مما يثار عن إمبراطورية الشر الجديدة(1)، التي يزعم البعض أنها متمثلة بالحركات الإسلامية، لأنه من الطبيعي جداً أن يعاد النظر فيما تمته هيبته في ظل التوازنات السابقة، والأحلاف الاستراتيجية. هذا إضافة إلى ما حدثه العقلانية من تضادات في البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وخاصة في البلاد العربية والإسلامية. وإذا كانت المسيحية قد ألغت ذاتها بعلمة أهدافها قبل أن تتمكن الليبرالية من الظهور، كما يرى فوكوياما(2)، فإنها اليوم تعود بكل قوتها لمحاكمة من الظهور، فإنها اليوم تعود بكل قوتها لمحاكمة

(1) انظر: جيل كيبي، مستقبل الأصولية، المركز العربي للمعلومات، عدد 3، 1993، ص 24.
(2) الغرب المادي ينظر إلى الحركات الإسلامية تحديداً على أنها إمبراطورية الشر الجديدة بعد سقوط جدار برلين. وهذه ليست حقيقة، بمقدار ما هي محاولة لخلق توازن جديد يندفع الغرب وراءه لمحاربة العالم الإسلامي. فالغرب يخلق عدم الاعتراف عندنا لتربييتنا ضد الإسلام والمسلمين، وكما قلنا: أن هذا المعنى لا يثير فيه القلق؛ طالما أن العالم الإسلامي يدرك تماماً ما يمكن أن تسبب إعادة التشكيك من أثره، وخير دليل على هذا هو إيران وما تعلبه من حصار إقتصادي ومن تأثير دولي.
(3) انظر: فوكوياما، فونسيس، نهاية التاريخ... م. س، ص 207.
العلمنة والعولمة معاً تبعاً لمفهمة جديدة عن الدين يقوم بها العالم المسيحي، تبعاً لأشكال وصيغ مختلفة، أولئك التصدي للتأويلات التقليدية التي قام بها أنصار لاهوت التحرر (1).

إذن، هناك إمبراطورية دينية جديدة تطل برأسها من كل زاوية في العالم، فلا الشنوية اليابانية ساهية عن الطغيان الأمريكي، ولا البوذية أو الهندوسية، أو الكنفوشية، فضلاً عن المسيحية، واليهودية، والإسلام، ساهين عن استلاب الإنسان، فكل هذه الديانات نجدها غير متسامحة مع العلمنة، ولا مع العولمة المادية، خلافاً لما زعمه فوكوياما من أن بعض هذه الديانات قد تطابقت تماماً مع العديد من النشاطات العلمانية (2)؛ فهو لم يفرق بين التطابق والانحناء أمام ضغوط السياسة والقهر وحق القوة في الممارسات، واكتفي بالتأكيد على الطابع التسامحي للدين دون أن يظهر مساويا الاستلاب التي تفرزها الديمقراطية في العالم (3). وقول

(1) رأ: جيل كيبيل، مستقبل الأصولية، م. س، ص 34.
(2) يزعم فوكوياما أن الدين بذاته لا يبنى مجتمعات حرة، كما أنه كان المسؤول، أي الدين، عن حركة العلمنة في الغرب، إشارة منه إلى المذهب البروتستاني، ويزعم أيضاً أن الإسلام الأصولي يمكنه أن يتطابق مع الديمقراطية، ولكن يستحيل تقريباً أن يلاءمه مع الليبرالية والاعتراف بالحقوق الشمولية، لأن تأسيس الديمقراطية الليبرالية هو فعل سياسي جد عقلاني. ومن هنا نفهم، لماذا لا يراد توظيف الدين فيما يعمل على إنشائه من نظام عالمي جديد، يقوم على محركات ثلاثة وهي: التقنية والاقتصاد، والنفس الإمبراطوري فقط، دون أن يكون للدين أي أثر في حركة العولمة الجديدة. رأ: فوكوياما، م. ع، ص 208.
(3) إذا كانت المسيحية قد مهدت الطريق أمام الثورة الفرنسية من خلال وضعها لمبدأ المساواة بين كل الناس على أساس مقدراتهم على القيام بخيار أخلاقي كما يرى هيغل، وأظهرت تسامحها مع العلمنة، فإن ذلك لا يبرر تحول الديمقراطية إلى دين يلغي القدرة تماماً على القيام بخيار أخلاقي، وما أفرزته الديمقراطية في حياة الشعوب لا يدلل على أن الدين هو محرك الدقراطية. وإذا كان هناك نية بلدان =
فوكوياما: "إن أغلب الديمقراطية الحالية تعيش من خلال موروث ديني سليل المسيحية"(1)، هو دليل ساطع على قدرة المسيحية على إعادة بلورة ذاتها لتكون جديداً، لا موروثاً، وخاصة بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، وتعترض المشروع الرأسمالي في تحقيق الحد الأدنى من الأمن والاستقرار، إضافة إلى ازدياد معدلات البطالة، وانتشار الأمراض، وغير ذلك مما تسبب به الحاضرة المادية والرأسمالية من كوارث في الأفراح والآمال.

إن نشدن الحل الدیني، والاقتناع بجواه، كما رأينا، ليس حكراً على الشعب الإيراني، وإنما هو مطلب كل البشر، بمختلف أديانهم وطوائفهم، وقد تكون إيران الإسلامية، هي البائعة على نشدن هذا الحل عند كل الشعوب الإسلامية والمستضعفة، وهي كذلك فعلاً، إذ أنها أثبتت للعالم، ان الدين والتحقق به على مستوى المجتمع والدولة، لا يحول دون أن يكون هناك تطور وتقدم وازدهار (2)، بل يسمح بإقامة حالة من التوازن في حياة البشر، بحيث تبقى هناك قيم معنوية تعزز مسيرة الإنسان نحو التكامل، فلا يكون هناك طغيان للمادة على الروح، ولا للروح على مسيحية قد شهدت ظهور ديمقراطيات في وسطها، فذلك لا يعني أن المسيحية قد سلمت بإلغاء نفسها نهائياً، وأعطت مقاليد أعرضا للديمocracyية. وعودة المسيحية للتداخل، وممارسة النقد خير ما يدل على عدم استمرار التسامح لا مع العلمنة، ولا مع العولمة الاستعمارية.

1. انظر: فوكوياما، فرانتسيس، نهاية التاريخ، م. س، ص 207.
2. يقول الخميني (رض): "فإذا كان المقصود من ظهور التمدن والتطور الابتكارات والإبداع والصناعات المتطورة التي ساهمت في تقدم المدنية الإنسانية، فلا الإسلام ولا أي دين توحيد، رفض أو سيرفض ذلك ... أما إذا كان المراد من التمدن والتطور هو إطلاق الحرية لمساركة كافة الإنسان ... فهذا ما ترفضه كافة الأديان السماوية ... رغم أن المتغريين والمتشرقيين ولاتيادهم الأعمى يروجون لذلك؟ انظر: الوصية الخالدة، النداء الأخير، م. س، ص 17.
المادة بحيث يتحول الإنسان نحو الصوفية المهلكة.

لذا، فإن ما يزعمه الغرب اليوم من نظام عالمي جديد، ومن عولمة صاعدة لتفكيك ما عقدته الأديان في مجال السياسة والاجتماع والثقافة، هو زعم ليس له أي إطار منهجي أو معرفي، هذا فضلاً عن كونه معارض بما تفرزه الحياة الغربية ونظمها من مساواة في المجالات كافة. وقد يكون الخلل والتأزم في المنظومة الغربية وما تدعوه من مزاعم فارغة، ناشئاً من كون الغرب يفتقر إلى محرك الدين في عولمة ذاته، وهذا ما يدفعه دائماً إلى إبراز عامل القوة في علاقته، وأنشطته لتعويض ما يفلوته في مجال تأكيد الذات وتعويم النموذج الحضاري المادي في العالم.

لقد نتج عن خيار الحل الدیني في إیران، وما أفرزه في العالم من انبعاثات روحية ودينية، ان وضع إیران والجمهورية الإسلامية في إطار عولمة خاصة بها ترتكز إلى الدين ولا تعادي الأنموذج الغربي فيما انتهى إليه من إيجابيات. ومثلما نجحت الولايات المتحدة في توظيف محركات التقنية، والاقتصاد، والنفس الإمبراطوري لأجل إيراد عولمتها ونظمها.

(1) إن الإطار الوحيد الذي يضع فوكويا والإسلام فيه، ويرفضه على أساسه، دعماً منه للديمقراطية الليبرالية، هو أن الإسلام يعّد الحياة البشرية، ويتداخل في السياسة، وينظر نظرة شمولية، وهو بعبارة دين كلياني شمولي (Totalitaire).

(2) يرى علي مزروعي أن محركات العالم خر عبر الزمن أربعة، وهي: الدين، التقنية، الاقتصاد، الإمبراطوريات، وقد نجحت الولايات المتحدة في توظيف المحركات الثلاثة الأخيرة، ولا يبدو أنها في وارد توظيف الأول عبر نشر دين خاص، مع العلم انها ساعدت في سيادة فكرة العلمنة، ويعتبر مزروعي أن الأموركة، على العموم، مضرة للقيم الدينية سواء وعث الأموركة ذلك أم لا. را: جريدة الحياة، 24 نيسان 1999.
الجديد، فإن إيران نجحت في توظيف محرك الدين بكل ما ينطوي عليه من أهداف وقيم وأخلاقيات قوانين، لبرز عولمتها الدينية والأقليات دون أن تعادي أي محرك آخر من شأنه أن يساعد على بلوغ مشروعاً وتحقيق ذاتها في عالم تزداد فيه التعقيدات الاجتماعية والاقتصادية ... الخ.

وهكذا، فإن إيران وما اختاره من حلول دينية وأقليات بعد مخاطيات عميقة وأحداث دامية، يجعلها في موقع النذ للعولمة المادية، التي تقطع نفسها من أسوأ مراحل التاريخ البشري لتبرز روح العدوان ضد الإنسان والبشرية.

ليس المطلوب وفقاً للعولمة الإسلامية توحيد الاقتصاد العالمي عن طريق إزالة الاقتصادات والظواهر والحدود المحلية، أو عولمة الروح الاستهلاكية المبتذلة، أو الفحشاء والمنكر والبغي، وإنما المطلوب، بحسب العولمة الإسلامية التي تقودها إيران، هو تعليم تعاليم الأحياء والأوصياء وجميع الصالحين، بحيث يكون هناك عدل وحرية ومساواة وقوانين حاكمة، وقد سبق للإسلام أن حقق هذه العولمة منذ اللحظة الأولى لظهوره على هذه الأرض، يقول الإمام الخميني (رض) في تلك الأيام التي كان الظلام مخافة فيها على الغرب وكان سكانه في أدنى مستويات الانحطاط والتوحش، وكانت أمريكا ما تزال أرض الهند الحمر، وهي نصف متوحشة، وكانت دولتنا إيران والروم تحكمهما حكومتيان مستبدتان ويتنشر فيهما التمييز وانعدام المساواة وسلطة الأقوياء ... في تلك الأيام أنزل الله تعالى على نبيه جملة من القوانين التي يذهل الإنسان ويحارب لعظمتها ... 

(1) را: الإمام الخميني (قده)، كتاب الحكومة الإسلامية، م. س، ص 13. وقا: مع ولي العهد البريطاني، الأمير تشارلز، الذي اعترف بأن الإسلام جزء من ماضي =
فإيران كانت ولا تزال تتوافق مع عالمية الإسلام في القيم والمبادئ والأهداف، وهي أخذت على عاتقها منذ البداية صياغة الأفكار الملائمة للعصر، وتأليف النظرية السياسية، التي تؤمن الحرية والاستقلال والتفاعل مع الآخر وال الحوار معه، هذا فضلاً عن جمعت، مما هو ثابت ومثمر فيهما حتى لا يكون الدين مدلاً واحد، وحتى لا يفهم بأنه يعتقد كل مظاهر الحياة الإنسانية العامة والخاصة، بما في ذلك في مجال السياسة، كما ادعى فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ (1). وكذلك الأمر بالنسبة للغرب، وعلى رأس الولايات المتحدة الأمريكية، فهو عاد ليتواصل ويشكل وفق سوابقه المتلمدة، ونفسيته المتوجهة، كما كان في الماضي، وأدنى تأمل في أفكار الغرب ومسلكياته اتجاه الشعوب وثوراتها، وفيما هو عليه في ذات نفسه من تدهور قيمي وأخلاقي، يظهر بوضوح تام أن هذا الغرب لا يصح لأن يكون مركزاً أو هدفاً لأنظار الشعوب، أو معقداً لأمالها، لأن مقتضاً عولمته والاقتصاد بها ان تكون الأطراف كلها صوره عنه، وهذا ما لا يصح له إلا الإسلام، كونه يسبق لهذا الدين أن عالم البشرية طرق التفاهم والتعاون، وقد تم لها رؤيته العالمية، وهذا هو مفاهيم ما ذكره ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز في كلمته عن الإسلام والغرب، حيث رأى أن الإسلام علّمنا طريقة التعاون والتفاهم مع العالم، وهذا ما فقدته المسيحية مما أدى إلى ضعفها، وفي جوهري يكمن الحفاظ على تلك النظرة المتكاملة للكون. فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، وبين

(1) انظر: فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ، م. س، ص 207.
الدين والعلم، وبين العقل والمادة كما انه يحافظ على نظرة غиبية وموحدة 
للبشر وللعالم من حولهم (1).

إن الإسلام وحده هو الذي يصلح لأن يكون مركزاً للعالم، 
ومصدراً لها، وحركة الإسلام في التطبيق التاريخي أثبت ذلك، رغم كل 
السلبيات السلطانية التي أحاطت به في القرون الوسطى الإسلامية. لقد 
أعلنت السنة الشريفة ان الأرض كلها مسجد، وهكذا مبدأ، كما يقول 
العلواني، يزيل القدسية أو الشعور بالتفوق والعلو في أي مكان من 
كوكبنا، تجاه أي مكان آخر (2). فهو دين المساواة والحرية والعدل، والقانون، ومقتضى عولمته ان تتحول البشرية الى مظاهر قيمية، وتعبيرات 
روحية، تتوازن في ظلها الحياة الإنسانية، وتبنى على أسسها ثقافات 
الشعوب وحضاراتها.

(1) را: انظر: الأمير تشارلز، الإسلام والغرب، م. س، ص 819
(2) را: جابر العلواني، المركزة والعالم، ملخص محاضرة، جريدة الحياة، تاريخ 
24 نيسان 1999.
الفصل الثالث
الإمام الخميني وثقافة عاشوراء

تمهيد:
أولاً: دور الإمام الخميني في إحياء ثقافة عاشوراء
ثانياً: الإمام الخميني والموافق من الثقافة الضاداء
ثالثاً: دور الأئمة وامتداد عاشوراء
تمهيداً للبحث

من العلامات المضيئة والدامية في تاريخ الإسلام والمسلمين ثورة كربلاء، التي هي خط ومنهج وأسلوب لا بدّ للأمة أن تعتمده في سبيل تحرير نفسها من أنظمة الجور، ولا أحد يدري ماذا كان سيحصل لو لم تقع هذه المعركة غير المتكافئة بين الإمام الحسن عليه السلام والتنظيم الأموي، بل ندري أن عدم وقوعها كان سيمنع الأمة من أن تكون حيّة في تاريخها وحركتها من أجل الحياة الحرّة، بعد أن ذاقت طعم الحياة والحرية مع رسول الله ﷺ. إنها محطة في تاريخ هذه الأمة، ومدرسة لا بد من التعلم فيها، وعدم الوقوف عندها يستدعي حتماً التخلف عن مسيرة الحياة والحيرة والاضطراب، كما أنه يُفضّي إلى مزيد من التشرذم والضعف والانحلال، ويوقع الأمة فيما لا يحمد عقباه، ويمنعها من تحديد مصلحتها الدنيا فضلاً عنما تبحث عنه من خلوت وتحقق في الدار الآخرة.
فالأمام الحسن عليه السلام لم يقم بهذه الثورة من أجل الخلوت فقط وتحقيق نفسه على مستوى الشهادة ليكون سيد شباب أهل الجنة، بل هدف من وراء ثورته إيقاظ الأمة من سباتها وتعريفها بنفسها، وهدايتها إلى السبل التي تنهي بها إلى الفوز بالدارين في الدنيا والآخرة. فالخيار كان خياراً للأمة
وإن لم تكن واعية له وعارفة به، وهذا ما دفع بها في النهاية إلى تبني الثورة والقيام بها.

إن الإمام الحسين أحيا الأمة في لحظة مرتها، وعلى أنها أن تعمل من أجل إحياء نفسها في جميع لحظات حياتها من خلال تلك اللحظة التي ندمت على الغفلة فيها، لحظة ترك الحسين عليها وحيداً مع قلة قليلة في مواجهة البطل، بحيث تتذكر دائماً أن ما قاتل الإمام في من أجله، وتعني الإسلام، هو في الزمان، وعلى الأمة أن تكون دائماً جاهزة وواعية مستعدة للقتال من أجله، باعتباره مشروعًا إلهيًا يحمل الحياة للناس أجمعين. ومما لا شك فيه أن الإمام الخميني (قده) ما كان ليقدر على التحرك والانتصار لولا أنه ت ignor من قدرة الأمة ووعيها وحضور الحسين عليه وسلم وفاعلية ثورته في حياتها، لقد عرف كيف يستمر استعداد الشعب المسلم لإقامة حكم إسلامي واقعي في عصر الغيبة، بعد أن أخفق من سبقه في هذا الأمر تحت شعارات شتى كان ولا يزال من جملتها عدم السعي لإقامة حكم إسلامي في عصر الغيبة من منطلق أن إقامة هذا الحكم تجعل من ظهور الإمام الحجة عليه أمراً عبثياً لا قيمة له.

لقد برهن الإمام الخميني (قده) من خلال ثورته أن شعباً يعيش الإسلام في حياته الخاصة والعامة، ويعي حقيقة الرسالة وتاريخ الأنباء والرسل، لا بد أن يرشح عن وعيه ومعرفته الحكم الإسلامي الذي يقضي بأن يكون الحكم لكتاب الله وليس للقوانين الوضعية التي تفضي في النهاية إلى أن يكون القانون في خدمة أصحاب السلطة والمال. وبرهن الإمام أيضاً أن الانتقاد بالإمام الحسين عليه وسلم واستلهام معاني ثورته وتعاليم مدرسته، هو وحده الذي يجعل الأمة متواصلة مع تاريخها وتاريخ الأنباء والرسل. وقد رأى الإمام الخميني (قده) أن الذين يدعون الأمة إلى عدم
الخروج على أنظمة الجور، وعدم السعي لإقامة حكم الإسلام في الأرض، هم بذلك يعملون على إخراج الأمة من تاريخها، ويتبعونها من استلهام معاني الثورة على نحو يمكن الأمة من ترجمتها والاستفادة منها في مواجهة الباطل وأهلها.

إن الإمام الخميني (قده) خاطب الأمة بلغة عاشوراء، ودفع بها إلى تحقيق نفسها من خلال هذه الثورة على جميع المستويات، وهذا ما أعطى الأمة حيويتها وجميع أبعادها. والحق يقول: إن ما حصلت عليه إيران هو بمثابة جائزة على وعيها وشعورها وحقيقة التزامها بالثورة الحسينية ومبادئها وتعليمها الحية، وكما يقول الإمام الخميني (قده): إن عاشوراء هي علة كل ما يبحث عنه الإنسان من حرية وكرامة وقادة واستقلال، كالإمام الحسين عليه السلام الذي هو علة بقاء الإسلام حياً ومتحركاً وفاعلًا في حياة الشعوب إلى يومنا هذا. ومهما بلغ الوعي الشعبي وتبلور، فإن أية ثورة لا يمكن أن تنجح إذا لم يكن للأمة علة تحركها، ومبادئ تسلطهمها وتدفع بها إلى التحرك باتجاه الهدف، وهذا ما يمتاز به المذهب الإمامي عن غيره من المذاهب. إذ أنه يعتقد بوجود العلة الحية والفاعلة التي هي سبب كل انتصار وتحرير، وما يدل على هذه الحقيقة أن الشعب المسلم في إيران لما استمر في شرط الثورة، وتعميق فهمه للثورة الحسينية، والأخذ منها دليلاً ونبراساً، استطاع أن يتحرك وينتصر على الطاغوت، القناعة منه بأن ثورة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن ثورة في الخيال، أو نزوة يدفع إليها حب السلطة والجاه فقط، بل كانت سببًا لالتحرر والحياة، ودليلًا في وسط الظلمات.

فما قام به الإمام الخميني (قده) وانتهى إليه، أثبت أن مبادئ الثورة الحسينية ليست خارج الزمان، ولم تكن طفرة أنتجتها ظروف خاصة، بل...
هي شيء في الزمان تحيا وتفعال مع الروحانية المتمثلة للرسالة والأمنة عليها في عصر الغيبة، وبناء على ذلك، فإن الدعوة إلى عدم ترجمة هذه الثورة حيث يمكن ذلك، هي في الحقيقة دعوة إلى تجاهل مبادئها وتعليمها وإفساح المجال أمام آية البابا كي يفسدوا في الأرض، وما حققه الإمام الخميني في إيران والعالم هو أمل المعصوم وجميع أئمة الله ورسله، خلافاً لما يذهب إليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية بعدم جواز الخروج على الجائر وإقامة الحكومة الإسلامية. وسنرى في هذا البحث كيف خرج الإمام (فده) على المواقف الفقهية القديمة الداعية إلى ذلك، والمبررة لحكم الطاغوت أثناء غيبة الإمام الحجة عليه السلام.
لا يعود الإمام الحسين في إحياء ثقافة عاشوراء

مما ينبغي الإشارة إليه هو أن الإمام الحسين عليه السلام لم تكن ثورته لحظة زمنية منقطعة عن اللحظات التي سبقتها أو التي ستحمدها، بل هي امتداد لثورات الأنبياء عليهم السلام، وفضلًا ما ان حركة الأنبياء كانت من أجل نشر الدعوة وهداية العباد، فكذلك حركة الإمام الحسين عليه السلام الذي لم يتوان عن حماية العقيدة والشريعة من سوء التأويل والتحريف على الرغم من تخلّف الأمة عنه، وهذا ما أعطى الثورة أبعادها في الزمان والمكان، وجعل منها محطة ومدرسة تعلم الناس معنى أن يكون عباداً لله تعالى وأحراراً في دنياه، إنها ثورة لها أثرها وقيمتها ووقعها على مطلق الزمن، وكونها كذلك لا يمكن اعتبارها ماضية لا قيمة له، وإنما هي متحقة في مطلق الزمان لما تمثله في جوهرها، ولما تعني في حركتها لجهة أن الذين قاموا بها لم يكونوا أثناً عاديين حتى تكون ثورة عادية، وقد علمتنا الأئمة عليه السلام أن عاشوراء حدث لا يمكن استحضاره لذكرى فقط بمعزل عن آثارها العملية وأبعادها الوجودية والروحية، بدليل أن فعل المعصوم يرسم خطوطاً عامة وأحياناً تفصيلية توجه حركة الإنسان وتمكنه من أن

103
كون مرشدًا لنفسه في خضم الأحداث المظلمة التي لا قدرة له على الولوج إليها أو التحكم بها. فالإمام الحسين عليه السلام هو أحد الأئمة الذين شاروا ضد الظلم، ومن أجل كرامته الإنسان وحريته، وهنا العديد ملزم بقراءة التاريخ بكل ما فيه من تجارب وحداث حتى يتمكن من إيجاد الشروط الملائمة والمناسبة لحركته؛ وإلا كان كل يخط خط عشواء لا يدرى ما يعمل أمام أي حدث سواء أكان صغيراً أم كبيراً.

إن الإنسان الذي يدفع به الحدث إلى أن يكون منفعالًا به، وامامه، لا يمكن الوصول إلى الهدف الذي ينشده. ومن هنا كان لا بد من قراءة الواقع بدقة ورصد المستقبل والإحاطة بالأحداث من كل جوانبه للإمام بطبيعته ومعرفة الوسائل التي يمكن اللجوء إليها لاحتوائه والاستمرار به، بمعنى آخر نقول: إن الإمام الحسيني (قده) عرف كيف يقرأ الواقع ويرصد المستقبل، قراءة مكنته من إحياء ثقافة عاشوراء، ومن إحداث تحولات تاريخية زمن البعض أنها مستحيلة، ولا قدرة لأحد على إحداث هذا التحول لما كان يحيط بالمنطقة من أعداء يسعون إلى السيطرة على إيران والمنطقة العربية والإسلامية بكملاها. لقد تجاوز البعض حقيقة الشعب المسلم في إيران، وحاول ابتداع ثقافة جديدة بدلاً لثقافة عاشوراء تمكن الأعداء من الوصول إلى أهدافهم، ويكفي أن نقول ثقافة بدلاً لها من خلال الفصل بين الأئمة والتميز بينهم في أقوالهم وأفعالهم وأهدافهم، حيث رأوا أن شهرة الحسين عليه السلام غير ممكنة في عصر الغيبة الكبرى معللين ذلك بلجوء الأئمة من ولد الحسين عليه السلام إلى القبول بالأمر الواقع ومهددة الأنظمة الجائرة والتعاون معهم وغير ذلك مما لا يمكن فهمه إلا على ضوء الظروف التي استدعته وفرضته، غافلين، وأعني الذين يذهبون
الي الفصل بين الأئمة، عن أن ثورة الإمام الحسين ﷺ ودوره، هي في الحقيقة ثورة كل الأئمة، لأنهم لم يروا ضرورة لهذه الثورة بنفس الوسيلة، بل عمدو إلى الثورة بوسائل أخرى تؤدي إلى النتائج المرجوة، باعتبار ان الهدف كان ولا يزال هو حفظ الإسلام وحمائه من سوء التحريف، وليس صحيحاً ما ذهب اليه البعض من أن الأئمة من بعد الإمام الحسين ﷺ اختاروا الزهد والعبادة على أن يكونوا حكاماً سياسين، لأنه ليس من شروط السياسة أن يكونوا حكاماً، لما يذهب اليه علماء اللغة في تعريف السياسة من أنها تعني الرعاية والتدبير والهداية، وقد يكون ذلك في داخل السلطة وقد يكون خارجها. والأئمة ﷺ وإن لم يتمكنوا من سياسة العباد من خلال الحكم والسلطة، فقد كانوا من خارج الحكم يسوسون الناس، ويعرضون شؤونهم، ويدبرون أمورهم على أفضل ما يمكن أن تكون عليه السياسة، حتى أن الحكماء الجائرين لم يكونوا مستغنين عن تنسل الأئمة في أمور عجزوا عن حلها أو النظر فيها؛ كما سنذكر في أبحاث لاحقة.

فالإمام إمام سواء أكان حاكماً أم لم يكن، وما يقال بالنسبة للمعصوم يمكن أن يقال للفقيه في عصر الغيبة، كونه امتداً له وينسحب عليه ما ينسحب على الإمام لجهة حفظ الرسالة وحماية الوحدة وتطبيق الشريعة خلافاً لما يذهب اليه البعض من الفقهاء والباحثين من أن الثورة على الظلم والجور غير جائزة ومخالفة للشريعة، وهذا البعض يقسم التاريخ إلى ثلاثة مراحل، وهي: الأولى، مرحلة الرسول ﷺ والثانية: مرحلة الأئمة ﷺ، والثالثة: مرحلة عصر الغيبة التي يظن البعض أنها مرحلة غياب الشريعة وتعطيل الأحكام، والاعتراف بحاكامية الجور، وهؤلاء لا يجيرون الثورة، لأن الأئمة من بعد الإمام الحسين ﷺ لم
يثوروا وهادئوا السلاطين وتعاوونا معهم، ومنهم، كما يقول البعض، من رضي بولاية عهد المأمون كالإمام الرضا، ﷺ. وبعد الأئمة، يرى هذا البعض أن كل شيء غير ممكن بانتظار الإمام الحجة ﷺ الذي إليه أوكلت مهمة حماية الشرعية وإقامة الدولة الإسلامية. ولا شك في أن هذه الآراء كانت ولا تزال تهدف إلى إطفاء شعلة الثورة ضد الظلم وإيذاء روح الجهاد عند كافة المسلمين، ففي مقابل ذلك خرج الإمام الخميني (قده) معلناً ضرورة الاستفادة من تعاليم عاشوراء، من أجل صياغة الحياة الإسلامية في ضوئها، مؤكداً على أهمية السعي لإقامة الحكومة الإسلامية والدولة الإسلامية، بحيث تكون هذه الأخيرة نتيجة حتمية لإحياء ثقافة عاشوراء في المجتمع، وكانت النتيجة قديماً وحديثاً ان انقسم الفقهاء بين مؤيد لإقامة الحكومة الإسلامية وبين رافض لها، وبين داع إلى إقامة حكومة ديمقراطية دستورية تستلهم بعض دساتير الغرب، وقد بين الإمام الخميني (قده) أن المواقف الداعية إلى الديمقراطية والداعية إلى عدم السعي لإقامة الحكومة الإسلامية كلها لا يمكن أن تكون من الإسلام في شيء، فضلاً عن أن تكون من عاشوراء في شيء، لأنها تدعو إلى تعطيل أحكام الله في عصر الغيبة، وهذا يمنع أن تكون عاشوراء امتداً للنبوة ويجعلها حكراً على مرحلة زمنية معينة.

لقد رأى الإمام الخميني، أن الموقف الفقهي الداعي إلى عدم الثورة، وبالتالي إلى عدم إقامة الحكومة الإسلامية، هو موقف يصطدم مع ثورة عاشوراء وثقافتها، لأن هذه الثورة كان من جملة أهدافها إقامة حكم الله في الأرض، وقد خرج الإمام الخميني (قده) على هذا الموقف معتبراً إياه من المواقف المعطلة لأحكام الله، داعياً إلى استلهام مبادئ الثورة
وثقافتها وجميع عناوينها في مواجهة الظلم، بحيث يكون للثورة امتداداً على طول الزمان والمكان. وبذلك فقط يصح قولنا أن الإمام علی هو قدوة حسنة لنا نقتدي به ونستفيء بعلمه في تحرير أنفسنا وتحقيق وجودنا من خلال تحكيم أمر الله تعالى، الذي يقضي بأن يكون الناس أحراراً في دنياهم، ومستعملين فيما يرضى الله ورسوله، لا أن يكونوا عصاة لأمره، وعباداً للشيطان الذي يدعهم ويمنعهم ولا يعدم الشيطان إلا غرباً.

هذا ما استفاده الإمام الخميني (فده) من ثورة الإمام الحسين عليه السلام ان تكون الثورة الحسينية ممتدة في الزمان، وملحوظة في حركة الإنسان، كما في سكونه، باعتبار أن القائد الذي ينهل من معيش هذه الثورة لا يسمع إلا ملاحظة الواقع وصنعه على ضوء الرسالة الإسلامية، التي تحتوي أحياناً أن يكون الشعب ثائراً ومقدماً الغالي والرخيص في سبيل الله... ومن أجل تحقيق الذهبات على مستوى السياسة والوجود. لقد أثرت عشوراء في الإمام الخميني (فده) إلى درجة مكتنة من صياح موقف واحد يجمع الأمة كلها حول مبادئ الثورة الحسينية، وهذا الموقف الرافض للمساومة والمهادنة، هو الذي أخرج إيران مما كانت فيه، من التبعية والعبودية، وأدخلها في عالم آخر هو عالم الوسطية والشهادة...

لم يرد الإمام الخميني للثورة الحسينية ومبادئها أن تكون مبئاً للفخر والبكاء، دون أن يكون لهذا الفخر والبكاء أية أبعاد عملية، بل أراد لها أن تنعكس في الواقع، وإن تترجم فيه، بحيث يتمكن الشعب من سياسة نفسه على ضوء تعاليمها، ولا يضير أن تكون الأمّة باكية على المصاب الجلل فيما لو كان بإمكانها أن تعبّر وتحتدي بما يخرجها من الظلمات إلى النور، يقول الإمام الخميني: ليس الموضوع موضوع
البكاء بل هو موضوع سياسي فقد أراد الأمة بهذه الرؤية أن يعبروا الأمم وينهضوها نهضة رجل واحد حتى لا يكونوا محلاً للفقدانات.

إن الإمام الخميني (قده) علم الأمة بكاء الفعل وليس بكاء الإنفعال، وأي فعل هذا أعظم من فعل الثورة والتغيير في النفس والواقع. إنه بكاء من نوع آخر يمكن الأمة من استحضار عاشوراء نظرياً وعملياً ويدفع بها إلى الاستقلال. ومن يتأمل في نصوص الإمام الخميني يدرك مدى اهتمام الإمام بمجالس العزاء والمحافظة عليها لما فيها من قوة ولما تثيره من حماس مقدس إلى التغيير السياسي والاجتماعي، يقول الإمام (قده): «حافظوا على هذه المجالس وادفعوا الناس في هذا الطريق إلى الاهتمام بالمسائل السياسية والاجتماعية، وأعملوا لأجل أن لا يتخلى الناس عنها لأنها تسبطن حياة الأمة، هذا فضلاً عن كونها أوجدت في جميع أرجاء الوطن اتجاهًا سياسيًا وهذا هو الحق».

كما أن استحضار عاشوراء وحياة الأمة بها، هو في الحقيقة استحضار لثورات الرسل والأنبياء وكل حركات التحرر في التاريخ الإنساني، وقد تمكن الشعب المسلم في إيران من التواصل مع هذا التاريخ بعد أن انقطع عنه وتصادم معه ردحاً من الزمن بسبب تحكم الجائرين، بمعنى آخر نقول: إن الأنباء هم في الحقيقة أصحاب ثورة عظمى وثقافة وتاريخ واجههم الفراعنة بأفكار ومقولات ما أنزل الله بها من سلطان، والصراع كان ولا يزال مستمراً وقائماً بين ثقافتين

---

(1) الاستقامة والثبات في شخصية الإمام الخميني، ت، كاظم ياسين، مركز الإمام الخميني الثقافي، 156. 
(2) م. ع، ص 303.
متضادتين، ثقافة الإمام والإسلام، وثقافة الكفر والإلحاح، وما من شك أن الحق والإيمان انتصر في مراحل تاريخية عدة حينما كان الناس يقومون بقيادة الرجل الواحد، وهذا ما حصل في إيران حينما توحد الشعب وثار بوجه الطاغوت، وواصلت مع ثورة الأنباء. وهذا تكون الأمة في إيران قد حققت بركبها وحققت نفسها من خلال تشكل جديد جعل منها امتداداً لحركة الربوة والإمام. وقد حرض الإمام الخميني الأمة على أن تكون بمستوى المسؤولية لما يستدعى هذا الامتداد من قيام بأمر الله تعالى. وانطلاقاً مما نقدم، نعلم أن الإمام الخميني (قده) من خلال قيادته الحكيمة وضع إيران في مكانها الطبيعي، وأرشدها إلى ما ينبغي القيام به للاستمرار في الثورة، والحفاظ على ما تم إنجازه في خط الامتداد هذا. وإن أي تعثر لا بد أن يعود بإيران القهقري، بمعنى أن الثورة يجب أن تستمر سواء أكانت حمراء أم بيضاء، بحيث يبقى الإنسان في حركة دائمة، وفي انتظار إيجابي سلمة. في حركة الأنباء والأئمة، فلا بد من دفع الأمور إلى نهاياتها بروية تامة في عصر الغيبة لئلاً يتأثر هذا الخط الحسيني الممتدة في الزمان، دون فرق بين زمان الحضور وزمان الغياب، لأن الأمة تبقى مسؤولة عن حركتها ومطالبة بتحقيق نفسها بالأمر الإلهي على جميع المستويات، وبخاصة على المستوى السياسي، الذي لا دليل على أن يترك هذا الأمر لحين ظهور صاحب الأمر علية، فهناك من نصبه الله تعالى ليكون دليلاً ومرشدًا وهادياً وأمينًا على هذا الامتداد في عصر الغيبة وعندى بهم الفقهاء العدول الذين يمثلون امتداد الإمام المعصومة، وهم من عناهم الإمام بقوله بالروحانية، التي كانت سبباً ولا تزال في تحرر إيران وعودتها إلى حركتها الإسلامية الفاعلة. وهنا نسأل: مَنَّ هذا الذي يملك
حق إخراج الأمة في عصر الغيبة من عهدة الفقهاء ليرمي بها في ظلمات جديدة سبق للإسلام أن أخرجها منها؟

فمقوله دعا الزمان يفسد في عصر الغيبة، ولكن الزمان من رقاب العباد والبلاد، مقوله تتضمن ثقافة مضادة لثقافة عاشوراء، وهذه المقوله ينسبها الاسعري والغزالي إلى الروافض قديماً، وفي العصر الحديث هناك من يدعو إلى هذه الثقافة، وقد اشتكي منهم الإمام الخميني قبل الثورة وبعدها، وهذا ما سنتعرّف إليه في أبحاث لاحقة.
ثانياً: الإمام أفيده والموقف من الثقافة المتأخرة

يقول الأشعرى في مقالات الإسلاميين: "اختلاف الناس في السيف على أربعة أقوام:

1) فقالت المعتزلة والزيدية والخوارج وكثير من المرجئة، ذلك واجب إذا أمكنئنا أن نزل بالسيف أهل البغي ونقيم الحق، واعتُلّوا بقول الله عزّ وجلّ (لا ينال عهدى الظلمين)."

2) وقالت الروافض: "ببطل السيف، ولو قتلت حتى يظهر الإمام عنيف، فيأمر بذلك".

3) وقال أبو بكر الأصم، ومن قال بقوله: "السيف إذا اجتمع على أئمة عادل يخرجون معه فزيسل أهل البغي".

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث، السيف باطل ولو قتلت الرجال، وسبيت الذريعة، وإن الإمام قد يكون عادلاً، ويكون غير عادل، وليس لنا إزالته، وإن كان فاسقاً، وأنكرنا الخروج على السلطان ولم يروه،

(1) سورة البقرة، الآية: 124.
وأختلفوا في إنكار المنكر والأمر بالمعروف بغير السيف. فقال قائلون تغيير بقلبك، فإن أمكنك فلستك، فإن أمكنك فيدك، وأما السيف فلا يجوز، وقال قائلون: يجوز تغيير ذلك باللسان والقلب، فأما باليد فلا).  

ويروي الغزالي عن الروافض انهم قالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يخرج الامام المعصوم، وهو الإمام الحق عندهم، وهم أخس رتبة من أن يتكلموا، بل جوابهم أن يقال لهم، إذا جاؤوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دمائهم وأمواتهم، إن نصرتم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيديكم من ظلمكم نهي عن المنكر، وطلبكم لحقكم من جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق، لأن الإمام الحق لم يخرج بعد).  

إذن، هناك مواقف فقهية قديمة وجديدة عند أهل السنة والشيعة تدعو إلى عدم الخروج على الحاكم الجائر حتى ولو قتل الرجال وسببت الذرية. وقد انعكست هذه المواقف لفترة طويلة على الساحة الإسلامية حرباً وقتلاً وظلمًا وانهاءًا على مستوى السياسة والوجود معاً. إذ لم يعد هناك ثمة قيمة للحاكم العادل إطلاقاً، واقتصر الأمر في الحكم على أهل الغلبة والشوكة، وكذلك أدت إلى الحكم المطلق والاستبداد بالرغبة تحت شعار الإسلام والعدلية وتطبيق حكم الله، وإن السultan هو ظل الله في الأرض. كما ينقل لنا التاريخ عن المنصور يوم وقفت خطيبة في عرفة ليقول: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوقيفه وتسليده وتأييده، وأنا حارس على ماله. وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله.

(1) مقالات الإسلاميين، دار الحديثة، بيروت، ج2، ص125.
(2) إحياء علوم الدين، دار الهادي، ج2، ص455.
عليه قللاً، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وإذا شاء أن يقفلي قفلي عليه" (1).

إن التاريخ الإسلامي مليء بذكر هذه الدعوات، وأغلب الناس صدقوا هذه المزاعم، ولم يمنعوا عن إعطاء الطاعة لأهل الجزيرة، والبعض منهم عدهم من أولي الأمر الراجح طاعتهم، وتحت عنوان هذه الطاعة والحاكمية ضربت المدن الإسلامية بالمنجنيق (2)، هذا فضلاً عن النهب والاغتصاب، حيث أن الحاكم اعتبر الخروج عليه خروجاً على إمام الزمان، حتى أن الإمام الحسن عليه السلام نفسه قد أتهم بالخروج على إمام الزمان! وعلى الرغم من ما ذكره في ذلك فقد تولى الدعاوات من فقهاء السلطة، الذين حققوا الناس على الطاعة والركن إلى الحاكم بأمر الله وعدم الخروج عليه لما في ذلك من معصية وجاجالة. وكان من جملة العناوين التي رفعت لا مثيل لها شعار "حاكم غشوم خير من فتنة تدوم" إلى غير ذلك من الشعارات التي تحذر من الخروج وتدعو إلى الطاعة، يقول إمام عبد الفتاح إمام: "أما في العالم الإسلامي فقد انقسم العلماء فيما بينهم إلى فريقين: الأول يرى وجه الصبر والنصيحة والتقويم للخلق فيه للخليفة الظالم، والذي صار مستحقاً للعزلة، والثاني يرى وجه الخروج عليه بالقوة واستبدال غيره به (3) إضافة إلى انتقاد كل مذهب على نفسه حيث برز موقفان قليبيان عند الشيعة الإمامية، أحدهما يذهب أصحابه إلى عدم مشروعية إقامة حكم إسلامي في عصر الغيبة الكبرى لما يقتضيه ذلك من ممارسة الولاية.

(1) ابن كثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1989، ج 3، ص 516.
(2) يزيد بن معاوية ضرب المدينة بالمنجنيق، ولم يتورع عن قتل النساء وفعل الفواحش، ومن استحلل من الحسين عليه السلام لا يتورع عن أي فعل.
(3) إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، عالم المعرفة، ص 88.
العامة، والثاني: يذهب أصحابه إلى مشروعية إقامة حكم إسلامي في عصر الغيبة، ومستند هذا الموقف الفقيه عند معظم الذاهبين إليه هو ما اصطلح عليه ب(ولاية الفقيه)\(^1\). والموقف الأول هو الذي أشار إليه الأشعري والغزالي، تحت عنوان الرواضذ الذين عرف عنهم هذا في أوساط مخالفيهم قديماً، وهذا الموقف لا يزال له أثره اليوم في العالم الإسلامي، وعند الشيعة أيضاً، وبعضهم عارض الإمام الخميني (قده) تحت هذا العنوان!!

غاية القول إن كل فريق اعتمد على تأويل مجموعة من الأحاديث الشريفة من قبيل "أنه سيكون هناك هنات وهنات فمن أراد أغرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوا عنه بالسيف كائناً من كان"، وذلك إشارة إلى مكانة الإمام الحسين عليه السلام، وهناك أحاديث كثيرة وضعها بنو أمية واستغلوها في محاورات العترة الطاهرة، وسوف نكتفي هنا بمثالين أحدهما قديم والآخر حديث، فقد ذهب ابن كثير مثلًا إلى أن يزيد بن معاوية كان إماماً فاسقاً، لكنه يقول مع ذلك إن الإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أخص قول العلماء، بل لا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة للفتنة أو وقوع الهرج وصرف الندماء الحرام ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن، وغير ذلك مما كلّ واحدة فيها من الفساد اضعاف نفسه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا\(^2\).

ويؤكد ابن كثير أن يزيد عندما جاءه أثناء الحرة فرح بذلك فرحًا شديدًا\(^3\)، فإنه كان يرى أنه الإمام وقد خرجوا عن طاعته فله قتالهم حتى

---

\(^1\) رأ: الشيخ شمس الدين، في الاجتماع السياسي الإسلامي، بيروت، ص 265.

\(^2\) رأ: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 260.

\(^3\) كانت وقعة الحرة حينما نمرد أهل المدينة على يزيد عام 61 هـ بسبب إسرافه في
يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، ثم عقب بذكر الحديث النبوي
السابق. كما ذهب علماء معارضون إلى أن الإمام الحسن عليه السلام أخطأ
خطاً عظيماً في خروجه، الذي جرّ على الأمة وبالفقراء والاختلاف 1،
واعتبروا أن الإمام قد يكون عادلاً وقد يكون غير عادل وليس لنا إزالته حتى
وإن كان فاسقاً، وهكذا أنكروا الخروج على السلطان 2. وذهب فريق
آخر إلى أن السمع والطاعة للسلطة الزمنية له حدود واعتمدوا أيضاً على
مجموعة أحاديث منها: لا طاعة في مقصرة، وإنما الطاعة في المعروف،
ولا طاعة لمن لم يطبع الله، وأفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان
جائز، وأفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه
عن المنكر فقاله على ذلك، فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة
وجعفر 3. ومن المعارضين أيضاً من ذهب إلى القول بالخروج على
الجائز لما يعنيه السكوت من فساد وظلم حيث أنه ثبت في الأبحاث
الاجتماعية، إن السكوت على ظلم الظلم قد تكون مفاسدة أضعاف
مفاسد الخروج خلافاً لما ذهب إليه ابن كثير من أن كل واحدة مما يسببها
الخروج فيها من الفساد أضعاف فسق الحاكم، يقول العلامة الطباخي في
الميزان: في الدرس المنثور في قوله تعالى، فإن نولوا فإنهما عليه ما حمل
وعليكم ما حملتم، يقول: أخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن
علقمة بن هلال الحضرمي عن سلمة بن زيد الجهني، قال: قلت: يا

المعاصي، وهي مثلًا يضرب عند الحكام. انظر البداية والنهاية، م. ص 22.
(1) رأى محمد يوسف موسى، نظام الحكم في الإسلام، نقلًا عن الشيخ محمد
الخضري في تاريخ الأمة الإسلامية ج 1، ص 154.
(2) م. ع، ص. ن.
(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 2، م. ص 256.
رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذون بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتله ون بغضهم؟ فقال النبي ﷺ:

«عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم».

أقول، و الكلام للسيد الطباطبي: «لا ينبغي أن يرتاب في ان الإسلام بما فيه من روح إحياء الحق وإمانة الباطل يأتي عن إجازة ولاية الظلم المتظاهرين بالظلم وإباحة السكوت وتحمل الضيم والإضطهاد قبالت الطغاة والفجرة لمن يجد إلى إصلاح الأمر سبيلاً، وقد اتضح بالأبحاث الاجتماعية اليوم أن استبداد الولاة برأيهم واتباعهم لأهوائهم في تحكماتهم أعظم خطراً وأحبث أثراً من إثارة الفتنة وإقامة الحروب في سبيل إنجائحهم إلى الحق والعدل»(1).

لا شك في أن الإمام الخميني (قده) اتخذ موقفاً من هذا الانقسام على ضوء ثقافة عاشوراء، وكان من حملة ما أثرت به عاشوراء على فكر الإمام الخميني، هو إنها مكتبة من الخروج على الموقف الفقهى والسياسي الداعي إلى الاعتراف بشرعية الحاكم الجائر، كما دفعت به ثقافة عاشوراء إلى أن يكون مع الأمة قبالت الطغاة والفجرة، وكان إيمانه بالأمة والقراة والمظالمين بمقدار كفره بالطواغيت الذين جعلوا لأنفسهم سلطانا سموه لأنفسهم. فالحاكم إنما يكون ظل الله في الأرض إذا كان مع الله، وهو لا يكون كذلك كيفما اتفق، بل لا بد من شروط ومواصفات تؤهله لقيادة المجتمع، وهذه غير متوفرة إلا بالذين يمثلون الروحانية الحقة، التي من خلالها استطاع الشعب في إيران أن يقيح حكم الله في الأرض، إذ إنها علمته، وأغني الروحانية الحقة، أن ثقافة عاشوراء هي

(1) السيد الطباطبي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج15، مؤسسة الأعمالي، بيروت، ص، 158.
التي تبلور الوعي الشعبي وتؤهل القائد لأن يكون ظل الله تعالى. إن الإمام الخميني انطلق في الثورة وهو يعلم تماماً مقدار تأثير هذه المواقف الفقهية في الواقع. ولم يعجب لها لقناعته بأن مجالس العزاء وثقافة البقاء السياسي استطاعت أن تخلق اتجاهاً سياسياً قادراً على إجراء تحوّل ما في التاريخ. فالساحة الإسلامية اليوم، كما كانت في الماضي، تعشّي أوجه الانقسام، وقد تحول فأصبح بين فقه يقول بشرعية الحاكم الجائر ويدعوه بما تيسر من الفتاوى ضد جمهور الأمة التي لا ترى شرعيته، وبين فقه يدل يقول بجواز الخروج عليه لما يعنى وجوده على رأس السلطة من فساد وظلم وتعطيل لأحكام الله تعالى وتحرير لها، وإذا لم يكن الخروج ممكناً فلا يجوز العمل معه والتعامل إلا على الحق، وأما معونته على الظلم والعدوان فمحظور لا يجوز مع الاختيار، كما يقول الشيخ المفيد(1).

لقد عانى ما عانى الإمام الخميني من وضع المؤسسة الدينية في العالم الإسلامي السائرة في اتجاه تعزيز هذا الانقسام، في مقابل وضح النص الداعي إلى الوحدة، وقد حذر الإمام من انعكاسات هذا الوضع السلبية داعياً إلى التصدي من خلال عناصرها إلى كل الفتاوى التي تبيح التعامل مع أعداء الله والإنسانية، وتعني المؤسسة الدينية بعض المجامع العلمية التي لا هم لها إلا شرعة الواقع بدل تغييره، ودعم السلطان بدل تقويمه فيما لو اعوج، ومن جملة ما أفرزته بعض المجامع العلمية في العالم الإسلامي أنها كرست الظلم والحاكمية المطلقة لهذا المستبد أو ذاك من خلال الدعم اللامتناهي للحاكم الجائر، وقد تجاوز الأمر ذلك إلى حد تحريف بعض النصوص لكي تتلاءم مع مصلحة هذا الحاكم أو ذاك من

(1) أنظر: الشيخ المفيد (ت 1346هـ) أوائل المقالات، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ص 141.
قبل الدعوة إلى مصالحة إسرائيل واعتبارها عضواً حياً وفاعلاً في المنطقة العربية الإسلامية، ومواجح شعور المسلم ويهدد ثقافته الإسلامية الأصلية، أن تصدر فتاوى عن أناس معتقلين للإعتراف بإسرائيل مع ما يستدعي ذلك من تهديد لفلسطين والقدس، وهذا ما أشار إليه الإمام في خطابه التاريخي تحت عنوان خطر المقدسيين المزيفين في الحوزات العلمية، يقول الإمام: "إن خطر المتحجرين والمقدسيين المزيفين الحمقي في الحوزات العلمية ليس قليلاً هؤلاء مروجو الإسلام الأمريكي وأعداء رسول الله... عندما ينس الإستكبار في القضاء على مطلق الروحانية والحوزات اختار العمل على محورين: أحدهما التخويف والترهيب والثاني الخذعة والإختراق، وعندما وجد في هذا القرن أن حرية الترهيب لا تجدي اعتماد تقوية محور الاختراق وكانت أولى تحركاته إملاء شعار فصل الدين عن السياسة، ولأسف فإن هذه الحرية تركت آثارها إلى حدود في الحوزات وأوساط الروحانيين، بحيث وصل الأمر إلى أن التدخل في السياسة دون شأن الفقيه، وأصبح الدخول في المعركة السياسية يؤدي إلى تهمة الارتباط بالأجانب، ولا شك أن جراحات الروحانيين المجاهدين من الاختراق كانت أشد، لا تتصوروا أن تهمة الارتباط وحرية عدم التدين قد وجههما الآخرون فقط إلى الروحانيين، كلاً، فإن ضربات الروحانيين المغفلين أو الوعي المرتبط أشد فتكاً من ضربات الآخرين في بداية الثورة. كنت إذا أردت أن تقول الشاه خائن تسمع فوراً من يقول لك الشاه شيعي"(1).

فالحاكم الجائر ليس خائناً بنظر الإمام الخميني لأنه شيعي أو سني، وإنما هو خائن لأنه يحرف الكلم عن مواضعه، ويفتني خلاف شرع الله.

(1) الإمام الخميني، الخطاب التاريخي، شباط، 1989.
فقد يكون الحاكم سنياً وعادلاً، وقد يكون شيعياً وظالماً، والعكس، فالشاه كان شيعياً، ولكنه كان ظالماً يتخذ إلهه هواه ويعبث بمصالح الناس ويفسد في الأرض، وعلى الرغم من إنساده كان يجد من يدعمه ويبرر له أعماله ويتفتي له بجوائز ذلك، فبين ثقافة الثورة وثقافة القعود كان البعض يختار الشاه بكل ما كان يمثله هذا الطاغوت من عناوين ثقافية مضادة لثقافة عاشوراء، وكانت النتيجة أن دفعت ثقافة عاشوراء الإمام الخميني (قده) إلى الخروج على الشاه وعلى كل المواقف الداعية إلى اعتبار شيعيته الكاذبة وثقافته الفاسدة. الثقافة التي عملت على إظهار زيادة بمظهر العدالة، والتي تدعو إلى عدم الخروج عليه لفسقه لما قد يحدث ذلك من إثارة للفتنة. لقد علمت عاشوراء الشعوب أن يزيد ليس شخصاً، وإنما هو الباطل، والحسن ليس شخصاً وإنما هو الحق، فالنصرة إنما تكون للحق وليس للأشخاص، وكم يقول المعصوم: كمن مع الحق وليس مع الرجال، أو أعرف الحق تعرف أهله. هذا هو المقياس الذي يدفع بأمر إختيار ثقافة الحق وطريق الحق في أي زمان وفي أي مكان.

أن المواقف الفقهية القديمة الداعية إلى عدم الخروج والطاعة لا تزال حية اليوم في عالمنا الإسلامي، وبعض المعاصرين من فقهاء السلطةذهب في تأويله لقوله تعالى: "ومن لم يجعل بما أنزل فأولئك هم الكافرون" إلى أنها خاصة باليهود ولا دخل لها بحكامنا في العالم اليوم، والى أن الجهاد في سبيل الله إنما هوجهاد في سبيل رفع الفقر والحرمان عن عباد الله ولا دخل له بالكافرين وأعداء الله والرسول، وغير ذلك من الفتوى التي تعيد يزيد إلى الذاكرة كل يوم، وعلل ذلك بفتيان في تذكر عاشوراء كل يوم. ولا شك، أنه لا يزال الغرب يعمل من أجل أن تبنى حياة المسلمين على أساس تلك المواقف بهدف الحفاظ على مصالحه مدعوماً.
بفترة بعض المعاصرين في المجامع العلمية الداعية والمطالبة بالارتفاع إلى مستوى الإسلامي الأمريكي! لقد أشار الإمام الخميني (قده) إلى خطورة فتاوى هؤلاء على عامة الناس، وجهد للاستفادة من تأثيرات ثورة عاشوراء وثقافتها في مواجهة هذا الإسلام الأمريكي، حيث أنه كان يعتقد بأن السماح لهؤلاء بالفوز إلى قلوب العامة من شأنه تهديد الأمة الإسلامية، لا في سياستها واجتماعها وثقافتها وحسب، بل في وجودها، ويرى أن الواجب الشرعي هو التصدي لها والخروج عليها مهما كانت التكاليف، فهم يشهدون لذلك بإشاعة إمامة الفاسق مهما فعل وقال:

والسر، بل العبج العجب في هؤلاء المزيّين الفاسقين، أنهم من أكثر الناس تظاهرًا بالقوى والقداسة، ولا يضيرهم أبداً أن يروا الفساد والفحشاء في بلادهم فضلاً عن بيوتهم، ويرون أنه من واجبهم دعوة الناس إلى عدم التدخل في السياسة وتركها لأهلها، لما يعنيه التدخل من منافاة للتقوى وطلب للدنيا، في حين أنهم يكونون أشد الناس طلباً لها حينما يشعرون بانتصار الإسلام المحمدي. إذ أنك تفهم من معنى السياسة عندهم، فضلاً عن معاني التقوى والقداسة، إن لا يصل الإسلام الحقيقي إلى الحكم، أما إذا وصل فالسياسة تقتضي حينئذ الإحاطة به والتآمر عليه، لأنه ممنوع عليه بموجب ارتباط هؤلاء بالأجانب أن يكون حاكماً، وغالباً ما يسمون تحركهم وعملهم ل感应ه بالإمامة الإسلامية، ولهذا يقول الإمام الخميني: "هنا الآن في الحوزات العلمية من هم يعملون ضد الثورة والإسلام الأصيل، وبعضهم اليوم عبر الظاهرة بالقداسة يعمل على اجتثاث من الجذور، وكأنه لا مهمة له غير ذلك، أولئك الأشخاص وصل بهم الأمر إلى حد الإعداد للإطاحة بالنظام والانقلاب عليه".(1)

(1) را: الإمام الخميني (قده)، الخطاب التاريخي، تاريخ 22/2/1989.
إِنَّ ما ابْتَلِىَ بِهِ الامام الخميني (قَدِه) قَبْلَ الثورة وَبَعْدَهَا مِن وَجْدٍ بعض الممثمين والمزيفين ورجال سياسة مقلدين للغرب، يمكن أن يبتلي به أي فقيه عادل يريد أن يقيم حكم الله في الأرض وينص المظالمين، وَأيضاً سيواجه بكثير من الأحاديث والروايات الموضوعة لخدمة الاستعمار في المنطقة من خلال هذا الحاكم أو ذلك، وسِيَقال له ما قبل لآشر حسن على وجه الأرض، ولكن يتوانى بعض الممثمين والسياسيين عن الطعن بثورته واتهامه بالخروج على إمام الزمان وأحكام الله كما اتهم الإمام الحسن في قِبْلُ بني أمية. فالعالم الإسلامي اليوم كأنت مشكلته وسبق الحاكم الجائر المسلح بفتوى المزيفين في المجامع العلمية هنا وهناك، وقد يكون من الصعب جداً تعريف الأمة بالحقائق إذا لم تكن ثورة عاشوراء عبرة ونموذجًا يحتذى بطلابي الحرية والاستقلال في العالم المعاصر. ويبقى الأهم والمطلوب أن يقوم المخلصون من عباد الله بتعريف الأمة بالحقائق التي تساهم في نهوضها وتحريرها، ذلك ان العالم الإسلامي فيه الكثير من العناصر المخلصة التي تتحمل المسؤولية، وتقوم بالواجب على الرغم مما قد يتعرض له هؤلاء من ضغوط، وغير ذلك مما لا بد أن يرتلي به كل مخلص ومؤمن أسوة بالأنبياء والصالحين من عباد الله. فإذا كان الخوف من الفتنة يؤدي إلى زوال هويتها وتحرير مبادئها، وتعني الأمة، وانتشار أوتقت السلام الإسرائيلي في بلاد المسلمين، فإن خوفاً كهذا لا يمكن أن يكون له ما يبرره في شرع الله؛ ويبقى على الروحانية الحقيقة أن تقوم بواجبها وسياسة نفسها، سياسة تخرج الحق من خاطرة الجائر، وتحمي مبدأ الحق والعدل فيها، وخصوصاً أن هناك نصوصاً تبيّن لها ذلك منها: أن السلطان ليس ظالماً لله في الأرض، وإنما هو يستمد سلطانه من الأمة الممثلة كما يرى أهل الحديث والسنة بأهل الحل
والعقد، ويعتمد في بقاء هذا السلطان على ثقتهم به ونظرهم في مصالحهم، ولهذا قرر علماء المسلمين ان للأمة خلع الخليفة لسبب يوجه، وإن أدى الى الفتنة احتت أولى المضربين، وعللوا هذا بأن ملك المسؤولية ليست يقوم الأمر يملك العزل عند اعوجاجه، وأبو بكر الصديق أول من ولي الخلافة قال في فاتحة خطبه: «أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن صفت فقوموني وقال في خاتمته: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، وروي مثل هذا عن عمر وعثمان مما يؤيد إيمانهم بسلطة الأمة عليهم وشعورهم بالمسؤولية أمامها»(1).

(1) ر: خلاف، عبد الوهاب، السياسة الشرعية، دار الأنصار، القاهرة 1977، ص 95.
إنما يفترق به الواقفون، كما يسمىهم الأشعري والغزالي، عن أهل الحديث والسنة في المواقف القديمة والجديدة من السلطان الجائر، على الرغم من التقارب في بعض المواقف، يبقى مميزاً لهما، وهذا التقارب هو أبعد من أن يجعلهما في بوتقة فقية واحدة بدلاً من الواقفون لم يصل الأمر بهم إلى حد جعل إمامه الفاسق من أصول الإمامة، أو واجبة الطاعة، أو إلى اعتباره ولياً للأمر في كل ما يأمر به وينهى عنه، كما في بعض النصوص. فهم، أي الواقفون، لا يرون لأحد شرعية إلا للإمام المعصوم، وفي عصر الغيبة لا شرعية لأحد مهما بلغ شأنه، فالولاية عندهم للإمام علي عليه السلام. فإذا غاب فلًا ولاية لأحد على أحد من الناس، وقد ذهب البعض منهم إلى تعطيل كل شيء أثناء الغيبة الكبرى بهدف تعجيل ظهوره، ومنهم، كما رأينا مع الغزالي، من لا يرى شرعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يمكن فهمه على ضوء الظروف التي كانت تحيط بهم وتدفعهم إلى التخلي عن السياسة واتهام كل من يعمل في مجالها أو يتصدى لها. وما من شك أن هذه المواقف التي كان لها أثر كبير في الماضي، يمكن القول بشيء من الدقة، أنه لم يعد لها التأثير الكبير، وذلك
بعد أن انتصرت المدرسة الأصولية في صراعها مع المدرسة الإخبارية التي رفضت إعمال العقل والاجتهاد، ولكن لما انتصرت المدرسة الأصولية ودخل العلماء في المعركة السياسية تغير الكثير من المواقف السابقة، وهذا لا يمنع من القول، إنه بقي هناك مواقف تدعو إلى الجمود وعدم الخروج على الحاكم الجائر. وفي جميع الأحوال، لم يكن معترفاً بالسلطان الجائر، وإن كان يقتضي الأمر العمل والتعامل معه من أجل إحقاق حق، أو إنصاف مظلوم، أو تحقيق مصلحة إسلامية عليها من قبل ما نعرفه وما ستتعرض له عن دور الإمام المعصوم عليه الصلاة والسلام في ظل الحكومات غير الشرعية. إن الذي كان يقوم به المعصوم في مواجهة سلاطين الجور بعد الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام والذي يمكن اعتبار عملهم وتصديهم تكملة لثورة عاشوراء، وامتداداً لها، وليس اقتطاعاً عنها أو تبديلاً لها، بدأين إن وضع الرسالة وحياتها في الأمة كان يفرض على الإمام أن يقوم بالدور المناسب، ولم يكن المهم أبداً التصدي للسلطة السياسية، والتنافس عليها، باعتبار أن إمامة الإمام لا تتقوّم ولا تتجهر بالمهمة السياسية، ولهذا كان الأئمة عليهم الصلاة يتعاونون مع السلطان الجائر بالمقدار الذي يحقق للأمة مصلحتها العليا، فالإمام زين العابدين عليه الصلاة و السلام مثلاً قام بالدور العظيم حينما عجز عبد الملك بن مروان عن الرد على كتاب ملك الروم فتمّ الإمام الفرغاني في الرسالة بالشكل الذي يحفظ للدولة كرامتها، وللأمة الإسلامية هبتهما، وكما حصل حينما عجز هشام الأموي عن رد التحدي الذي واجهه من الدولة بشأن النقد، وكان الباقر عليه الصلاة بالمستوى التحدي والرد على هذا التحدي فخطط للاستقلال النقدي (١). فالائمة بعد الإمام الحسين عليه الصلاة و السلام لم يتمكنوا من الثورة بسبب عدم استعداد الناس لها، وما

(١) رأ: السيد محمد باقر الصدر، دروس إسلامية: دار الزهراء، بيروت، ص ١٥٠.
كان يقوم به الإمام المعصوم عليه السلام لم يكن عوناً للنظام الجائر بل دعماً للأمة التي اطمأنت إلى سلامة النظرية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.
وقد استمرت هذه السلامة على المستوى النظري مع الإمام المعصوم عليه السلام الذي كان يراقب ويستخدمه، على الرغم من كل ما كان يراه من أخطاء على مستوى التطبيق من قبل الحاكم الجائر، ولم يكن يخفيفيه أبداً مجهود السلطان الجائر للحد من وعى الأمة ونفوذها وتعلقها بإمام الزمان، وقد أشار الإمام الخميني إلى هذا بقوله: «كان السلاطين والظلمة يبذلون كل ما في وسعهم لمحو آثار الرسالة، وبحمد الله، فإننا نرى نتيجة تلك الجهود اليوم متجسدات في الآثار المبكرة كالكتب الأربعة، والكتب الأخرى للمتقدمين والمتآخرين في الفقه والأصول والفلسفة، وإذا لم نسم كل هذه الأتعاب والمجهودات جهاداً في سبيل الله فماذا نسميها؟»

كما أن تعامل الإمام المعصوم لم يكن يعني أبداً الاعتراف بشرعية الحاكم الجائر أو التناسل له عن حق الإمام أو الأمة، بل كان تعامله يقتضيه الظروف والملفحة العليا للأمة، والسلطان الجائر كان يعي هذا الأمر جيداً، مما كان يحمله دائماً على الترتيب بالإمام عليه السلام، كي يمنعه من التأثير في الناس، وبسبب هذا الدور العظيم للإمام في كل زمان كان السلطان مقيداً لا يستطيع المساس بالنظرية الإسلامية، التي كان الإمام المعصوم هو الخيار الوحيد لها، وهذا الأمر كان يمنع السلطان من الدعوة لنفسه من خلال استغلال الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، مما كان يدفع به إلى قتل الإمام أو سجنه وتعذيبه، إلى ما هنالك من وسائل للتأثير عليه وأخذ البيعة منه. فهذا الإمام موسى بن جعفر الذي رفض الاستجابة

(1) الإمام الخميني، الخطاب التاريخي، 27 شباط 89.
لطلب الزعامة المنحرفة، يقول الإمام الخميني: "إن الحكام الجئرين كانوا يعلمون أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إذا خلص منهم فإن الحياة تغدو عليهم حراماً، وأنه سينهض إن وجد من ينصره، ولا تشكوا في أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لو سنحت له الفرصة، فإنه كان سيأخذ الخلافة لقيم بها الحق ويزهق بها الباطل، وانظروا كيف كان المأمون يداري الإمام الرضا عليه السلام يويله العهد، ويخطبنا ابن العم، يا ابن رسول الله، وكان مع ذلك يراقب تحركاته لأنه كان يخشى على سلطانه، والأنثمة لم يكونوا وحدهم في مقاومة سلطان الجور، بل دعوا المسلمين جميعاً إلى أن يكونوا في مواجهة الجور والظلم، وهناك ما يزيد على الخمسين حديثاً في كتاب الوسائل ومستدرك الوسائل فيها اجتناب الظلمة والحكام جئرين. فالدخول في سلك الظلمة والجئرين يجب أن يكون شكلياً ومناصراً للإسلام الحقيقي، ورافعاً لالتزام عن العباد، كما فعل علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي (1).

ومنها يدل على أن الأئمة لم يتوازن على القيام بالثورة، هو أن الإمام الصادق عليه السلام حينما جاء الخراساني يطلب منه قيادة الثورة، فألجل الإمام جوابه، ثم أمره بدخول التنور فرفض، وجاء أبو بصير فأمره بذلك فسارع إلى الامتثال، فالتقت الإمام إلى الخراساني وسألته كم له من أمثال أبي بصير، وكان هذا هو الرد العملي من الإمام على اقتراح خراسان (2). إن كل ذلك يدل على أن الثورة تكون ممكناً حينما يكون الناس على استعداد لها، كما كانت حالة الشعب الإيرانى، الذي استوفي كافة شروط التحرك، ثم النصر، وهذا الاستعداد يجب استشرائه في نصرة الإسلام سواء أكان

---

(1) أنظر: الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م. س، ص. 150.
(2) السيد محمد باقر الصدر، بحوت إسلامية، دار الزهراء، بيروت، ص. 58.

126
الإمام المعصوم حاضراً أم غابياً، كما يرى الإمام الخميني، ولا شرعية لمواقف تحدث على الجمود في عصر الغيبة، وتدعو إلى الانتظار السلبي. إن عدم استعداد الأمة، مثلما أنه كان يحاول دون ثورة المعصوم عليه السلام، فهو أيضاً كان يحاول دون ثورة الفقيه في عصر الغيبة، وحيثما يكون الاستعداد تكون الثورة، وقد نجد من الرواضين الذين أشار اليهم الغزالي والأشعري من رفض الخروج والثورة مع التمكّن منها والقدرة عليها لظنهم ان هذا الأمر ليس موكولاً اليهم، وإنما هو خاص بالإمام عليه السلام من دون أن يعني ذلك اعترافاً منهم بشرعية أنظمة الجور.

وهنا نلاحظ مفارقة هامة جداً بين نصوص الرواضين وأهل الحديث والسنة، وهي أن إمامة الفاطميين مهماً قال أو فعل لا يجوز الخروج عليه توقياً للفتنة لها نفس تأثيرات مقولة لا يجوز الخروج ولو سببت الذرى وقتل الرجال إلا مع الإمام المعصوم عليه السلام، فالمقولة الأولى تكرس سلطان الجور وكذلك المقولة الثانية، رغم عدم الاعتراف به، تؤدي إلى النتائج ذاتها، وقد رد الغزالي عليهما بما سبق وذكرناه في بداية هذا البحث.

من إيجابيات ثقافة عاشوراء وثورة عاشوراء على مستوى التحقق السياسي، هي إنها استطاعت أن تعطي الأمة دفعاً اتجاه تعقل الأمر الإلهي على نحو يجعله حاضراً دائماً في عقل وقلب الأمة، كما أنها عرفت الجمهور بحقيقة الثورة على الظلم والجور من خلال الامتثال للشعار الحسيني، الذي هدف الإمام الحسين من ورائه إلى أن يكون شعراً مطلقاً وقابلٌ للتحقق حيث أمكن «كفا بك ذاك أن تعيش وترغماً».

هناك جملة من الروايات عن الأئة يجب أن تعطي أبعادها العملية في عصر الغيبة، وهذا ما فعله الإمام الخميني بثورته المباركة، ومن خلال هذه الروايات يمكن الحكم على الموقف الشيعي الجديد الداعي إلى
ضرورة السعي لإقامة الحكومة الإسلامية المحقة لشعارات كبلاء والمنتصرة بها، باعتبار أن هذه الشعارات مثلما هي سر الإنتصار فذلك هي سر البقاء، وهي عنوان كل رواية، فجميع الروايات المتوترة عن الأئمة لا تذهب إلى الاعتراف بشرعية سلطان الجور، بل تؤكد أن السلاطين هم في الحقيقة غاصبون لهذا المقام المقدس، وكذلك لحق الله والإمام المعصوم والأمة. وفي أثناء غيبة الإمام لا بد أن يكون الحاكم مطيعاً للرسول وإمام الزمان، وأميناً على الرسالة، وعادلًا في قوله وفعله بحيث يكون أول عدله نفي الهوى عن نفسه كما في بعض الروايات، وضيف إلى ذلك ما تضمنته بعض الروايات من دعوة إلى الثورة على السلطان الجائر إذا أمكن ذلك، لأنه لا يجوز الإخلاء بالنظام العام فيما لو لم يكن التحرك ضد السلطان ممكنًا أو مستعدًا له، كما أن التمكن منه وتركه إما هو بمثابة الإقرار بتعطيل الأحكام والقوانين الإلهية، وتمكين ولاة الجور من التحكُّم بمصاهر العباد والبلاد. أما إذا لم تكن الثورة ممكنة، فإنه يمكن العمل والتعامل مع السلطان بما يحقق للأمة وحدها ويحفظ النظام العام الذي يحرم الإخلاء به بحسب فتاوى الفقهاء قديماً وحديثاً، ولا ننفي أن هناك من الفقهاء من ذهب إلى القول ببطلان الحكم الإسلامي قبل ظهور صاحب الزمان (1). وهذا قول لا يعتد به لمنافاته مع الإسلام، ولما يؤدي اليه من ظلم وحرمان بحق العباد، ومن استعمار للبلاد كما يحصل اليوم في عالمنا العربي والإسلامي...

فإذا تولى الجائر السلطة ولم يكن بإمكان المسلمين خلعه لقوة شوكته، أو لعدم استعدادهم لذلك، فإنه يمكن التعامل معه لحفظ الأحكام الشرعية المرتبة على الولاية من دون الاعتراف بشرعيته، كما كان يفعل

(1) انظر: الحر العامل، وسائل الشيعة، 472/11، أبواب الأمر والنهي.
الأئمة مع ولاة الجور، ومن جملة الروايات الدالة على ذلك ما جاء في رواية موسى بن اسماعيل عن أبيه الصادق عن جده موسى بن جعفر أنه قال لشيعته: "لا تذلو رقابكم بترك طاعة سلطانكم، فإن كان عادلاً فاسألوا الله بقاءه، وإن كان جائراً فاسألوا الله صلاحه، فإن صالحكم في صلاح سلطانكم، وإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم، فأحبوا أنه ما يحبون لأنفسكم، واكروا له ما تكرهون لأنفسكم" (1). إنما يستفاد من هذه الرواية أن يكون السلطان عادلاً. أما إذا تزعزع ذلك، فإنه يمكن طاعة السلطان الجائر بما يرضي الله تعالى، باعتبار أنه لا طاعة في معصية، وعلى الأمة الاستعداد والتأمل لاستبداله بما يحفظ له هيئته ووقادتها ومصالحها، لأن الحاكم الجائر أول همه ضمان مصلحته الخاصة، إلا أنه غالبًا ما يكون هذا السلطان نتيجة للأمة لما قبل في الحديث أنه "كيفما تكونون يولى عليكم".

فالأمة إذا كانت تعي حقيقة الأمر الإلهي وله آذان واعية تسمع وترى وتذكر، فإنه لا بد أن يكون لها جوائز على ذلك، مثلما حصل للشعب المسلم في إيران، الذي انتصر في ثورات عدة ضد السلاطين، لكن غياب النظرية الاستراتيجية في الماضي، هو الذي أدى إلى أن تكون إيران في عهود سابقة متارضة بين النصرة والهزيمة إلى أن كانت النتيجة إقامة حكم الله وتطبيق الشريعة من خلال ولاية الفقيه.

غاية ما نروم بيانه في هذا البحث، هو أن الإمام الخميني (قده) قرأ الواقع بدقة ورصد المستقبل، فحقق المعجزة في هذا القرن، ودفع بالأمور إلى نهائاتها حيث عاشوراء وروح الجهاد والتضحية بكل شيء من

(1) ر: الشيخ شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي، المؤسسة الجامعية ط 1، 1992 ص 219.
أجل الإسلام، وليس غريباً أبداً أن تكون عاشوراء سبباً للنصر والبقاء، باعتبار أنها تحتوي على كل عناصر القوة، وفيها ما يدفع الإنسان إلى اختصار مسافة الزمان ليكون قريبًا من الحدث الماضي في تاريخ الإنسانية. إن الشعب الإيراني المسلم ما كان ليحصل على هذه الجائزة، وأعني الهدية الإلهية لولا استحضاره كل معاني هذه الثورة، فالشعب الذي استعد للسير في طريق الشهادة، هو دائماً يتذكر في أثناء مسيره أئمة الهدى الذين تابعوا الطريق وتعلموا نبضات آخرين الآذى في سبيل الحفاظ على الإسلام، وكما يقول الإمام الخمسي (قده) لو لم يكن سيدي الشهداء موجوداً لكان يزيد ووالده وأعاقابهما قد أسروا الإسلام ...

1) وستفاد من هذا أن الإمام الحسين عليه السلام كان من نتائج شهادته استمرار النظرية الإسلامية حيّة وفاعلة رغم جهالة المتصدين للسلطة، والذين لم يكونوا أمناء أبداً على تطبيق الرسالة، فالناس كانوا يعلمون تماماً أن الإمام المعصوم عليه السلام ومن ينوب عنه، هو القائد على الرسالة والترجمج لها، لقوله عليه السلام: "إن أولئك بالله... بهم علم الكتاب وله علماء، وبهم قام الكتاب وله قاموا" 2). فالثورة الحسينية حمتي الإسلام، وأفسحت في المجال أمام الناس كي يتصدوا لما من شأنه تعرض الرسالة لمخاطر التزيف والتحريف. وها نحن كلما تقدمنا في الزمان كلما اقتربت عاشوراء منا من حيث كونها ليست ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً، وإنما هي الزمان والحياة تحيا وتتفاصل وتنتج وتصنع القادة لكل زمان وكل مكان، والحق يقال: أن الإمام الحسيني عرف كيف يحظى هذا الامتداد لعاشوراء في الزمن، بعيداً عن خرافات التاريخ وأكاذيه، حيث أنه جرد عاشوراء من

1) الإمام الخمسي، إلا ستقاءة والثبات، م. ص، ص 303.
2) را: الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، قصار الحكم: ص 422.

135
الخيالية والمثالية وأعطاه أبعاداً واقعية، حتى غدت فكرة عملية واضحة، وحقيقة تاريخية ناعمة ومعاشة في زمن ظن البعض فيه أن ما في الماضي يمضي ولا يعود!

لقد استطاع الإمام الخميني (ره) توضيح الصورة، وتقريب الزمن بكل ما ينطوي عليه من حيوية. كما أنه أحدث قطيعة مع كل ما يشعر بأن ثقافة عاشوراء غير مفيدة في زمن تطغي فيه عليه ثقافة المادة التي كانت سبيباً ولا تزال في تحكيم يزيد ومن على شاكلته برقات العبادات والبلاد، وأبعد نهائياً عن الأذهان كل النصوص والروايات والتأويلات المشبوهة، التي تبيح ليزيد العصر أن يكون حاكماً، أو تعطي فرصة للحكام كي يشوهو صورة الإسلام. إن عاشوراء ثورة فعلية ودائمة التي ترث الله الأرض ومن عليها.
الفصل الرابع
خصائص ومميزات الثورة الإسلامية في إيران

تمهيد
أولاً: المرتكز الإستعماري في فهم الثورات الإسلامية
ثانياً: الإمام الخميني (قده) ومحمية الحل الإسلامي
ثالثاً: ديمومة الثورة وخسارة الرهان
بعد الخلافة الراشدة، واستبداد الملك العضوض بالآمة والدولة معاً، وما تبع ذلك من انهيار لمنظمة القيم والمبادئ الإسلامية، سواء في العهد الأموي، أو في العهد العباسي، أو غيرهما مما عرف بالعهود العثمانية في تركيا، والصفوية في إيران، والتي كانت جميعها تدعي الإسلامية، بل السنة تارة، والشيعية أخرى، في كل ما كانت تلجأ إليه من سياسات، وتسعى لتحقيقه من أهداف، أجمع المؤرخون على أن الإسلام، كما ترجم في حياة الرسول ﷺ وأهل بيته، لم يستمر حياً في الأمة والدولة، وتحول مع الملك العضوض إلى مجرد طقوس وتعبرات تتلى في المناسبات، وقد ذكر السيد الخميني (رض) أن الأمر بلغ إلى حد القرآن الكريم، وهو الكتاب الصانع للمصير، لم يكن له ولا الآن على أيدي الأعداء المتآمرين والأصدقاء الجهلة أية وظيفة إلا في المقابر وفي مجالات الأموات(1).

(1) انظر: الإمام الخميني (رض)، البناء الأخير، أو الوصية الخالدة، م. ص. 8.
وقول الإمام (رض): «لم يكن له»، إشارة إلى ما كان عليه حال المسلمين في الماضي، في ظل حكومات الاستبداد، التي كان كل همها استثمار الدين في المشروع السياسي، واستبعاد حركة الشعوب الإسلامية في دائرة الفقه السلطاني، حتى لا يكون هناك أي فهم للإسلام وتعلميته وقوائمه من خارج مؤسسة السلطة والفقهاء التابعين لها.

فالدين، كما يرى الإمام علي ﷺ، في كلامه إلى مالك الأسهر، كان أسيراً بأيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا. (1)

وجاءت كربلاء وثورة الإمام الحسين ﷺ لتضع حداً لما كانت تقوم به حكومة الاستبداد من تأويلات للدين، وتحريف له لخدمة مصالحها وترير مشروعها السياسي. وعلى الرغم مما حققه ثورة الإمام الحسين ﷺ من أهداف، وكشفت عنه من مساوئه، وما زرعته من بذور لمواجهة الظلم والظلمين، فإن أمور المسلمين، الدينية والسياسية، بقيت في أيدي السلاطين، بسبب عدم وفاء الأمة بالنزاماتها مع ولاة أمرها الحقيقيين، الذين فضل جهودهم تمت حماية الإسلام من التحريف وسوء التأويل، وكذلك حماية الأمة من الانقسام، في زمن كان يحرص فيه السلطان على الحرص على تفكير عرى الأمة لتعود إليها ما كانت عليه في سابق عهدها قبل أن يهدبها الإسلام، ويجعلها خير أمة أُخرجت للناس.

إن استثمار الدين في المشروع السياسي من قبل السلاطين، حال دون تواصل الأمة مع مشروعها الحقيقي، كما أنه أدى إلى أن تكون أسيرة المشاريع الخاصة لهذا السلطان أو ذلك، وجعل الدولة السلطانية في مقابل الأمة، بعد أن كانت في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تعبيراً.

(1) رأ: الإمام علي ﷺ، نهج البلاغة، الكتاب: 53.
الإسلام غربًا في مجتمعات المسلمين، وأس異なる تعبيرات السلطة السياسية، كما كان عليه الحال في زمن المأمون العباسي الذي استعمل السلطة لفرض ما كان يعتقد حقاً في الدين والدنيا، كما كان عليه الحال في زمن الموتول العباسي الذي عارض المعتزلة واستعمل السلطة في سبيل هدم معتقداتهم، إلى ما هنالك مما لا يحصى من الأحداث، التي كان للسلطة الدور الأكبر في حسمها، باعتبار أن الدين لم يكن مستقلًا عن كل الحكومات التي تعاقبت على حكم المسلمين في تاريخهم. 

في القضاء بين المسلمين، والحروب في داخل البلاد وخارجها، وجبابة الخراج، وتفسير النصوص وتأويلها، كان كل ذلك يتم وفقًا لإرادة السلطة ودعمًا لها، ولم يكن للدين دور مستقل في النظر إلى شؤون الأمة والدولة. وهذا ما أوجد «هيكل» في كلامه عن الأتباع الديني، حيث رأى أن الحكومات، قدماً وحديثًا، استغلت الدين بطبيعه الحال لتحقيق أهدافها السياسية، والدين كان دائماً تحت سيطرة الحكومة، وأي دين كان يخرج عن سيطرة الحكومة، وخاصة في البلاد السنية، كان يعتبر رجعية وتخليفاً.

(1) رأ: السيوطى، تاريخ الخلافاء، تحقيق محمد محي الدين بن عبد الحميد، منشورات الشريف الرضي، ص 131، ونشر هذا إلى أن المأمون العباسي استعمل السلطة لفرض عقيدة خلق القرآن، ودعم مذهب المعتزلة، وجباء من بعد الموتول العباسي لفرض عقيدة أهل الحديث والسنة. وعموماً يمكن القول: إن أي حاكم سواء في العصر الأموي، أو العباسي، وصولاً إلى عصرنا الحاضر، لا يعتبر نفسه شيئاً منفصلاً عن الدين، وهذا الأخير إنهما يكون دينًا فيما لو كان صادقاً عنه ومبرراً.

(2) انظر: هيكل، محمد حسين، مدافع آية الله، قصة إيران والثورة، دار الشروق، ط 3، 1983، ص 31.
لسنا بوارد التاريخ لما مرّ به العالم الإسلامي من أحداث ووقائع، وما شهده من نظريات ومقولات دينية وسياسية، وإنما نريد فقط أن نبين ان خصائص الثورة الإسلامية في إيران ومميزاتها، تجعلها فعلاً فردة من نوعها، لأنها جاءت من خارج تاريخ المسلمين، لتعبر عن تاريخ الإسلام كما كتبه الرسول صلى الله عليه وسلم من داخل السلطة، أو من خارجها.

وهل هنا قد يطرح السؤال التالي:

لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه السمات والخصائص؟

سؤال يدفع بالباحث والمؤرخ إلى استحضار كل صور التاريخ، وما زاخر به أحداث دينية وسياسة، ليرى ما إذا كان لهذه الثورة صوراً ونماذج تحاكي هذه الثورة وتماثلها من حيث المنطلق والهدف، ونتيجة هذا الاستحضار لا بد أن تكون التوصل إلى الحقيقة النتائجية، وهي أن هذه الثورة تمتد عميقاً إلى كربلاء، وتعبر عنها، سواء في المنطلق، أو في سير الأحداث، وفي النتائج التي انتهت إليها، لأن تاريخ المسلمين منذ كربلاء، وحتى اليوم، لم يشهد ثورة إسلامية تنتج دولتها خاصة بها، ومشروعها المستقل (الإسلامي) وتخرج عما هو مألوف وتقليدي في تاريخ المسلمين، مما يؤكد ان الثورة الإسلامية في إيران هي امتداد لتاريخ الإسلام فيما عبرت عنه من استقلال وحرية في فهم الإسلام وتأويله، ومن ثم في تطبيقه، ولم تامتاداً لتاريخ المسلمين وما حلله به من قيود واستغلال واستبداد. ومن هنا، نرى ان الإجابة على سؤال: لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه السمات والخصائص؟ تبدو ممكنة فيما لو عرفنا ان تاريخ المسلمين منذ كربلاء، وإلى عصر انتصار الثورة في إيران، شهد ثورات
واتقلابات كثيرة، وقد تكون جميعها حملت اسم الإسلام، ورفعت شعاعه، لكن، في الحقيقة، لم تكن تلك الثورات تعبيراً عن الإسلام المحمدي الأصيل، وإنما كانت تعبيراً عن رؤية السلطان للدين والدنى، وتبريراً لأهدافه من منطلق أن السلطان هو الإسلام، وهو الزمان، وهو إمام المسلمين. وقد ذكر المؤرخون أنه حينما كانت تخرج الثورة من دائرة السلطان وما هو عليه من دين، كانت تتهم بالردة، وبالخروج على إمام الزمان، وغير خفي على أحد ان الإمام الحسين عليه نفسه قد اتهم بذلك، وقيل: إنه خرج عن حده، فقتل بسيف جده(1).

نذكر تاريخ المسلمين منذ انتهاء الخلافة الراشدة، وإلي يومنا هذا، هو تاريخ السلطان، وفقهاء السلطان، ونظراً لما كان يمارسه السلطان من استبداد، فإن السيادة كانت له، ولم تكن للقرآن، وقد جاء في الأحاديث النبوية عن الرسول ﷺ، أنه إذا اتفرقت القرآن عن السلطان، فعلى الناس أن يكونوا مع القرآن، وما جرى في التاريخ الإسلامي، هو أن الناس، ولاسباب كثيرة، انزعروا السلطان، وتخلوا عن القرآن، وإن شئت، فقال: إن الناس كانوا على دين ملوكهم، وإذا كانت هذه هي صفة الناس عامة قبل الإسلام وبعده، فإن هذا الأمر قد تغير كثيراً مع دخول الإسلام إلى إيران، حيث تحوّل الناس جذرياً، كما رأينا سابقاً، نحو الإسلام، وأصبحت الشريعة الإسلامية هي الحاكمة والطاعة، ومع اتخاذ قرار

(1) غريب فعلاً ما ذهب إليه ابن كثير، فهو رغم اعترافه بأن «يزيد» كان إماماً فاسقاً، فإنه يعتقد أن الإمام الفاسق لا يؤزل بمجرد فعله على أصح قول العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقع الهرج والمرج وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال وعمل الفواحش... انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج، 8، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 225. ورا: السيوطي، تاريخ الخلق، م، ص 205.
التشريع رسمياً في بداية القرن السادس عشر ميلادي، ازداد الشعب الإيراني انسجاماً مع الإسلام، ولم يعد دين الملك هو المعيار والأساس في التزامات الشعب الإيراني، بل تحوّل الأمر، فأصبح المعيار في طاعة الملك وعدم الخروج عليه هو مدى انسجامه مع الإسلام وصيده عنه في كل ما ينتجه من سياسات، ويعالجه من قضايا وأحداث، ويمكن لأي باحث أن يمعن النظر فيما كانت عليه المؤسسة الدينية والفقهاء الشيعة من استقلال في علاقاتهم مع السلاطين، سواء في العصر الصفوي، أو القاجاري، أو البهلوي، لكي تتبلور لديه فكرة وحقيقة ان الدين (الإسلام) لم يكن أمر من السلطة ورغم مواقفها وإرادتها، يقول كوترياني: «في إيران كان الدين دائماً خارج سيطرة الدولة، وعلماء الدين لم يتضاعوا مرتبتين من الدولة، كما هو الحال في بلاد المسلمين خارج إيران، حيث انهم كانوا يعتمدون في بقائهم على الثروات الخاصة، وغالباً ما كان المرجع مستقلًا من الناحية المالية، وبالتالي، في إدارة حوزته ونمط تفكيره ومنهجه وطريقة اجتهاده.» (1).

كان لا بد من هذا العرض المختصر عن حال المسلمين وما كانوا عليه في دينهم ودياناتهم في تاريخهم، ذلك أن طبيعة البحث تقتضي ملاحظة كافة الأسباب والعوامل التي كانت تتحول دون توقع ظهور ثورة إسلامية في إيران متميزة بخصائصها وسماتها عن سائر ما عرفته الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية من ثورات.

وإذا كانت طبيعة البحث قد أقتضت الإشارة إلى خروج الدين من دائرة السلطة في إيران ليكون مستقلًا وحراً من حيث الدور والوظيفة

(1) انظر: وجه كوترياني، الفقه والسلطان، م. س، مأخوذ بتصرف، ص 149.
وقا: مع هيكيل، قصة إيران والثورة، م. ، ص 175.
والغاية، فإن ذلك يستتبع الحديث عن جملة من الأسباب والظروف التي جعلت العالم المستعمور وغيره يخطئ في حساباته، ويحكي في توقعاته، كونه كان يعتقد أن الثورة في إيران، هي ضمن دائرة رصده للأحداث، ولا بد أن تسير في المسار المرسوم لها من قبله، وكانت النتيجة ما أحدثته الثورة من مفاجآت، مما أوقع العالم في حيرة وارتباك، ودفع بأعداد الإسلام والمسلمين إلى إعادة النظر بطرق التقييم وأساليب العمل. وهنا نكرر السؤال، لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه الخصائص والسمات؟
أولاً: المرتكز الاستعماري في فهم الثورات الإسلامية

لا شك في أن العالم المستعمر ودوائر استخباراته، وبكل ما أتيح له من وسائل وآليات عمل، كان في حالة رصد دائمة لمسارات الأحداث في العالم الإسلامي، وقد زودته إرساليات التبشير وكتب المستشرقين بكثير من الآراء والأفكار المغلوطة عن المسلمين سنة وشيعة(1)، وجعلته يقتنع تمامًا بأن المسلمين يشدون الحياة الصوفية، ويتجردون إلى حد اتهام الجسد بالخطيئة، والحياة والعمل فيها بالمعصية، إلى ما هنالك من نظريات وآرائات دينية، عززت لدى الغرب والاستعمار عمومًا، بشقية الغربي والشرقي، فكرة أن الإسلام يشبه المسيحية فيما يدعو إليه من أعمال روحية، وتنافس على بناء مدينة الله، واعتبار العمل السياسي خطيئة ليس بعدها خطيئة. وهكذا، توالت أطروحات التبشير على الإمبراطورية العثمانية، وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي الامتيازًا في التبشير بالعالمية والإصلاحات الدستورية. وما ان حلت الحرب العالمية الأولى، حتى

---

(1) ر: أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، ج3، ط3، 1983، ص18.
استبد الاستعمار بكل شيء، دون أن تظهر في الأفق ملامح أية حركة إسلامية، بل استمر تقسيم المنطقة، وتوارث النفوذ إلى أن أعلن في تركيا نهاية الخلافة الإسلامية، وبعد إلغاء الخلافة 1924م، صدر كتاب علي عبد الرزاق عام 1925م، والذي بشر فيه بأن الدولة ليست من مقتصدي الدين، وإن الرسول لم يكن حاكما سياسياً. لقد تابعت الأحداث لتصل إلى صراعات الدين والعلمانية، والتقليد وال الحديث، وما رافق ذلك من بروز اتجاهات منها ما يدعو إلى القومية، ومنها ما يدعو إلى الإسلام، وكانت النتيجة في جملة هذه الصراعات، القول تارة بحتمية الحل العلماني، وطوراً بحتمية الحل الاشتراكي، إلى أن جاءت هزيمة 1967م، واتهم الإسلام والتدين عموماً بأنه المسبب الرئيسي لها من قبل العلمانيين، حيث زعموا أنه لو أن المجتمع المصري والمجتمعات العربية والإسلامية عموماً أخذت بالعلمنة لما وقعت الهزيمة، وفي مقابل ذلك، عاد المصريون والعرب عموماً إلى الدين يبحثون فيه عن القوة بعد الهزيمة.

---

1. انظر: علي عبد الرزاق، دراسة ونصوص لوجيا كروتائي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1996، ص 169-178.
2. رأ: أنور الجندي، سقوط العلمانية، دار الكتاب اللبناني، ص 15.
3. يذكر أنور الجندي، إن هزيمة 1967، استغلت لاطلاق صيحة علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين، وهذه الصيحة تعني أن مصدر النكسة هو تلك العقلية الغبية (الإسلامية) وان تجاوز النكسة يقتضي القضاء على هذه الثنائية بين مفاهيم الإسلام والعلمنة الجزئية، حتى يكون هناك علمنة كاملة. انظر: سقوط العلمانية، م. ص 9.
لقد سعى الاستعمار جاهداً من أجل تكرير فكرة أن أوروبا تقدمت حينما تخلّت عن الدين، وإذا كان لا بد من تقدم المجتمعات الإسلامية، فما عليها إلا أن تسلك طريق العلمانية، وتنخلي عن الدين، وتبني نفسها على أساس النموذج الغربي في جميع شؤون حياتها.

كما سعى المستعمرون أيضاً، من أجل تعزيز فكرة ان الإسلام دين روحي، يخلو من نظرية في السياسة، وعلى هذا المنوال، انطلقت المساعي الاستعمارية لكي تحول دون أن يكون للإسلام أي دور أو تأثير في بناء المجتمعات العربية والإسلامية، لا في المجتمع ولا في الدولة. وهنا يمكن القول: إنه توفر للمستعمرين عاملين أساسيين للتأثير على الشعوب الإسلامية، وضابط ثوراتها، وهما:

أولاً: العامل العلماني وغزوه للبلاد الإسلامية تحت شعار التقدم والتحديث.

ثانياً: العامل التقليدي والموروث في الفقه والسياسة الإسلاميين، والقاضي بحريمة الخروج على الحاكم الفاسق، واعتباره من أولي الأمر.

ومما لا شك فيه، إنه بين غزو العلمانية، وجمود التحرك الثوري على أساس رؤى ومباني فقهية استطاع الاستعمار أن يضبط حركة الجماهير المسلمة، وان يحبس أنفسها في دائرة الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية على أساس رأسمالية تارة، وعلى أساس إشترائية طوراً دون أن تتعداه إلى دائرة الإسلام وما يكتنف من حلول لمشاكلها.

كما ان تحكم هؤلاء العاملين بمفاصل الحياة الإسلامية، وبأطر تفكيرها، جعل العالم المستعمر يطمئن الى أن أية حركة في العالم الإسلامي كله، لا بد أن تكون مضبوطة الإيقاع ومعروفة النتائج، لأن
الاستعمار استطاع أن يضمن للحكومات القائمة في بلاد المسلمين استمرارها بما وفر لها من دعم خارجي، وبما أسهم عليها من شرعية دينية من قبل فقهاء السلطة، الذين اقتصر دورهم على تبرير مشروعها، وتفسير الدين بحسب مصالح ومقتضيات السلطة السياسية الحاكمة، ومن يقف وراءها...

لقد ارتكز الاستعمار القديم والحديث في فهمه للثورات التي كانت تقوم في بلاد المسلمين، إلى ما دوّنه أقلاشم المسلمين أنفسهم، هذه الأقلاشم التي أظهرت الإسلام بمظهر العاجز عن بلورة مشروع للحكم، وعن مواكبة العصر وما يفرزه من مشاكل اجتماعية واقتصادية، هذا إضافة إلى ما يمنحه الإسلام من شرعية لأية حكومة تقوم في بلاد المسلمين، سواء عن طريق الانقلاب، أو عن طريق البيعة والاستخلف، أو عن طريق القهر والغبطة، وكان يكفي الاستعمار لبلورة نموذجه في بلاد المسلمين أن يعزز دور الحكومة الموجودة، ويدعمها بكل وسيلة ممكنة لإبعاد الإسلام نهائياً عن حياة الناس.

والحق يقال: إنه لم يتباذر إلى ذهن المستعمري في يوم من الأيام أن تقوم ثورة في أي مجتمع إسلامي، ولا يكون محيطاً بكل وسائلها وأهدافها، وبالنتائج التي تنتهي إلى تحقيقها، بل كان دائماً في موقع القدرة على فهمها، وتحريكها في ضوء ما يرسمه من أهداف وخطط للمجتمع والدولة في البلاد الإسلامية.

وهنا تجدر الإشارة، إلى أنه لم يكن خافياً على الاستعمار إمكانية الاستفادة من الموروث الفقهي والسياسي للمسلمين، وتوظيفه في مشاريع تخدمه وتحقيق له رغباته في السيطرة الثقافية والسياسية والعسكرية، كون هذه الموروث قرأ بدقة من قبل المستعمري مما مكنه من اعداد الأجهزة
اللازمة، لتفسير الإسلام وتأويله وفقاً لهذا المؤرخ، الذي يعزز دور الحاكم مهما كان وضعه الديني والثقافي، يقول الإمام الخميني (رض): "ألم يكن رضا خان من جهال الناس، وها هو التاريخ يحدثنا عن جهال حكموا الناس بغير جدارة ولا لياقة..." (1).

ومما لا شك فيه أيضاً، أن المستشرقين نقلوا ما كتبه الأشعر في المقالات (2)، وابن كثير في البداية والنهاية (3)، وكذلك كل ما كتبه فقهاء السلطة عن الإسلام والمسلمين، وما كتب بشأن الشرع، والحاكم، وكلها كتابات تمنعني من الثورة، وترشد إلى ضرورة الطاعة، وتؤكد على دور السلطان وأثره في بلورة النظرية الدينية، وهذا كله، كما رأينا، شكل مرتكزاً أساسياً لفهم الثورة في بلاد المسلمين، وساهم في إبراز دور الحكومات القائمة، وساعدها على الاستمرار في حكم الوعي، بغض النظر عما تعتمده من أساليب ودستور وسياسات في حكمها.

ان الاستعمار القديم والحديث، لم يجد صعوبة في التحكم في مفاصل الحياة الإسلامية، لأنه وجد في الحكام المسلمين خير معين له على هذا الأمر، سواء أخذ المسلمون بالعلمانية أم لم يأخذوا، باعتبار ان تاريخ المسلمين، وقبل أن يظهر الاستعمار، يشبه إلى حد كبير ما كان عليه

(1) را: الإمام الخميني (رض)، الحكومة الإسلامية، م. س، ص 133.
(2) را: الأشعرى، مقالات الإسلاميين، دار الحديثة، بيروت، (لا ت)، ج 2، ص 125. وقا: مع ابن كثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1989، ج 3، ص 566.
(3) را: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 8، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 225. إن أكثر النصوص المؤرخة التي نقرأها في كتاب المسلمين تلقفها الاستعمار وجعلها مركزاً لسياسات ومخططاته الاستعمارية، وكل هذه النصوص تدور حول محور الطاعة للحاكم مهما كان فاستقا.
التاريخ المسيحي في القرون الوسطى، وإن أي تجديد في النظرية الإسلامية لم يحصل كما يخشى الاستعمار على مصالحه، وكان يكفيه لأجل ذلك أن يتهم فقط مكامن الخلل في الموروثات الإسلامية وما تتحمله للحاكم من حق مطلق في إدارة شؤون العباد والبلاد، حتى يحقق أمانه وأحلامه في السيطرة على بلاد المسلمين، مسلحاً بفتوى الفقهاء لجمع أية ثورة هادفة إلى تحقيق إصلاحات معينة في المجتمع الإسلامي، وقد أشار مالك بن نبي إلى قابلية المسلمين واستعدادهم لقبول ما هو غريب عليهم نتيجة لما هم عليه من خواء، فكري وروحي وثوري (١)، مما سهل على الاستعمار مهمة الدخول والسيطرة، تحت عناوين العلم والحرية وحقوق الإنسان، وأخيراً جاءت الديمقراطية الخاوة لنفترض على ما تبقى من مؤسسات سياسية ودستورية. وهنا تبدو لنا مملوحة هامة جداً، وهي مساعدة المسلمين للمستمرر على إحكام الطوق السياسي والاقتصادي على بلادهم، تماماً كما حصل في بعض البلدان الإسلامية، كالجزائر مثلًا، التي حاولت الخروج من النفق المظلم لليبرالية الغرب، لتدخل في موروث ديني وسياسي لا يقل خطرًا عن الليبرالية الخاوة، بدلاً من صدر من تصريحات وفتاوي تحت عناوين الإسلام، والحاكمية، مما أثار خوف الأقليات الدينية. ودفع بها إلى أن تكون حذرة من المشروع الإسلامي الصاعد (٢)، هذا فضلاً عما أدى به من تصريحات مخيفة بخصوص المسلمين آخرين.

(١) را: مالك بن نبي، شروط النهضة، دار دمشق، (الـ ت) ص١٧، حيث نرى حديثًا مسماً عن ذاءامل الاستعماري والعمل التي تبعها الغرب لطرق أبواب المسلمين.
(٢) انظر: كتابنا، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٩٩٥ م، ص١٧٦ـ٨٨.
فالاستعمار لم يطلع على دور مستقل للفقيه في حياة المسلمين، وأدرك بما لا يدع مجالاً للشك، بأن المؤسسة الدينية كانت ولا تزال محكومة للسلطان، وإن لهذا الأخير حق الطاعة والتأويل والتفسير، وقد مرّت قرون من الزمن، والمسلمون يعيشون هذه الأجزاء، ويربونها، وأدرك أيضاً أن الثورات التي قامت ضد السلطة فمعت وانتهت أمرها، وحكم عليها بالردة والخروج على الدين وإمام الزمان، وهذا كله لم يعط للمستعمار فسحة لكي يحسب حساب لأية ثورة من خارج هذا التاريخ السلطاني، والذي لا يزال حاكماً حتى يومنا هذا في أكثر الحوزات والمدارس الدينية.

كما أنه لم يحسب حساب أن تخرج ثورة ذات أيديولوجية دينية تسمح بإعادة التشكيل السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي في ضوء قوانين الإسلام وأهدافه، فقط هو كان يحسب حساب ثورات معينة تؤدي إليها أوضاع سياسية وإقتصادية واجتماعية ضاغطة، لا تلبث أن تعود الحياة في ظل التنفس الاجتماعي والاقتصادي إلى دائرة السلطة الحاكمة، ومن هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس انطلق الاستعمار في فهمه للثورة الإسلامية في إيران، فهو لم ير فيها خروجاً عمداً، أليفه حياة المسلمين من ثورات وحركات إصلاحية، وعمداً شهده تاريخ إيران نفسها من ثورات ضد السلطة والسلاطات كونه. إضافة إلى أنه لم يخف على المستشرقين وكل من شكل عيناً للإستعمار على طبيعة التحرك الشيعي لقرون من الزمن، ان يبينوا له مضمون النظريات الشيعية التقليدية عن الحكومة والدولة، وكل ما يمت بصلة إلى العمل السياسي والتصدي له، بدءاً من نظرية التقية، وانتهاء بحرمة إقامة الدولة في عصر الغنية، لما يعني ذلك من مصادره لدور ووظائف الإمام المعصوم!
القدس التاريخ الإسلامي حكراً على طائفة أو مذهب معين، وإنما هو تاريخ المسلمين جميعًا، والمسلمين الشيعة في هذا التاريخ باع طويل في التنظير لما ينبغي أن تكون عليه الأمور في ظل أنظمة لجور، حيث أنهم كانوا يرون التعاون معه من باب التفصية فحشة على أنفسهم من الهلاك، ولم يجزوا في كثير من نظراتهم إقامة الدولة والحكومة لما يقتضيه ذلك من ممارسة للولاية العامة على الأنفس والأموال إلى غير ذلك من النظريات التي قرأت بدقة من قبل المتابعين للأحداث على الساحة الإيرانية.

وإذا كانت الساحة الإيرانية قد تميزت بانفصال المؤسسة الدينية والفقهاء عن السلطة والسلطان، ولعبت دورًا مميزًا في توجيه الشعب وإرشاده، فإن ذلك لم يكن يشكي للإستعمار أي قلق بشأن إدارة الأزمة في البلاد الإيرانية، لأنه لم يكن هناك تطور معيّن لمشروع إسلامي مميز في الحكم، وكانت تكفي بعض الألعاب السياسية والدستورية لإخراج الفقهاء من الساحة، وإعادة الأمور إلى نصابها السلطاني، كما حصل في اتفاقية الدستور، التي قادها العلماء، وانتهجت لصالح السلطة الإستبدادية.

مما تقدم نستطيع القول: إن المرتكز الاستعماري لفهم الثورات في البلاد العربية، أو في تركيا أو في إيران، وفي العالم الإسلامي كله، كان واحداً. إذ أنه في الوقت الذي كان يبشر فيه بالقومية والعلمانية في البلاد.

(1) عرفت اتفاقية الدستور 1906 بالشروط، التي استهدفت أن تقيد الشاه الإيراني آنذاك بشروط الدستور، وهي انتقلت في أواخر العام الفارغاري 1315 (1936) ونهض بها علماء الدين من أجل أن يحولوا دون استبداد الشاه غير أن الحركة انحرفت عن مسارها حينما تمخضت عن مجلس نيابي مملوء بنواب عملاء مهملين.
العربية، ويلغي فيه أناتورك الخلافة في تركيا، كان رضا خان يزور تركيا، ويعبر عن إعجابه بالنموذج العلماني الذي اختارته تركيا(1)، وقد نتج عن ذلك انحسار المفاهيم الأخلاقية والمبادئ والقوانين الإسلامية عن حياة الناس، بسبب ما أحدثه النظريات الفقهية والسياسية للمسلمين من فراغ من جهة، وسبب الضغط المتزايد للعلمانية من جهة أخرى، وهذا كله أدى في النهاية إلى استيعاب كل حركات التحرر في البلاد الإسلامية، وخاصة في إيران، التي شهدت الكثير من الثورات الإسلامية، ولكنها كانت تنتهي قبل أن تبلور أي مشروع سياسي يقضي بها إلى الاستقلال، والخروج من عهدة الغرب أو الشرق. والسبب، كما ذكرنا، كان الاحتكام إلى موروثات قومية وسياسية لا تجزي العمل السياسي، وتفوض دعايات الغرب فيما يتعلق بالفصل بين الدين والسياسة. وإذا أتملنا في وصية الإمام الخميني (رض)، فإننا نجد دعوة صريحة إلى إصلاح الهيئات الدينية وتظهير المراكز العلمية من عملاء الغرب والشرق، وطرد فقهاء القصور الذين باعوا دينهم بدناهم غيرهم...

ولا شك في أن عدم تصدي المسلمين لشؤون بلادهم، وتخليهم عن الإسلام فيما ينطوي عليه من دعوة إلى إقامة الدولة ونصب الحكومة،

(1) ان زيارة رضا خان إلى تركيا كانت بهدف اقتباس النموذج العلماني، وكان الهدف من تنصيبه في إيران عام 1925م، ان ينفد في إيران ما نفذه أناتورك في تركيا، لكنه فشل بسبب مقاومة علماء الدين، ومن جملة الأعمال التي قام بها، فرضه السفير الإنجليزي، وإرغام علماء الدين على خلع اللباس الخاص بهم، وهم، بتبديل الحرف العربي في اللغة الفارسية إلى حرف لاتني. وهنا نشير إلى ان نهاية كانت على أيدي أسياده، وذلك حينما فشل في تنفيذ مهمتهم سنة 1941م ومات سنة 1944م.
(2) رأ: الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م. س، ص 132.
أصبح في المجال أمام الاستعمار كي يمكّن الفراع والحاصل بأفكاره وسلعه، وأعطاه المزيد من الفرص لكي يحوّل القرآن إلى وسيلة للتفرقة، وهذا ما أسف له الإمام الخميني (رض) بقوله: «والمؤسس ان القرآن الكريم، الذي يجب أن يكون وسيلة لجمع المسلمين والبشرية، وكتاب حياتهم، أصبح وسيلة تفرقة واختلاف، أو انه هجر كلياً.»

إذن، المركز الاستعماري في فهم وكشف الثورات في بلاد المسلمين، كان يقوم على أساس فهم دقيق لما ينطوي عليه نظريات المسلمين في الدولة والحكومة من جماعة، وعلى ما تسبب به الحكومات الثيوقراطية من مأساة للشعوب الإسلامية، مما كان يضطرب دائماً إلى القبول بأي متنفس من أي جهة أخرى، هذا فضلاً عما تسألت عليه هذه الشعوب من خروج الإسلام من نظرية في الحكم والدولة مخالفتها لما ألفوه من حكومات ودول في تاريخهم، ولو أن المسلمين احتكوا إلى الإسلام جيداً، واستفادوا من تجربة الحكم زمن الرسول، وأمير المؤمنين على سبيل المثال، لا استطاعوا أن يفصلوا بين الدين، وبين تفسير السلطان له، ولا كانوا قدموا للمستعمرين فرصة الغزو الثقافي والسياسي والعسكري. ...

الذين، ولو فروا على أنفسهم عنا الاحتكام إلى الموروثات الفقهية الجامدة، التي ساعدت الاستعمار على تقديم صيد جاهزة للحكم تحت عناوين الديمقراطية، والدستورية، وحقوق الإنسان، وغير ذلك مما يتضمنه الإسلام، ويدعو إلى تحقيقه. ولكن حال دون ذلك وجود سلطات استبدادية، منعت من تأويل نصوص الشورى على نحو يؤدي إلى تداول السلطة، وقيام مؤسسات دستورية.

(1) انظر وصية الإمام الخميني، النداء الأخير، م. س، ص.8.
إن الاستعمار الغربي، وكذلك الشرقي في أوج قوته لم يتوقع أن تأتي الثورة الإسلامية في إيران من خارج الموروث الفقهي والسياسي للمسلمين في تاريخهم، وأكثر ما كان يتوقعه ان تنتهي هذه الثورة إلى المصير ذاته الذي انتهت إليه الثورات السابقة في إيران، وقد يُصَحُ القول: انها ثورة جاءت من خارج تاريخ المسلمين، سواء الشيعي أو السني، الذي قرأ الاستعمار وارتكز إليه في فهم أي تحرّك شعبي في بلاد المسلمين. فالثورة جاءت من تاريخ الحسن عليه الصلاة والسلام الذي كان يُنظر إليه على أنه تاريخ مضى، وأثر جامد، ولم يكن أكثر من مجرد حدث وطريقة انتخابية في التعبير عن موقف اقتضته ظروف وأوضاع المسلمين في ذلك الزمن، ولو أن الاستعمار ارتكز إلى تاريخ الإسلام، وعرف حقيقة ما ينطوي عليه من عبادات وسياسات ومعاملات، لما كان اطمئن كثيراً إلى الثورة الإسلامية في إيران، أو على الأقل لما كان أخذ هذه الثورة بكل أحداثها بجريرة ثورات سابقتها، ولكن كما رأينا، جاء حكمه عليه في ضوء التاريخ والجغرافيا وسيادة الأقطاب والأحلاف، وانقسام العالم بين الغرب والشرق، فأبعد عن مراكز رصده لأحداث أية إمكانية للتخلف عما هو سائد من نماذج رأسمالية وأشكالية، وكانت النتيجة، أن خرجت الثورة، وتبلور مشروعها في ضوء النظرية الإسلامية الكاملة، وعبرت عن نفسها من موقع وسطيتها، بعيداً عن سياسات الغرب والشرق، مما شكل مفاجأة، بل صدمة لكل العالم جعلته يرتبك إزاء ما قدمته هذه الثورة من نموذج للحكم الإسلامي يقابل الغرب والشرق معاً.
ثانيا: الإمام الخميني (رض) وحتمية الحل الإسلامي

لقد وصل المسلمون إلى قناعة تامة في ستينات هذا القرن، بعد فشل النماذج الغربية والشرقيّة في إيجاد الحلول المناسبة لما عرض من مشاكل اقتصادية واجتماعية. الخ، تتلخص بضرورة الاحتكام إلى الإسلام، وتطبيق الشريعة، وإقامة الدولة الإسلامية، وقد قاد مشروع الحل الإسلامي مجموعة الحركات الإسلامية في العالم العربي، وخاصة في مصر، التي شهدت صراعات محمومة بين دعوة الحل الإسلامي، وسائر التيارات الأخرى، القومية والعلمانية، هذا فضلاً عن الصراع بينها وبين النظام الحاكم. وهنا تجد الإشارة إلى أن حتمية الحل الإسلامي طرحت في آفاق وأجواء غير مؤاتية، وفي ظل دعوات متناقضة بين تيارات لا تجتمع على هدف، مما أدى إلى زيد من التعقيدات في أكثر من بلد إسلامي، بل إلى زيد من العنف المتبادل، وكانت نتيجة ذلك اضطراب المجتمعات الإسلامية، وضع الإسلام في مواجهة الشعوب الإسلامية، كما حصل وحصل في الجزائر وأفغانستان، وغيرهما.

1) انظر: فرح موسى، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة عند شمس الدين، دار =
إن ميزة الإمام الخميني (رض) والثورة الإسلامية في إيران، هي أنها
نشدت الحل الإسلامي، كما ذكرنا، من خارج تاريخ المسلمين، وفي
ضوء تبلور مشروع إسلامي للحكم دعمته كافة التيارات والحزب
والمناهج الإسلامية في إيران، وجعلت الإسلام في مواجهة الاستعمار
بشقي الغربي والشرقي، وهذا ما لم يحصل في أي بلد إسلامي.
وإذا كان الاستعمار قد ارتكز في فهمه للشوراة على مروثات
في الفقه والسياسة، واستطاع أن يشح الحوارات الدينية والمراكز العلمية
بدعواته المزيفة للحلولة دون وصول العلماء الأحراء إلى السلطة،
فإن الإمام الخميني (رض) عرف كيف يخرج على هذا المروث في
الفقه والسياسة، ويطرح الإسلام بقوة بكل ما ينطوي عليه من مبادئ
وقوانين، كما أنه بيّن للشعب الإيراني خاصة، وللشعوب الإسلامية
مدى الفرق بين الإسلامي الأمريكي، الذي يعمل على فرضه، وبين
الإسلام المحمدي الذي أثبت قدرته على بث خير آمة في تاريخ
البشرية.
لذا، فإن حتمية الحل الإسلامي في إيران والعالم، لم يطرحها
الإمام الخميني (رض) من فراغ، أو في ضوء ما شهدته العالم الإسلامي من
تجارب سياسية، أو من خلال استغلال فشل النماذج الشرقية أو الغربية،
وإذا طرحها من منطلق أن الإسلام جاء لإسعاد البشرية، ولا بد أن يتدخل
في جميع الشؤون الفردية والاجتماعية والامية والمعنوية والثقافية
والسياسية والعسكرية الاقتصادية، ويشير عليها، فهو، أي الإسلام لم
يهمل شيئاً مما له دخل في تربية الإنسان والمجتمع، ونبه على الموانع

الحادي، بيروت، 1995 م.

154
والمخاطر التي تتعترض طريق التكامل في المجتمع والفرد، وعمل على رفعها.

وما يلاحظ أيضاً من سيرة الإمام (رض) وآرائه حول الإسلام ودوره في قيادة المجتمع البشري إلى الرخاء، هو فقير الإمام (رض) فوق كل المراحل التاريخية، وكل النظريات الفقهية والسياسية الداعية إلى طاعة السلطان مهما كان وضعه الديني، إضافة إلى النظريات التي تحرم الخروج عليه، أو النظريات التي تحرم إقامة الدولة قبل ظهور صاحب الزمان، هذه الدعوات كلها، والتي ارتكز إليها الاستعمار في فهمه لطبيعة تحركات الجماهير، استطاع الإمام (رض) أن يكشف غيوفها، وأن يسلّط الضوء على جوهر الإسلام وما يدعو إليه من حرية وعدالة ومساواة واستقلال وشهادته ووسطية، كما أنه سلط الضوء أيضاً على ما تعج به الحروض العلمية من دعوات لخدمة الاستعمار في العالم الإسلامي كله، وقد وعى الشاه ومن وراءه حقيقة أهداف السيد الخميني (رض)، تحرك أبواق دعابته الدينية والسياسية لتضليل المسلمين وليس الأمر عليهم في مختلف قضايا الدين والسياسة.

ومن مميزات الثورة الإسلامية أيضاً، نرى أنه في الوقت الذي وعى فيه الشعب حقيقة الإسلام المحامي الأصيل، الذي دعا الإمام الخميني (رض) الشعب إلى الإلتزام به، كانت دوائر الاستعمار لا تزال في حالة من أمرها، حيث اعتقدت أن الأمور لا تزال في نطاق السيطرة، وانه يمكن استيعاب التحرك الثوري بمزيد من الشعارات الفضفاضة، ولم تكن تتصور أبداً أن يصل الأمر إلى حد القطيعة مع الغرب والشرق، في

(1) الإمام الخميني (رض)، الوصية التاريخية، النداء الأخير، م. س، ص 26.
زمن كان من المستحيل فيه على أي شعب الاستقلال في جميع شؤونه، والوقوف بوجه ما كان يسمى آنذاك بالجبارين! 

إنها حقيقة ناصعة في تاريخ الشعب الإيراني، وفي تاريخ ثورته، وإذا كنا قد تساءلنا، لماذا لم يتوقع أحد ثورة بهذه السمات والخصائص؟ فإننا نعيد التأكيد على أن عدم التوقع هذا كان ناشئاً من طبيعة الظروف والأوضاع التي كانت تحكم زمن بداية الثورة، فكل دوافع الاستعمار كانت ترى في الثورة مجرد تعبير احتجاجي على سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ولم تكن تدري ما يكون للإسلام من أثر في تحول الشعب جذرياً، باتجاه نشان الحلم الإسلامي، والفكر بكل النظريات والأيديولوجيات التي كانت سائدة في إيران. إن كل ما كان يمكن تصوره في زمن انتصار الثورة من قبل المستعمرين، هو الخضوع مجددًا للحل الرأسمالي/الليبرالي، أو للحل الاشتراكي، نظرًا لهيمنتهما على العالم. 

أما أن تتحول الثورة باتجاه الحلم الإسلامي لتمثل مشروعًا حضارياً مختلفاً عن الواقع الحضاري السائد، فذلك مالما يكن متوعداً، لأن تاريخ إيران، وكذلك، تاريخ العالم الإسلامي كله، لم يسبق له أن شهد مثل هذه الثورة فيما انتقلت منه وعبرت عنه من رؤى وأهداف.

من هنا، فإننا لم يكن متوقعًا أن يتبلور مشروع إسلامي للحكم، ولا الخروج على المواقف الفقهية والسياسية، التي احتكم إليها كل من الشيعة والعشيرة في التعامل مع الحاكم الجائر. والحق يقال: ان المفاجأة لم تكن للمستعمرين وحسب، وإنما كانت للمسلمين أيضاً، حيث أنهم لم يتوقعوا أن تبرز حتمية الحل الإسلامي بهذا الشكل، أو أن تأتي ثورة من خارج النمط الحضاري السائد في الغرب، أو في الشرق.

ولسنا نبالغ إذا ذهبنا الي القول، بأن الحركات الإسلامية في العالم
الإسلامي عادت بعد انتصار الثورة إلى قراءة الإسلام، ومحاكمتها تاريخها في ضوء انتصار الثورة، وعرفت أن الإسلام ليس مجرد دين روحي، أو تعبير صوفي، وإنما هو عقيدة وشريعة ونظام حكم، وهذه العودة إلى الذات والتاريخ، ساهمت إلى حد ما في وضوح الرؤية وعزمت الروح الإسلامية لدى الشعوب، ودفعت بها إلى نشيدان الحلم الإسلامي أسوة بالشعب الإيراني، الذي تجاوز ذاته إلى العالم بما حققه من إنجازات حضارية، وتحقيقات روحية ومعنوية.

إن نشيدان الحلم الإسلامي، والقول بحتميته، لا يمكن أن يكون كيفما اتفق، بل لا بد من اجتماع الشعوب وتوحدها، وذلك يقتضي مزيداً من الوعي والوضوح في الرؤية والهدف، لأن الاستعمار عاد ليقرأ شعوب الإسلام في ضوء المبادئ والشعارات التي رفعتها الثورة الإسلامية، بعد أن تربع لقرون من الزمن على تاريخها الجامد، مستلذاً بدعواتها، ومطمعاً إلى انعدام تشكيكها السياسي والثقافي في ضوء الإسلام، فهو منذ اللحظة الأولى لانتشار الثورة بقيادة الفقهاء، تيقن أن الإسلام الحقيقي ليس ما كتب في التاريخ بأقلاط المساومة والمهندنة والمصنعة والمضارة، وإنما هو ما كتبه الرسل والأنبياء الأولياء، ولم يعد لديه المزيد من الوقت لإطفاء شعلة الإسلام في البلاد الإسلامية، وأدرك أيضاً أنه مثلما كان حاكماً في تعامله مع الفقهاء السلطة، فهو اليوم ماضراً للمعامل مع سلطة الفقهاء، مع فارق وحيد هو أنه في ظل فقهاء السلطة كان حاكماً، أما في ظل سلطة الفقهاء فهو محكوم.

وإضافة إلى ذلك، أن الثورة الإسلامية في إيران، وضعت الأمة الإسلامية كلها وجهاً لوجه مع الاستعمار، خلافاً لما كان عليه الحال في
السابق، حيث كانت الأمة مدجّة من السلاطين، ومغلوبة على أمرها، وموطوعة في مواجهة نفسها، ومما لم يكن يتوقعه الاستعمار أيضاً، أن تتحول حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين إلى كرة من اللهب في وجه الصهاينة، وأن تتحول المقاومة الإسلامية في لبنان إلى كابوس على صدر الصهاينة، كما أنه لم يكن متوقعاً أن تتحول الثورة الإسلامية في إيران إلى مركز جذب لكل الشعوب المستضعفة في العالم.

غاية القول: إن امتداد الثورة الإسلامية بكثير من الخصائص والسمات، جاء نتيجة طبيعية لوعي الشعب الإيراني وتشكله في ضوء تعاليم ومبادئ وقيم الإسلام، وأي شعب في العالم يدرك ماهية قوانين الإسلام، لا بد أن يدفع به إدراكه إلى طلب الحرية والعدالة والاستقلال. وبما أن الشعب الإيراني كان سباقاً إلى ذلك، فلا بأمس أن تقني بيه الشعوب، وترسم لنفسها خطأً وسطاً في سياساتها وعلاقاتها، من منطلق أن الأمة الإسلامية هي أمة الوسطية والشجاعة.

كان المتوقع للثورة الإسلامية في إيران، أن تنحصر داخل حدودها، فلا تتسوها إلى الخارج، ولكن عالمية المبدأ الذي انطلق منه، والذي هو الإسلام، جعله تضيق بكل أطر القومية والعنصرية والعرقية، وتسع لكل المبادئ والقيم الإنسانية، باعتبار أن الإسلام عالمي في كل ما يدعو له، ودولة الإسلام لا بد أن تذوب فيها فوارق الأجناس والوطن والألسنة، حيث يوجد بين أبنائها الإمام بالله تعالى خالق الكون والإنسان، وغير خفي على أحد أن عالمية الدولة الإسلامية ومبادئها، وكذلك حضارتها لا تنحصر بالمسلمين وحدهم، وإنما تتعادهم إلى سائر الأمم والشعوب، كونها منطقة من طبيعة الإسلام، باعتباره رسالة لكل الناس، إضافة إلى كون هذه الرسالة هي الأطروة النهائية في سلسلة
أطرافات الحياة لمسيرة التكامل الإنساني، حيث قال تعالى: {يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً*} (1).

وهنا، نرى أن ما عرف بتصدير الثورة الإسلامية، لم يكن يعني إطلاقاً تجاوز هذه الثورة، ومن ثم الدولة الإسلامية لذاتها مادياً، بحيث تنقل نموذجها، وتتداخل في شؤون الآخرين، وخاصة المسلمين. ففرض النموذج الحضاري الإسلامي عليهم (2)، بل يعني تحول النموذج الإسلامي في إيران بجميع محاسنته إلى مركز جذب، ومثلت أنظار، بعد أن تثبت الثورة، ومن ثم الدولة بالتجربة العملية أن الإسلام نظام حياة يتمثل في مؤسسات سياسية وفي نهج حضاري، يُنشئ الأمة الشاهدة، والأمة الوسط في سياساتها وحضارتها ونمط حياتها. إن ما لم يكن متوقعاً عند المستعمرين هو هذا، ان تتحول إيران إلى نموذج عالمي يظهر بدوره وفعاليته ونمط ترجمته هشاشة وضعف كل ما شهده العالم من نماذج اشتراكية ورأسيمائية، بحيث يكون الإسلام هو النموذج الأول والأخير في حياة الشعوب.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 158.

(2) هناك فرق كبير بين تصدير الثورة، التي هي ملك لجميع المستضعفين في العالم، وبين تصدير النموذج، نموذج الدولة الإسلامية، الذي هو الميزة الحيوية الأساسية لخط الإمام الخميني (رض) والمحور الذي تمحور حوله ويعمل في خدمته كل الميزات الأخرى.
ثالثاً: حجمة الثورة وخسارة الرهان

بعد مرور عقدين من الزمن على انتصار الثورة الإسلامية في إيران،
نرى أن الثورة بكل إنجازاتها لا تزال حية ومتوهجة، ولم تؤثر على نموها
كل العقبات التي وضعها الاستعمار في طريقها. فهي متميزة، كما نعلم
من حيث كونها ثورة كل الشعب الإيراني بكافة مذاهبه وتياراته، وليس من
السهل والممكن أبداً أن تتراجع الثورة ما دام الشعب الإيراني مجمعاً على
متابعة الطريق حتى تحقيق الأهداف المشروعة.

فالاستعمار خسر رهانه على سقوط الثورة، بعد أن كان يظن أن لديه
من الوسائل والامكانيات ما يكفي لاستيعابها والاستفادة منها إلى أقصى
الحدود في مواجهة المد الشيوعي آنذاك، لأنه لم يكن يتخيل أبداً أن تأتي
هذه الثورة من خارج النمط الحضاري السائد، أو أن تتبلور لدى شعب
إيران رؤى وأفكار ومشاريع من خارج المنظومتين الرأسمالية
والاشتراكية، باعتبار أن طبيعة الأحلاف التي كانت قائمة، والهيمنة
الاستعمارية على العالمين العربي والإسلامي من خلال وجود قواعد
عسكرية في البلاد الإسلامية، لا سيما في إيران وتركيا، كل ذلك كان يدفع
بالغرب والشرق معاً إلى استبعاد أي لون من ألوان الاستقلال، لأي بلد من البلدان الإسلامية، وهنا يمكن أن نطرح السؤال التالي: لماذا لم يتسنى السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟

في الإجابة على هذا السؤال، لا بد من الإشارة إلى أن هناك جملة معطيات تكونت لدى المستعمر، وخاصة الولايات المتحدة، وحالت دون التفكير جدياً فيما يمكن أن تؤول إليه حركة الشعب الإيراني من استقلال وتحول جذري نحو الإسلام، وبالتالي، لإقامة الحكومة الإسلامية، ومن جملة هذه المعطيات، أن الغرب، تحديداً، استطاع في خلال فترة هيمته، أن يسوس لمشروعه في إيران بالاعتماد على نخب وطاقات في المجتمع والدولة، ولم تكن الجامعات والحوزات العلمية بعيدة عن بريقه، وضاف إليها ذلك مؤسسات الحزب والقوى الأممية وأجهزة كثيرة أخرى كانت كلها تحت وصايته.

فالمعطى الأول الذي كان يملكه الغرب، هو أن إيران بحاجة إلى كفاءاته العلمية والإدارية والفنية، في مجال النفط والطيران، وأوجه التسلح كافة، هذا فضلًا عن الحاجة إليه في مجالات أخرى، من قبل الأمن والسياسة الخارجية والدفاع في مواجهة النموذج الاشتراكي، وهذا المعطى لا تزال أكثرية الدولة العربية والإسلامية تنظر إليه بواقعيّة تامة.

المعطى الثاني الذي كان يملكه الغرب، هو أن إيران سبق لها أن شهدت ثورات كثيرة نتيجة لعوامل اقتصادية واجتماعية، ولكن دائماً كان يتم استيعابها بطرق وأساليب مختلفة سياسية وعسكرية، ودبلوماسية مرتكزة إلى شعارات واهية حول الديمقراطية والحرية، والدستورية، وما إلى ذلك، وفي أجواء هذا المعطى تدخل أيضاً المسألة الدينية، ودور فقهاء الدين في إيران، حيث أن الثورات كلها كانت بقيادتهم، ولم يتصدّ أحد
منهم للعمل السياسي وإقامة الدولة(1)، بل كان يقتصر دور الفقهاء والمراجع الكبار على الفتيا والقضاء وتأديب السلطان في حدوت القدرة على ذلك، كما حصل في ثورة التبادل، وثورة الدستور، وثورات أخرى، خلت شعاراتها وعناوينها من إقامة الحكومة الإسلامية، ولعله من المفيد القول، بأن التجربة الدينية الثورية في إيران، قد كشفت للمستعمرة حاجة الفقيه للسلطان، وليس العكس، بلدبل ان التجارب كلها في تاريخ إيران، وتحديداً في العقود الثلاثة، الصفوي، القاجاري، البهلوي، لم تؤدي إلى تصدي الفقيه لشؤون الدولة إلا في حدود ما كان يرغب السلطان به، وهذا ما يمكن استفادة أيضاً مما ذكره الشيخ رفسنجاني من أن أمريكا كانت تحسب أن دور علماء الدين لا يتجاوز تنمير الناس عبر النصيحة، ولا يمكنهم أن يؤدوا دورهم دائماً...

إن أحداً لا يمكنه أن يتجاوز الحسابات الأمريكية في بداية الثورة، والتي كانت نتيجة لأبحاث ودراسات نظرية وميدانية استغرق القيام بها زمناً طويلاً، لأن عدم التجارب يسمح لنا بالتساؤل عن الأسباب التي كانت تدفع

(1) هناك مروحة فقهية لا يضاهيها يمنع من العمل السياسي، ويرى في إقامة الدولة، أو السعي لإقامتها حرة شرعية، وقيل هو عدد الفقهاء الذين قالوا بوجود السعي لإقامة الدولة، ومنهم من قال بجواز ذلك. وقد رأينا في أبحاث سابقة أن الفقهاء الذين قادوا الثورات في تاريخ إيران، لم يكونوا بوارد إقامة الدولة الإسلامية، وب굴ب الحكومة. وكلما كانوا يهدفون إليه هو تقوية السلطان بالدستور ومجلس فقهاء لمرافقة القوانين، وهذا أدى بالثورات التي أن تنجح في البداية دون أن يكون لديها أي أفقت استراتيجي، مما كان يسهل على السلطان القيام بعملية التواضع على الفقهاء والثورة لتكون في صالحه.

(2) انظر: رفسنجاني، هاشمي، خطبة الجمعة، كتاب الثورة الإسلامية، عقبات ومكاسب، مركز أعلام الذكرى الخامسة لانتصار الثورة الإسلامية، طهران، 1404، ص 12.
بأمريكا، وفق حساباتها، إلى الاعتقاد بأنها ستعود بسرعة إلى إيران لبسط نفوذها مجدداً بعد الثورة، وكما يقول رفسنزاني: "إن أمريكا، وفق حسابات معينة، كانت تعتقد أن الثورة لم تخسرها شيئاً، وأن هناك مجموعة أشخاص جاءوا على هذا النحو الفوضوي، وحصلوا على هذه النتائج والمراكز"(1).

أما إذا تجاوزنا الحسابات الأمريكية والاستعمارية عموماً، والتي كان يحتكم إليها في التعامل مع الثورة، فإننا لن نستطيع التعرف إلى أسباب كبيرة حالت دون السيطرة على الثورة بعد اندلاعها وانتصارها، كما أن من شأن ذلك أن يحول بيننا وبين سؤال، لماذا كانت الحسابات الأمريكية تؤكد أن أمريكا ستعود إلى السيطرة على الثورة في إيران!

ووفقاً لما تقدم، نحن نرى أن أمريكا ارتكزت إلى موروثات التاريخ الإيراني، وتجاربه الدينية والسياسية، ولم تكن تدرك أن دور علماء الدين يمكن أن يتجاوز هذا المرووث، أو أن تندفع الروحانية الصافية باتجاه إقامة الحكم الإسلامي على أساس ولاية الفقيه، فأمريكا، كانت غرباً تماماً عن حكم الفقهاء، وعن مبدأ أن الفقهاء حكام على الملوك، فهي قرأت عن الفقهاء، وتجاربهم مع السلطة وصراعاتهم معها، سواء في عصر النفوذ الروسي، أو عصر النفوذ الإنجليزي، أو في عصر النفوذ الأمريكي، ولم تجد في هذه التجارب والصراعات أفكاراً وآراء تشبه أفكار وآراء الإمام الخميني (رض) (2).

---

(1) م. ع، ص. ن.
(2) بعبارة واضح: أمريكا في حساباتها، وقبل ذلك في دراستها عن إيران وما شهدته من نتائج، واء، كانت تملك فكرة واضحة عن حدود الثورة الدينية، وما يمكن أن يقوم به الفقهاء من دور في الحياة السياسية، ولم تكن تملك أفكاراً، ولو =
لقد اطمأنت أمريكا إلى الثورة، واعتبرتها مجرد احتجاج على أوضاع وظروف اجتماعية واقتصادية، ورأت شعاراتها الدينية لا تعدو أن تكون وسيلة لتحقيق بعض الإصلاحات الإدارية والسياسية وغير ذلك مما كانت تنتهي إليه ثورات سابقتها في الاحتجاج، ولكن الأمر لم تكن كذلك إطلاقاً، والاطمئنان الأمريكي، لم يكن في محله، إضافة إلى أن الحسابات هي أيضاً لم تكن دقيقة، وأسباب ذلك برأينا، هي ان الإدارة الأمريكية لم تأخذ بالحسبان وجوه أخرى للتجارب الدينية والسياسية في إيران، وأغلقت في دراستها ومن ثم في حساباتها جانب استقلال المؤسسة الدينية ودورها الفعال في صياغة وتأليف الأفكار السياسية المناسبة تماماً لطبيعة التشكيل الديني والثقافي للمجتمع الإيراني، كما انها أغلقت جوانب كثيرة، منها ما يتعلق بالشعب الإيراني وتجاربه الرائعة والناجحة في مواجهة السلطان، ومنها ما يتعلق بوعي الشعب وقدره على تجاوز إخفاقاته، لأن الإنسان لا يلدغ من جحر مرتين، وينصبه إلى ذلك كله ما يتعلق بالجانبين الأهم في الحياة الإيرانية، ويعني به دور الفقهاء، والمؤسسة الدينية عموماً، في بلورة مشروع إسلامي للحكم بحفظ منجزات الماضي، ويعسس لحياة دينية وسياسية مستقلة عن الشرق والغرب معاً.

بسيلة، عن أي تحول جذري في الرؤية نحو إقامة دولة على أساس ولاية الفقيه، وكثيراً ما عبر عملاء الاستعمار في إيران عما كانوا يحسونه، حيث رأوا أن الإمام قاد الثورة وانتصر، وعاد إلى قم، بل كانوا يصرحون على بناء الإمام في قم وان لا يعمل أي عمل مطلقًا، وكلنا يذكر تلك الثورة على مادة متعلقة بولاية الفقيه، فتجه عماة دين ورجال سياستنا ليعملوا فتاوى ترفض المادة وتعتبرها نوعاً من الديكتاتورية. غاية القول: إن أمريكا أدركت مع انصار الثورة أن الحسابات ما قبل الحميسي شيء، ومع الحميسي وبعد شيء آخر.
إن إغفال هذه الجوانب في الدراسات الأمريكية، ومن ثم في الحسابات، أدى إلى أن تكون أمريكا الخاسرة الأكبر في انتصار الثورة الإسلامية، بعد أن كانت تعتبر نفسها الكاسب الأكبر نظراً لظروف وأوضاع كثيرة كانت تحتضن أن يكون الأمريكا الحظ الأوفر في العودة إلى إيران، كون الثورة وفقاً لحساب الغرب، لا تملك مقومات البقاء الضرورية (الجيش، الشرطة، الحزب، التشكيلات الإدارية، المدارس، التنمية الإدارية، الأفراد الفنيين. (1)

لذا، فإن السؤال، لماذا لم يسن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها؟ تبقى الإجابة عليه رهن فهم ما كانت ترتكز إليه الحسابات الأمريكية، ومن ثم طبيعة التغييرات التي طرأت على الساحة الإيرانية، وجعلت الحسابات الأمريكية تخطى هدفها، وتعكس على مصالح أمريكا بالسلبية المطلقة، وبالضرر الفادح، الذي لم يسبق لأمريكا أن تعرضت له منذ زمن طويل.

هناك جملة أسباب تكمن وراء عجز أمريكا عن السيطرة على الثورة بعد اندلاعها، منها، أن أمريكا ومن بدور في فلكها عجزت عن استيعاب التحرك الشعبي في إطار مشروعها، لأنها وجدت نفسها أمام معطيات دينية وسياسية مختلفة، كما كانت تتصور وتبني حساباتها على أساسها، فهي في الوقت الذي كانت ترى الفقية فيه مستقلًا عن السلطان، أو تابعاً له في العهود الماضية، نظرت، فإذا بها أمام سلطة الفقية وقيادته لدفع الحكم في إيران، وهذا الأمر بحد ذاته شكّل مناطقاً خطيرةاً، سواء في الحياة الإيرانية، أو في نظرة الغرب إليها، وأدى إلى أن تكون أمريكا، بل الغرب والشرق معاً في بوتقة واحدة لقراءة الحدث ومتابعته، ومعرفة مفاعيله في مقارنتها.

(1) الثورة الإسلامية، عقبات ومكاسب، م. س. ص 13.
الداخل والخارج، إذ أنه لأول في تاريخ إيران والعالم الإسلامي، بعد انهيار مؤسسة الخلافة في تركيا، تظهر ملامح المشروع الإسلامي للحكم في وقت كانت فيه أمريكا تملك بعض المعطيات عن انهيار المنظومة الاشتراكية، وقد فقدها لحكم العالم بانسحابها الليبرالي، ولكنها كانت محبوبة في ذلك، وقرودة في كل ما كانت يعد نفسها له من ليبرالية وعولمة نظام عالمي جديد، حيث أظهر الإمام الخميني كفاءة عالية في فهم الحسابات الأمريكية، وفي كشف مخططاتها، بدلاً من حذر الزعيم الروسي آنذاك كورباتشوف من السقوط في الرأسمالية وواعداً إياها بأن الرأسمالية ستخلق المصير نفسه الذي لاقيته الشيوعية والمنظومة الاشتراكية.

وهكذا، بدأت منظومة الغرب تتعرف على شيء جديد في عالم المسلمين، لتشبه القرون الوسطى المسيحية والإسلامية، ولا يتبني نظرية سائدة في الغرب أو الشرق. وهذا الشيء الجديد هو الإسلام، الذي عملت أمريكا ولفترات طويلة من الزمن من أجل تحريفه وتشوييهه حتى لا يشكل في يوم من الأيام نموذجاً، أو أطروحة حيّة تلتها إليها الشعوب الإسلامية لفك أسرها، وتحقيق استقلالها...

ولنا شك أيضاً في أن تغير الحسابات، وتبدل الاتجاهات، لم يدفع بأمريكا إلى حافة اليأس، بحيث تمنع عن محاولاتها للسيطرة على الثورة ومنها من تحقيق أهدافها المستقلة عن الغرب والشرق، وكان من جملة محاولاتها المباشرة (1) حجز الأموال في أمريكا، وبدأ الحصار...

(1) كانت لأمريكا محاولات غير مباشرة للنيل من الثورة، تنكرت إلى قواعدها في الجامعات، والحوزات العلمية، إضافة إلى ما سئطه في الجيش من عناصر سيدة حاولت القيام بانقلابات عسكرية، ولا ينوي عن بالنا أيضاً تفجير مبنى الحزب =

166
الاقتصادي، إضافة إلى الانقلاب العسكري في فوجه، وتلك الحملة الفاشلة في طبس، وهذا كله كان عملاً رسمياً من قبل أمريكا.
ولما لم تنجح هذه المحاولات كلها، المباشرة وغير المباشرة، للسيطرة على الثورة، أو على الأقل لتحقيق وجهة سيرها، بحيث تكون مضبوطة الحركة والتوجه، فقد بدأ الاعداد للاعتداء العراقي، الذي كان قد حان وقته لضرب الثورة، والعودة بها إلى ذلك الغرب، وكان العدونان الذي استمر ثمانية سنوات، ولم تفلح كل مساعي الغرب والشرق في ضبط إيقاع التحرك الثوري في إيران، وكانت النتيجة أن ظهرت إيران من الحرب، بل وفي أثنائها أيضاً، على خلاف كل ما كان يتوقعه الغرب والشرق، حيث ازدادت قوة ومناعة وعزمها وإصراراً وتمسكاً بمشروعة الإسلام، وسبب هذه الحرب انكشفت للعالم كله، وللمسلمين خصوصاً ما هي هذه الثورة وعظمة القائمين بها والمدافعين عنها، ومن جهة مقابلة انكشف البرقع عن تزوير أكثّر العالم على حد تعبير السيد الخميني (رض)، وتميز العدو من الصديق، والظلم من المظلوم، والمحقق من المبطل...
إن الحرب التي أعلنتها أمريكا بواسطة عمالاتها في المنطقة على الثورة الإسلامية، واعتقدت بأنها ستكون بمثابة الضربة القاضية لها، كانت نعمة لهذه الثورة حيث أنه في كل يوم من أيام الحرب، كانت هناك بركات تلمس آثارها في مختلف الميادين، هذا فضلاً عن ما أدت إليه الحرب من تعميق وترسيخ الجذور الإسلامية للثورة(1)، وهذا ما أوضحه الإمام الخميني (رض) بتصريحات واضحة، حيث قال: "في الحرب صدرنا ثورة لنا?

(1) م. ع، ص. ن.
للعالم، لقد كان من نتائج حربنا تحرير أفغانستان، وسيكون من نتائج حربنا تحرير فلسطين.

كما أنه لا تخفي المحاولات الكثيرة التي بذلها الغرب والشرق لإخضاع الثورة إلى مراقبته وصاصhibه، سواء عن طريق التآمر الداخلي عبر معتوهين ومقدسين بلهاء على حد تعبير الإمام، أو عن طريق اتفاق الأزمات الخارجية لإيران، كما حصل مؤخرًا في أفغانستان اثر مقتل الدبلوماسيين الإيرانيين بهدف تزوير إيران في الأزمة الأفغانية، إضافة إلى التلاعب على أوتار الطائفية والمذهبية للحيلولة دون اتفاق إيران مع جيرانها العرب، حيث نجد دائماً إصراراً أمريكيًّا على تصوير إيران بالصورة المعادية للعرب بهدف الإبقاء على حالة التوتر، ولكن بحمد الله قد تم تجاوز كل هذه المحن، وأدرك العرب أن إيران لا تعد نفسها للدخول في أية أزمة مع جيرانها، وهي إنما تسعى دائماً لحماية الأمن الإقليمي، والدفاع عن المصالح المشتركة لشعوب المنطقة، وإقامة علاقات حسن جوار؛ ومعاهدات دفاع مشتركة فيما لو لزم الأمر ذلك، لأن الخطر الحقيقي على العرب والمسلمين كانت في تواجد القوات العسكرية الأجنبية في مياه وعلى أرض دول المنطقة العربية والإسلامية، وفيما تمارسه إسرائيل من عدوانية ضد شعوب المنطقة.

فالمشروع الإسلامي خرج إلى دائرة النور، وانكشفت للغرب والشرق إمكانيات الشعوب وقدراتها على تحقيق ذاتها، وإذا كانت إيران وحكومتها الإسلامية قد أظهرت قدرات فائقة على الصمود والمواجهة لكل المؤامرات الداخلية والخارجية، فإن ذلك لا يعني، بأي شكل من

(1) م. ع، ص. ن.
الأشكال، أن إيران أصبحت في منأى عن الخطر، وأنها هي لا تزال في
عين الاعصار، مما يقتضي دائماً الحذر والتنبيه والتصدي الدائم لكل
محاولات الغرب، وقد رأينا مرارًا كيف توجه أصابع الاتهام لإيران في
دعم الحركات المناوئة للاستعمار في العالم لغاية خبيثة. ولعلنا لا نخطئ
في قولنا، إذا زعما أن إيران بانت في موقع عالمي يضاعف من
مسؤولياتها، ويرفع من درجة تهيؤتها، كما أنه يمنحها فرصة التعبير عن
نفسها وتحقيق ما تنشده من عولمة في إطار القيم والمبادئ والأهداف
الإسلامية، إضافة إلى الدفاع عن نفسها ضد أية محاولة استثمار خارجية
مهما كان نوعها، وفي أية صيغة أنت، وتحت أي شعار رفعت.

إن إيران والثورة الإسلامية، والحكومة الإسلامية، لا تزال عرضة
للتأمر، وستبقى كذلك، ما دامت على نهجها الإسلامي الأصيل
وأطرابتها الحضارية المميزة، وما دامت أخذت على عاتقها نصرة قضايا
المستضعفين والمحرومين في العالم. وبما أن إيران استطاعت الصمود
في وجه مؤامرات الخارج والقضاء على أبواقها الداخلية، فإن ذلك لا
يعني أبداً من مسؤولية القيام بالواجب دائماً لحماية هذه الثورة والدفاع
عنها، لأن أكلا العالم لن يكتوا، وسنرى في جميع العالم من يستهدف
أسود الروحانية المرافحين للغرب والشرق المتسمين بأصول الإسلام
المحمدي الأصيل على حد تعبير الإمام الخميني (رض) (1)، وإن أكثر ما
يمكن أن يصل إليه الاستثمار في محاولاته ومساعيه الجادة للنيل من
الثورة، هو استغلال بعض منافذ الضعف في داخل إيران لتوتير الأجواء،
وشحن النفوس بالبغضاء، وقد رأينا مؤخراً كيف أن أبواب أمريكا
وإسرائيل، اثر الأحداث الطالبة الأخيرة، أعلنت بصراحة ووضوح

(1) انظر: الإمام الخميني (رض)،النداء الأخير، الوصية، م. س، ص 28.
حرصها واهتمامها، ومن ثم عادت لتؤكد على أن ذلك شأنًا داخلياً، وتكتفي بمراقبة الأحداث، رغم أنها في البداية لم تعتبر ذلك شأنًا داخلياً، وإنما أدخلته في دائرة الحرية وحقوق الإنسان !

وهنا يبدو لنا ملحًا التساؤل عما يمكن أن يهدد إيران من أخطار، فنسأل، هل يوجد في الخطاب السياسي والديني للإمام توضيحات بشأن ما يمكن أن يعرض للثورة من أخطار؟

وكيف يمكن السيطرة على الثورة الإسلامية بعد انتصارها؟

أسئلة كثيرة لا بد للباحث في الشؤون الدينية والسياسية أن يلاحظها في سياق حديثه عن الثورة الإسلامية، لأن أي ثورة لا بد أن تصاب بالنكسة فيما لو تهاونت بما كان سببًا في اندلاعها، ومن ثم في انتصارها؛ والثورة الإسلامية، وإن كان لها ما يميزها عن سائر الثورات، فلا بدّ أنها ستكون مهددة، إذا لم يستمر الشعب على وعيه بجلمه المبادئ والأهداف التي قامت الثورة من أجل تحقيقها، وعلى تمسكه بالدافع الإلهي، الذي هو سر النصر والبقاء (1)َ.

وانطلاقاً من ذلك، فإننا نجد الإمام الخميني (رض) يسلّط الضوء على جملة عوامل من شأنها فيما لو حصلت أن تعرّض الثورة الإسلامية لنكسات قد لا تحمد عقباه.

يقول الإمام الخميني (رض) : «إذا أردتم أن يستقر الإسلام وحكومة الله، وأن تقطع أيد المستعمرين والمستغلين الداخليين والخارجيين عن بلدكم، فلا تضيعوا هذا الدافع الإلهي الذي أوصى به في القرآن الكريم».

(1) انظر: الإمام الخميني (رض)، النداء الأخير، الوصية، م. س، ص. 28.
وفي مقابل هذا الدافع الذي هو سر النصر وسر بقائه، نسيان الهدف والتفرقة والإختلاف ...

إن مؤسس الجمهورية الإسلامية، وقائد الثورة يركز في هذا النص على ضرورة بقاء الوحدة، عملا بقوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا). فالثورة انتصرت بوحدة الشعب، واجتماعه على كلمة الحق، وستقرأ الأجيال، بحسب السيد الخميني (رض)، ان الدافع الإلهي ووحدة الكلمة هما سر النصر، فإذا تفرقت الكلمة، ووصلت الأمور الى حد التنافس في الآراء والمواقف، فإن ذلك مما يسهل على المستعمرين الفوذ إلى البلاد مجددًا، باعتبار أن ذلك نتيجة طبيعية لاختلاف الأهواء والتجزئة والتفرقة، وقد أجمع المتصدون للشأن الدين والسياسي في العالم الإسلامي، على أن السبب الرئيسي في فقدان الوسطية في العلاقات، وفي تمكن الاستعمار وهيمته على بلاد المسلمين وثرواتهم، هو التجزئة وانعدام الوحدة، وهنا تجد الإشارة إلى أن أمير المؤمنين ولكنه عانى ما عانى من تفرق الناس عن حقهم، ومن جملة ما قاله في هذا المجال: (ولله يد الخلق ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفريقهم عن حقهم)

إن ذهاب الريح، إنما يكون حينما يتفريق الشعب، وينقسم على نفسه، وهذا قانون إلهي وسنة حاكمة في كل اجتماع بشري، فلا انتصار مع تشتت القلوب والعقل، ولا هزيمة مع التوحد، وإن شيئًا في الساحة

م. ع، ص. ن.
(1) سورة آل عمران، الآية: 103.
(2) الإمام علي، نهج البلاغة، الخطبة: 27.
(3) قال تعالى: (ولا تنازعوا فتفشوا وتذهب ريحكم). سورة الألفف: الآية: 46.

171
الإيرانية لم يتغير، فالأعداء لا زالوا هم الأعداء، والحكومة الإسلامية لا زالت هي الحكومة الإسلامية، والمؤامرات الداخلية والخارجية لا تزال تناك للثورة، فإذا كان الشعب قد أحب قائد الثورة ومؤسس الجمهورية الإسلامية، فإنه لا ينبغي ليك فيه أن يرتاب، أو أن يضعف، أو غير ذلك مما قد يؤثر على حركته الثورية، بل عليه أن يضاعف من تمسمه وقوته لإبقاء الثورة على خطها الجهادي، والدولة الإسلامية على برامجها لتحقيق التقدم المطلوب(1).

إذن، العامل الأول، الذي يهدد الثورة والدولة هو التجزئة، ونضال الهدف السامي والاختلاف، أما العامل الثاني، فهو ما أشار إليه الإمام (رض) في وصيته تحت عنوان مؤامرة الفصل بين الحوزة والجامعة، كونه سبق للاستعمار في زمن رضا خان، ومحمد رضا بهلولي، أن عملاً بأساليب مختلفة، لإيجاد العداوة بين الجامعيين والروهانيين، والأسف، كما يقول الإمام (رض) فقد حققت هذه المؤامرة نتيجة ملحوظة بسبب غفلة الطرفين عن هذه المؤامرة الشيطانية للدول المتجمرة(2).

فالإمام (رض) كما نعلم جميعاً، استطاع بمجهودات لا مثيل لها أن يوحد بين الجامعيين والروهانيين، وأن يجمع كلمتهم باتجاه هدف واحد، وقد شكل ذلك صفعة قوية للمستعمرين وأعوانهم في الداخل،

(1) الإمام الخميني في وصيته أشار إلى ركنتين أساسين سباً انتصار الثورة، هما: الداعف الإلهي، والهدف السامي للحكومة الإسلامية، والشعب انصهر باجتماعه حول هذا الداعف وهذا الهدف، مما يعني ضرورة الحفاظ على الحكومة الإسلامية.

(2) را: الإمام الخميني، النداء الأخير، ص. 49.
لأن الإمام (رض) بتوحيده بين الطلاب والعلماء أخسرهم موقعًا مهماً كانوا يستغلونه للتأマー على الثورة الإسلامية، وخصوصاً في الجامعات (1).

فالحوزة والجامعة، بحسب الإمام، هما العقل المدير للأمة، والوأن الإمام لم يعتُم المزيد من الاهتمام بهما لما كان من الممكن أن تنحصر الثورة، باعتبار أن الأجيال التي تقود وترسم الخطط، وتكشف المؤامرات وتواجهها، وتجادل في ميدان الدفاع عن الثورة، موجودة في الجامعة والحوزة، وعقد التفاهم والمحبة الذي أقامه الإمام بين الجامعيين وطلاب العلوم الإسلامية، انعكس إيجابًا على أوساط الشعب، وكان له الأثر الكبير في مجريات الأمور والأحداث. وهذا التفاهم بين الحوزة والجامعة، بالتأكيد، لم يوجد الأمساق بينهما، بحيث يكونوا رأباً واحدًا، وسليمة واحدة، وإنما أجاز الاختلاف في السلالات والفهم والاستنتاج في حدود الفرعيات والتفاصيل، دون أن يتعادل إلى المبادئ العامة والأهداف المقدسة للشعب الإيراني، بمعنى آخر، ان الاختلاف في الرأي والتعبير هو مجاز في إطار وحدة الأمة، وما يحفظ كيانها المستقل، وتزوّع الآراء في خدمة الثورة الإسلامية، لأن أي اختلاف يؤدي إلى التناقض، من شأنه أن يخدم المصالح الاستعمارية، وبالتالي، فإنه لن يكون مبرراً تحت أي عنوان وطني أو إسلامي، فلن يكون سياسي، أو غير ذلك من العناوين، التي غالباً ما يُسلّح بها للنيل من الثورة (2)، وقد لحظ الإمام هذه الحقيقة

---

(1) م. ع. ص 49.

(2) لقد تساؤل الإمام الخميني (رض) في معرض حديثه عن الاختلاف المدمر، فقال: «إن شاء الله ليس هناك اختلاف بين جامعه المدرسين والطلاب الثوريين، وإذا كان فعلمهم على المباديء أم على السلالات. وخلص إلى القول: بأن الاختلاف مدر، بأي شكل كان، وعندما نصل القوى المؤمنة بالثورة إلى التخصص ولو باسم الفقه القديم والفقه المتجدد فإن ذلك سيكون بداية فتح طريق .
بقوله: "وتمتاز المؤامرات في الجامعات بعمق خاص، وعلى كل من الشريحتين المحترمتين، اللتين هما عقل المجتمع المفكر، أن يحذروا المؤامرات".

لقد بعيّن الإمام (رض) في وصيته السياسية نقاطاً هامة، من شأن التأمل بها والإلتزام بمضامينها، الاهتداء إلى سبيل مواجهة كل ما يمكن أن يعرض للثورة والدولة من أخطار، ولا ينبغي أن يسمح للمقرين في مجال السياسة والفكر أن يقدموا تأويلات جديدة للإسلام وما ينبغي أن يكون عليه في التعامل مع قضايا المجتمع والدولة، فالإسلام هو الإسلام، نظرية كاملة على المستوى النظري بشهادته قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"، وبما أن الثورة الإسلامية انتصرت، يعرف الشعب سر النصر، وارتكزت إلى ما بيّنه الفقهاء الأعلام في مجالات الدين والسياسة، فلن يكون هناك ثمة حاجة إلى فلسفيات جديدة، يهدف أصحابها إلى إظهار مرونة الإسلام وسماحته في معالجة ما يستجد من قضايا وأحداث.

ليس المطلوب بحسب ما نفهم من كلام السيد الخميني (رض) إعادة تفسير الإسلام على نحو يرضي الغرب أو الشرق، أو هذا الفيلسوف أو ذاك، باعتبار أن الإسلام سمح في ذاته، والمرونة إنما تكمن في الأخذ بالإسلام كما وضعه وفسره لنا الرسول الصدّيق ﷺ، والأئمة الأطهار، وكما تجلى في الآثار المباركة كالكتاب الأربعة والكتب الأخرى للمتقدمين.

(1) را: الإمام الخميني، النداء الأخير، م. ص 53.
(2) سورة المائدة، الآية: 3.
(3) را: الإمام، الوصية، النداء الأخير، م. ص 49.
والمتآخرين في الفقه والفلسفة والرياضيات والنجوم والأصول والكلام والحديث والرجال والتفسير والأدب والعرفان واللغة، وسائر الاختصاصات العلمية المتنوعة (1).

وهذا لا يعني الجمود، أو التقليد، وإنما الاجتهاد في إطار ما تساملت عليه الحوزات العلمية، وارتكزت إليه من طرق خاصة في البحث والاجتهاد. أما أن يلجأ بعض المتقدمين أو المتفclfين في الجامعة أو في الحوزة إلى أساليب جديدة في ضوء ما يعج به العالم من أساليب ومناهج لتفسير الإسلام حتى يرهنوا أنه مشابه لما هو سائد في مجتمعات غير إسلامية، منديمقراطية، وحرية، وأنظمة حكم، برلمانية، أو رئيسية، فذلك من شأنه أن يخرج الثورة الإسلامية، وكذلك الدولة من كونها أصيلة ومستقلة، لتكون ملحقة وتابعة وخاضعة لتأثيرات الحضارة والعولمة المادية. وذلك من شأنه، إذا ما حصل، أن يعيد التعارض الذي أوساط الشعب المسلم مع كل ما يستتبعه ذلك من اختلافات وانقسامات تربك الساحة وتؤثر على وحدة الشعب وحركته باتجاه أهدافه المقدسة.

وقد رأى الإمام الخميني (رض) أن أي شيء يعرّض وحدة الشعب للخطر، أو يثير الشقاق، خاصة بين الطلاب والعلماء الملتمزين، لا بد من مواجهته بقوة، سواء جاء تحت عنوان التقدم والتطور، أو جاء تحت عنوان الدين والفقه المتحد. إن كل مسعى في هذا الاتجاه يجب إسقاطه وكشفه وتبين أهدافه ومراميه حرصاً على وحدة الأمة وعقلها المفكر المتمثل بالطلاب والعلماء الثوريين. وكل من يقرأ الإمام الخميني (رض) يجد في خطاباته هذا الهم، هم استئصال نفوذ الأجانب من الحوزات والجامعات، لأنه مع نفوذ الأجانب في هذه الأوساط، يصبح ممكنّاً التدخل في مجالات

(1) رأ: الإمام الخميني، الخطاب التاريخي، تاريخ 22 شباط، 1989 م.
الفكر والسياسة والفقه، والنظر إلى ما يهدف إليه الاستعمار من تحضر
انحلالي، وتقدّس أبله.

إن معنى أن تتوحد قطاعات وفئات الشعب، أن تستمر الثورة ضد المستعمر، بحيث لا يكون لديهم أدنى أمل في العودة إلى إيران، وشرط ذلك، كما بيّن الإمام الخميني، اتفاق الحوزة والجماعة باعتبارهما الأساس في حركة الثورة الإسلامية، وإلا فإن أمامًا لنا ليلةً مظلمًا وموجهًا مخيفًا وإعصارًا مرعبًا(1).

إنها بصيرة القائد الملهم، وعقل الحكم الفذ الغارق في عرفان الزمان، عقل وصيرة يكشفان لنا مدى ندخل في الإعصار، وتعرض للموج الجليد، وهذا الكلام استوعبه الإمام الخميني جيدًا، ولم يتهاون مع أي نفوذ أجنبي، لا في الجامعة، ولا في الحوزة.

إئنا نراقب الأحداث ونشاهد ظهور بعض الحركات الطلابية تحت شعارات الحرية والدستورية، والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان الأمور تغيرت بعد وفاة الإمام الخميني، والحق يقال: إن شيئاً لم يتغير على نحو جوهري. وإذا كان المقصود بالحرية أن نصبح غربيين، أو ديمقراطيين، أو حضاريين، كما يحلو للبعض أن يسمي نفسه، فإن مقتضى الوفاة للإمام الخميني (رض) ولدماء الشهداء الذين سقطوا دفاعًا عن الثورة وأهدافها النبيلة أن تقطع هذه الأصوات، وأن يكشف أمرها للملأ المسلم في إيران، باعتبار أن الشعب بكل فئاته وطوارئه وتياراته، وتحديداً الجامعات والحوزات صوتت للإسلام، ولم تصوت لبعض الأصوات المشبوهة هنا أو هناك، وهذا لا يتفاً إطلاقًا مع

(1) م. ع، ص. ن.
الدعوة إلى تحقيق الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، لأن ذلك يبقى مطلوباً وضرورياً في إطار العولمة الإسلامية كالتقديما تنشدتها إيران، وتسعى إلى تحقيقها بعيداً عن مفاطن الحضارة الغربية وأساليب طعمنتها.

هناك طريق شتي يحاول المست عمر من خلالها النفوذ مجدداً إلى إيران، وخاصة إلى الوسط الجامعي لما له من تأثير على مجريات الأمور، ودور في نجاح الثورة واستمرارها.

ويمكننا ملاحظة هذه المسألة بدقة ووضوح في وصايا الإمام للشعب الإيراني خاصاً، ولكافة الشعوب المسلمة والمتضعة عامة. كما يمكن ملاحظة الخط الخريفي الذي يرسمه الإمام، ويطلب من الشعب الإيراني أن يحظى في جميع مساعيه، الذي باستطاعتنا أن نستخلص منه جملة دلالات. أولها: أن الشعب الإيراني لن يكون معذوراً فيما لو تخلى عن الدافع الإلهي، الذي أدرك تماماً أنه سرّ انتصار الثورة، وسرّ ديمومتها.

ثانياً: إن الشعب الإيراني يملك إرادة التصدي لكل محاولات الغرب للسيطرة مجدداً على إيران، وكذلك إرادة إلحاق الهزيمة بكل الأعداء في الخارج والداخلي، وذلك يتطلب منه دائماً أن يكون حذراً وواعياً لدوره ومسؤولياته، فلا يخلو عنه تحت ضغط الحصار والضيق الاجتماعي والاقتصادي لمصلحة الأعداء.

ثالثاً: مطلوب من الشعب الإيراني، ومن الجامعات والجوائز العلمية، ومن كل الكفاءات الملزمة والمؤمنة بضرورة استمرار الثورة حتى تحقيق كامل أهدافها، أن تبعث اليأس في قلوب الأعداء في الداخل والخارج من النيل من الثورة بواسطة أشخاص قد يكونون في الجامعة أو في الحوزة، أو في أي مكان آخر.
رابعاً: إن الثورة الإسلامية، هي ثورة الشعب، بل ثورة الفقراء خاصة، وهي التي اختارت مبادئها بوحي من ضميرها الإسلامي، وكذلك شعاراتها، ومن يريد أن يخدع هذه الثورة، أو أن يستمر بالوفاء لها، فليدخل في صفوفها، سواء أكان من المسلمين أو من غيرهم، وليس لأحد إطلاقاً أن يتدخل فيما اختاره الشعب بمليء إرادته، من مبادئ وأهداف وشعارات، وكما يقول الإمام الخميني (رض): «إن البلد مفتوح لاستقبال كل الأشخاص الذين يريدون أن يخدموا، ولكن ليس بثمن أن لهم ديناً على كل المبادئ، وإنما لماذا قلمت الموت لأمريكا؟ ولماذا حاربتم؟ ولماذا تتفدون أحكام الله في المناقشين وأعداء الثورة؟ ولماذا رفعت شعار لا شرقية ولا غربية؟ أو لماذا احتلتم وكر التجسس؟» (1).

هذه هي جملة الدلاليات، التي يمكن استخلاصها من الخط العريض الذي رسمه الإمام في خطاباته التاريخية، وفي وصيته السياسية، ان يستمر الشعب في التزام الدافع الإلهي، وأن يحول دون تمكن الغرب من زرع الشفاق في أوساط الطلاب والعلماء الملزمين.

(1) انظر: الخطاب التاريخي، م. س، 22 شباط، 1989م.
الفصل الخامس
الإمام الخميني (رض) وإحياء الخطاب الديني
إضاءة المفاهيم والمفاهيم الدينية

تمهيد

أولاً: حيوية الخطاب الديني وآثاره عند الإمام الخميني (رض)
ثانياً: شمولية الخطاب الديني وعاليته عند الإمام الخميني (رض)
ثالثاً: دور علماء الدين والمراكز الدينية في إحياء الخطاب الديني
لا شك في أن الإمام الخميني (رض) في جهاده المتصال استطاع أن يحيي الخطاب الديني، وأن يحقق أعظم معجزة في هذا العصر، وإذا كانت هذه الأوراق لا تتساوى للحديث عمّا حققه الإمام (رض) من إنجازات، وما أحياء من مفردات ومفاهيم، وعن تأثيرات خطابه الديني والسياسي، فإن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى ما تميز به خطابه من حيوية وفاعلية وقدرة على التأثير في مجتمعات المسلمين والمستضعفين، وقد رأينا أن تكون لنا بعض الإشارات الموجزة والكاشفية قدر الإمكان عن تمييز هذا الخطاب وخصائصه، باعتبار أن عالمنا الإسلامي قد شهد خطابات ومفردات ومفاهيم كثيرة لم تفد في إعادة الحيوية إلى الشعوب الإسلامية، ولا ساهمت في تحريرها من أسر الطاغوت، بل زادت في مشاكلها، وحالت دون استقلالها نظراً لما يشوب هذه الخطابات والمفاهيم من أخطاء وتلبيسات وتمويهات جعلتها قاصرة عن إحداث تغييرات شكلية أو جوهرية في حياة المسلمين...

وهنا نسأل: تُرى ما هي الأسباب التي جعلت خطاب الإمام (رض)
الدنيي والسياسي ميزةً وفاعلًا وممتدًا لدرجة أن جميع المسلمين باتوا وأثنان من أن أي تغيير يبقى مستحيلًا ما لم تستحضر مضامين ومفاهيم ومفردات خطاب الإمام فيما يسعى المسلمون والمستضعفين لتحقيقه من حرية واستقلال؟

لقد أجاب سماحة الإمام الخامنئي (حفظه الله) عن هذا السؤال بالقول: "إن الإمام الخميني (رض) سلك الطريق نفسه الذي سلكه رسول الله ﷺ من أجل إعادة الحياة إلى الإسلام، وهو طريق الثورة"(1).

إن نصوص الإمام (رض) وكلماته الخالدة تحمل بالدعوة إلى استحضار الإسلام والإهتداء بما جاء به الرسول ﷺ وأهل بيته، لأن الحياة في ظل القرآن والسنة، والثورة على الظلم هما شرطان أساسيان لتحقيق العزة والكرامة والاستقلال، وقد بينت التجربة في التاريخ أنه حيث كان الإسلام حياً كانت السعادة والسلامة على مستويات الحياة كافة.

ولكن كان العالم المستكبر يتنكر لفاعلية وحيوية هذا الخطاب الإسلامي، ويعتبره قاصرًا عن الفعلية والتأثير، وعاجزاً عن إيجاد الحلول لما يعيشه العالم الإسلامي من مشاكل، وإذا كان يدعى بأنه يملك الحلول السحرية لهذه المشاكل، فقد سبق للمستكبرين من أمثال قارون وفرعون وهامان أن أدعوا ذلك، ولم تكن النتيجة إلا مزيدًا من الفقر والحرمان، وقد استطاعت النبوة الكشف عن زيف هؤلاء فيما يدعونه من حلول سحرية وقدرات وهمية، وأبدى تأمل في تاريخ الصراع بين الأنبياء والمعترفين يمكن أن يعطي صورةً واضحةً عما آلته إليه أوضاع الناس مع

(1) الإمام الخميني، حديث الشمس، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ترجمة رعد جبارة، ص: 104.
الأنياء وفي ظل دعواتهم بعد تحريرهم من استعباد واستخفاف
الفراعنة...

إن الإمام الخميني (رض) في خطابه الدینی والسياسي استحضر خطايب النبوة الخاتمة والرسالة الكاملة، ولم يتجاوزه، بل بقي خطابًا قرآنيًا في كل مفرداته ومفاهيمه، باعتبار أن الإسلام دينٌ كاملٌ على الصعيد النظری فيما ينطوي عليه من قوانين وأحكام ومبادئ، ولا حاجة بالمسلمین لأن يتلقفا مفردات ومفاهيم أصطناعها هذا الخطاب أو ذاك لنفسه كيما يعتبر بها عن مشروعه . . .؟

لقد أبقى الإمام (رض) ان المفهوم الدینی والسياسي الذي حقق الإنتصار على الامبراطوريات القديمة وＺم الأحزاب في بدر وأحد والخندق في أيام رسول الله ﷺ لا يزال قادراً على هزيمة الجاهلية الجديدة المعتملة اليوم بالحضارة الغربية (المادية)، والمتميزة بالنظرة الحيوانية الى الإنسان، وبالنظرة المادية الى الكون والحياة، والقدرة هذه انمَا تتأتى للمسلمين فيما لو اقتفوا بالخطاب الالهی، واستجابوا لما أمر الله به ونهى عنه ودعاه إله، حيث قال تعالى: "بأي ظن أنتم تستجيبوا لله ورسوله إذا دعاكم لما يحبكم" . . .(1)

فالإمام (رض) لم ير ضرورة ولا سببًا يوجب التماهي مع الغرب أو الشرق فيما اصطنعه لنفسه من مفردات ومفاهيم ومبادئ وقوانين، لأن الإسلام - كما قلنا - دین كامل وشامل، ومن شأنه - فيما لو أخذ المسلمون به الاهتداء الى سبل السلام والأمن، وتحقيق السلامة على مستوى الدين والدنيا، إضافة إلى ما يكون للمسلمين في ظله من عزة وكرامة واستقلال،

(1) سورة الأنفال، الآية: 24.
يقول الإمام الخميني (رض): "في ظل القرآن استطاع الإسلام في مدى نصف قرن أن ينصهر على امبراطوريات زمانه، ونحن ما دمنا في ظل القرآن فإننا سوف نغلب أعدائنا... إن الحرية والاستقلال إنما هما في الاقتداء بالقرآن الكريم والرسول الأكرم".

إن الله تعالى نهى عن أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، ولم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا، وهذا يعني فيما يعنيه، أن يكون المؤمنون أحرارًا فيما يؤمنون له وينطلقون منه نحو الأهداف السامية التي حث القرآن والرسول وأهل بيته عليها على الإطلاق نحوها، والسعى من أجل بلوغها... فالشهادة والوسطية التي جعلها الله للأمة الإسلامية لا تعني نفي الآخرين أو نبذهم فيما لو كانوا موحدين لله وعبادين له، وإنما تعني الحرية والوقوع الفاعل والمستقل والمؤثر بحيث يكون للمسلمين دورهم وأثرهم وطريقة عملهم في بناء الحياة دون تبعية لأحد ولا رضوخ، بل استقلال في الموقع والفعل والقرار، ولو أن الأمة الإسلامية موحدة اليوم لا تستطاعت أن ترسم لنفسها خطًا وسطًا في علاقاتها مع العالم، ولهذا نجد الإمام (رض) يركز في خطابه على الوحدة باعتبارها شرطاً أساسيًا لكل نهوض وفاعلية في حياة المسلمين.

إننا نلاحظُ في نصوص الإمام (رض)، وفي جميع ما صدر عنه من بيانات ووصايا أنه يدعو المسلمين في العالم إلى التوχح وصياغة خطاب ديني وسياسي مستقل ومتميز فيما يطلق منه، وفيما يهدف إليه، لأن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم ليس ديناً تابعاً ولا ملحقاً، بل دين

الاستقامة والثبات في شخصية الإمام (قدس) ترجمة كاظم ياسين، بروت - مركز الإمام الخميني الثقافي، ص 325.

١٨٤
كامل ومهيمن على سائر الكتب والأديان، ومن شأن العودة إليه والاقتداء به نفي كل مظاهر التبعية والعبودية لغير الله تعالى، وحماية المشروع الإسلامي وتحقيقه على النحو الذي يؤدي للمسلمين إلى أن يكونوا أحراراً ومستقلين وفاعلين في السياسة الدولية، وقادرين على رسم الخطوط ووضع المفردات وصياغة المفاهيم الإسلامية والقوانين الملائمة لهذا العصر وغير ذلك مما يحفظ للمسلمين موقعهم وقدرتهم على ممارسة حريتهم ولعب دورهم الشاهد والوسطي، فلا يكونون تابعين أو ملحقين بهذا القطب الدولي أو ذلك كما هو حاصل اليوم نتيجة لغياب خطاب الوحدة وتحقيق التجزئة التي تسببت بضياع فلسطين، هذا فضلاً عما لحق بالمسلمين بسبب الغربة عن الإسلام من خسارات وانهيارات على مستوى القيم والأخلاق والمفاهيم...

إن الخطاب الديني الحيّ والفاعل والموحد يبقى شرطة الأساسي أن يعود الناس إلى القرآن، وأن يعيش المسلمون الإسلام في الفكر والسلوك والثقافة، في النظرية والتطبيق، في المجتمع والدولة، ذلك أن التحول في الخطاب والمفاهيم كان ولا يزال نتيجة لتخلي المسلمين عن الإسلام مما دفع بهم إلى الخذ بالكم الهائل من المفردات والمفاهيم الغربية عن الإسلام، وعن كل ما جاء به أنبياء الله ورسله من المبادئ والقوانين. فما لم يعد المسلمون إلى القرآن، فإن كل شيء سيبقى رهن التجاذبات والتفاوتات المختلفة للإسلام، حيث أن القومية والوطنية والعلمانية وغير ذلك من رأسمالية واشتراكية قد أخضعت مجتمعات المسلمين لمظاهرتها وخطاباتها، وكانت النتيجة الإسهام في مزيد من الفرقة والاختلاف والتبعية والاستقلاب على مستوى السياسة والثقافة والاجتماع والاقتصاد فضلاً عما لحق بالأمة من جرّاء
ذلك من استلاب على مستوى الهوية والوجود!

لا شك في أن الإمام (رض) في خطابه الديني، وما حققه من ثورة عارمة، هدف في قوله وفعله إلى إعادة التواصل مع الإسلام الذي انقطع بسبب التكلف والتبعية في الخطاب الديني والسياسي من قبل الذين تعاقدوا على حكم المسلمين في الماضي والحاضر، حيث أنهم تكلفوا في الخطاب، ولم يكونوا أهلا لـه، كما أنهم لم يحرصوا عليه إلا بالمقدار الذي يحقق لهم مآربهم وأطماعهم السياسية والسلطوية، وقد نشأ عن تقلد حكومات الجور لأمور المسلمين - كما نعلم جميعاً - تشويه المفرادات والمفاهيم الدينية، وتحويل الخطاب الديني من خطاب إسلامي بكل مفرداته ومفاهيمه إلى خطاب مذهبي وطائفي تابع للغرب تارة، وللشرق طوراً، وهما في البلاد الإسلامية اليوم تزحل تحت ضغط المفرادات والمفاهيم الغربية! وإذا كان إحياء الخطاب الديني يحتاج إلى التزام ووعي ونفي لكل ما هو دخيل، «فعلى المسلمين كافة تفع مهمة إحياء الحج والقرآن الكريم وإعادتهم إلى مبادئ الحياة»(1)، لأنهم خبروا وجرحوا وأيقنوا أن الحل لا يكون إلا بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم.

وكيف كان، فإن الحث على إحياء الخطاب الديني فيما صدر عن الإمام من أقوال وأفعال هو بمثابة الدعوة إلى المسلمين كافة كي ينطلقوا بالإسلام من جديد بحيث يصار إلى أسلمة كل شيء سواء على مستوى الدولة أو على مستوى مؤسسات المجتمع كافة، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق الحرية والاستقلال، وبعث الحريات في حركة المسلمين.

(1) الإمام الخميني، الاستقامة والثبات، ص. ن.
وما بذله الإمام (رض) من مجهودات فكرية وسياسية، وما أداء من مهام رسالية يرشد المسلمين كافة إلى سبيل الكفيلة بإخراج عالمنا من الجاهلية الجديدة إلى نور الإسلام والقرآن. لقد أطلقه الإمام (رض) خطاباً مدوياً إلى العالم كله، ولا يزال هذا الخطاب يسعى من خلال الحكومة الإسلامية في إيران إلى بث الروح في الجسم الإسلامي، والحق يقال: إن الجمهورية الإسلامية في إيران هي اليوم مخطّط أنظار العالم، لا من حيث أنها تمثل موقعًا استراتيجياً هاماً، ولا من حيث ما لها من مصالح مشتركة مع العالم، بل هي كذلك لما تمثله من موقعية إسلامية مستقلة عن الشرق والغرب، ولما تتسم به من حيوية في خطابها الديني والسياسي، ومن وسطية في علاقاتها، وشهدتها في دورها مما جعلها أهلاً للقيام بمهمة الإصلاح والحضور بقوة في ميادين الحياة المختلفة، وما دامت هذه الحكومة الإسلامية في إيران قد أخذت على عاتقها نصرة المسلمين، والمستضعفين، فإنها سوف تبقى مخطّط أنظار العالم ومعقد الأمّل للشعوب الإسلامية والمستضيفة في العالم.

إن حيوية المفاهيم والمفردات الإسلامية تبقى قاصرة عن صناعة المجتمع الإسلامي ما لم تكن هناك حكومة إسلامية ترعى وتدير وتحفظ ما تحقق من إنجازات على مستوى الدولة والمجتمع، وكل مجتمع في العالم يعيش الإسلام فكرآً وسلوكاً وثقافة، في علاقاته ومعاملاته لا بد أن تثبت عنه الحكومة الإسلامية، هذا فضلاً عن ما يكون له من الحياة الفاعلية سواء على مستوى المفهوم والنظرية أو على مستوى الحياة العملية. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يستخلف الناس في الأرض فينظر كيف يعمون، فإنهم اتبعوا الفطرة فيما تدعونهم إليه من علم نافع وعمل صالح، وأطاعوا الرسول فيما يأمر به وينهى عنه، فإنه نتيجة ذلك.
ستكون الجائزة الإلهية التي وعد الله بها المتقين والمجاهدين في سبيله، وقد حصل الشعب المسلم في إيران على هذه الجائزة حينما نهض في ظل الإسلام والقرآن لتحريم نفسه من أسر الاستعباد والاستخفاف الفرعوني، وإقامة الحكومة الإسلامية لتكون عوناً له فيما يسعى لتحقيقه من أهداف سامية.

أجل إن الجمهورية الإسلامية اليوم هي محط أنظار العالم لما تمثله من موقعة ودور هادف إلى تحرير المسلمين من أسر العبودية والاستخفاف، وإعانتهم على تدبير أنفسهم وحياتهم الخاصة والعامة على ضوء الإسلام بحيث يكون لهم موقعهم ودورهم وخطابهم المستقل والفاعل، الخطاب الديني والسياسي الذي يؤهل الأمة الإسلامية لأن تكون خير أمة أُخرجت للناس، وامتداداً لحركة النبوة والرسالة في الزمان بعيداً ما أُسهِلت له الفرق والمذاهب والسياسات والتباريات التابعة لهذه المدرسة أو تلك في الغرب أو في الشرق فالإمام (قده) دعا إلى خطاب الوحدة الهدف الذي ينطلق من جوهر وحقيقة الإسلام، وليس لما انتهت إليه الفرق والمذاهب والنظرات الوضعية من اعتقادات ومفاهيم وسياسات، لأن هذه الفرق والمذاهب لم يسبق لها أن أنجزت وحدة، أو حققت هدفاً، بل كانت دائماً سبباً للفرقة والاختلاف. هذا فضلاً عما أدت إليه من تبعية حينما دفعت بالمسلمين إلى أن يلتمسو الحلول لمشاكلهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من مدارس الغرب والشرق تحت عنوان وشعارات شتى مما شكّل قاعدة للاستعمار كي ينفذ في بلاد المسلمين ليعزز الانقسامات المذهبية والطائفية، ويجول دون عودة المسلمين إلى القرآن، وقد تمكن أعداء الإسلام والمسلمين من تحقيق هذا الهدف بمساعدة الحكومات الجائزة التي لم تذكر جهداً إلا بذله من أجل
تغريب المسلمين وتحويل الإسلام إلى مجرد رموز وطقوس يُبرَك بها المسلمين في المناسبات المختلفة. هذا فضلاً عن اعتماده المستقبرون من أساليب ووسائل ليكون القرآن كتاباً للفرقة والاختلاف، والاحتفاد في الإسلام سبيلاً إلى الناشر، يقول الإمام الخميني (رض): "إنما يؤمن له هو أن القرآن كتاب الهدية لم يعد له من دور سوى في المقابر والمآتم بسبب الأعداء المتآمرين، فأصبح الكتاب الذي ينبغي أن يكون محوراً لتوحيد المسلمين والمسلمين ودستوراً لحياتهم، أصبح وسيلة للتفرقة وإثارة الخلاف".

إن خطاب الإمام (رض) كان ولا يزال يشكل نقيباً لكل ما أراده الاستعمار وأشاعه في بلاد المسلمين بموافقتهم أو بالغفلة عنهم، ولكن ما أسس له فقهاء السلاطين في ظل حكومات الجور، وقد امتد هذا الخطاب بعون الله تعالى في بلاد المسلمين، وشق طريقه في قلوب وعقول المسلمين والمستضعفين لِلْعَطِي الصورة النقيبة والواضحة عن الإسلام، ويكشف عن مضامين ومبادئ وقوانين ومفردات هذا الدين القيّم رغم كل المحاولات التي بذلته وتُبذل لطمس معامله وإخفاء مضامينه، ومحاولة لا شكل فيه ان كل محاولات المستكبرين قد باءت بالفشل، وهي ستتلقى المزيد من الصعوبات فيما تسعى لتحقيقه وتوريجه في حياة المسلمين بسبب قوة وحضور الخطاب الديني الذي أحياه الإمام (فهد)، وآرسى قواعده وصاغ مفرداته ومضامينه، حيث إنه رضوان الله عليه استحضر تاريخ النبوة والسيرة الجهادية للرسول وأهل بيه في مواجهة الظلم والاستخفاف، وقرأ تحولات وتبدلات العالم بدقة لا مثالية وكذلك كل ما

(1) انظر: وصية الإمام (فهد)، نشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.
يعيش العالم من تناقضات في المفاهيم والمصالح مما مكّنه من إعادة وصل ما انقطع في تاريخنا الإسلامي، وفي زماننا الحيوي، وقد تجلي هذا الوصل في الفعل والخطاب في الزمان والتاريخ بإقامة الحكومة الإسلامية على أساس ولاية الفقيه العادل الذي شكّل وشكل وجوده على رأس الدولة نفياً لكل مظاهر التغريب، وتأكيداً للخطاب الديني الحي بكل ما ينطوي عليه من مفردات ومفاهيم، وضمانةً للسياسة الإسلامية الهادفة إلى بناء المجتمع والإنسان على ضوء تعاليم الإسلام، وتحقيق السلام على مستوى الدين والدنيا.
سبق أن أشرنا في تمهيدنا لهذا البحث أن الإمام رضوان الله عليه لم يستحضر خطاباً جديداً من خارج التاريخ والزمان، بل أحيا خطاب الإسلام والنبوة في حركته الدينية والسياسية، باعتبار أن الإسلام دين كامل على المستوى النظري، وينحوي على كافة المفردات والمفاهيم التي يحتاج إليها البشر في حركتهم من أجل الحرية والاستقلال، يقول الإمام الخميني: «إن سبب البعثة هو إزال الكفاح العظيم الذي يحتوي على كل آيات الخلق، وعلى كل الأشياء التي يجب أن تنجز في البعثة، إنه سفرة بسطها الله تبارك وتعالى لبني البشر بواسطة النبي الأكرم ليستفيد منها البشر كل بحسب استعداده وإمكاناته»(1).

إن خطاباً يستحضر الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم لا بد أن تكون له فعاليته وحيوته وأثره في حياة الناس، وحينما نتحدث عن إحياء الخطاب الديني عند الإمام (قده)، فإننا لا نستطيع أن نتغاضى عن شخصية الإمام وقيادته في هذا العصر، ذلك أنه من غير الممكن الفصل بين حضور

(1) الإمام الخميني، الاستقامة والثبات، م. س، ص 326.
الإسلام في حياة الناس وبين القائمين بمهما الإصلاح والتغيير، فالقرآن لا بد له من ترجمان، وأدنى تأمل في التاريخ الإسلامي وما رفع فيه من شعارات تتخذ من الإسلام شعاراً لها من شأنه أن يكشف لنا عن طبيعة وحقيقة ما كان عليه المسلمون في تأويل القرآن بما يوافق السلطة الجائرة أو لجهاة اختلافات الفرق الإسلامية وتناحرها، فهذا كله حال دون أن يكون الخطاب الإسلامي حياً وفاعلًا، إذ إنه غالباً ما كان السلاطين ومن لازهم من فقهاء البلاط يحولون دون رجوع الناس إلى الإسلام وسّنة رسول الله ﷺ، ويدفعون بهم إلى التماس الإسلام وقوانينه مما كانوا ينتجونه من فقه وكلام وسياسات في معامل الهمو وحب الدنيا. باختصار نقول إن الإسلام والقرآن كانا في جانب، والسلطة في جانبي آخرين بسبب ما آلت إليه أوضاع المسلمين في ظل السياسات السلطانية.

لقد أدرك الإمام الخمينيمعنى وحقيقة وأثر أن يُستحضر خطاب البُهو والرسالة في زمن امتلأت فيه بلاد المسلمين بالمترفين والمستشارين، فانبري من موقع مسؤوليته وأمانته على وحي الله تعالى إلى صياغة الخطاب الإسلامي على ضوء كتاب الله وسّنة رسوله الذي يؤهل الأمة الإسلامية لأن تنطلق من جديد في حركتها من أجل تحقيق نفسها بالإسلام، ويدفع بها إلى المحافظة على مكوناتها وخصائصها بحيث تعود إلى شهادتها ووسطيتها، كما أرادها الله تعالى، ذلك هو معنى أن يكون الخطاب الديني حياً، أن تنطلق الأمة من خلال الإسلام وفي ضوئه في سبيل إقامة الحكومة الإسلامية، وتطبيق القانون الإلهي، والإصلاح في الأرض على النحو الذي يؤدي بالأمة إلى أن تكون خير أمة أخرجت للناس، كما قال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجتم للناس تأمرون..."
بالمعروف وتيحون عن المنكر وتؤمنون بالله(1).

والحق يقال: إنه ليس من الحيوية في شيء أن يستحضر خطاب الإسلام والنبأ لمجرد التبرك به دون أدنى اعتبار عملي له، وهكذا كان الخطاب الإسلامي لفترة طويلة من الزمن خطابًا نظرًا مجازًا مثيرًا لم يتجاوز اللسان إلى الالتزام به وتعبير عنه في مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين، إلى أن جاء الإمام رضوان الله عليه، فبعث فيه الروح وجعله خطاباً حياً ومثيرًا في ما أحدث من آثار، وصنع من معجزات.

وكما بيئة في مقدمة هذا البحث أن الإمام (قده) لم يجد الخطابات الدينية بل أحياه وأعاد وصله بالخارجي المشرق في تاريخ المسلمين، وأعطاه بعدة واقعية من خلال استلهام السيرة الجهادية للرسول وأهل بيته الذين لم ينشؤوا عن إقامة الحق وضبط العدالة الاجتماعية، وكما يقول الإمام الخميني (قده): إن الرسول ﷺ وأمير المؤمنين ﺭ عليه السلام، وأئمة الدولة والحكومة، وسطاً العدالة الاجتماعية من دون الحاجة إلى استعارة مفاهيم ومفردات وقوانين من خارج دائرة الإسلام (2)، فهى دين على خلاف جميع المذاهب غير التوحيدية... ولم يترك أي قضية مهما كانت صغيرة ما دام لها تأثير في تربية الإنسان والمجتمع» (3).

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.
(2) يقول الإمام الخميني (قده): «لقد أسس النبي الإسلام حكومة كسائر حكومات العالم، ولكنها تميزت عنها بدافع إقامة العدالة الاجتماعية وسطها وكان لخلفاء الإسلام الأوائل حكومة على أمصار أوسع وأشمل، وتأسس حكومة أمير المؤمنين على نفسه الداعع ولكن على نطاق أوسع وأشمل، وبعده تحول الأمر شيئاً فشيئاً إلى حكم باسم الإسلام، واليوم أيضاً كثيرون هم أدعياء أنغام الإسلام والرسول ﷺ في الحكم». انظر، الوصية الإلهية، وزارة الإرشاد الإسلامي.
(3) انظر: الإمام الخميني، الوصية السياسية، م. س.
إن العودة إلى القرآن كفيلة بإحياء الخطاب الديني وترجمته على النحو الذي يؤدي إلى إقامة الحكومة، وتحقيق العدالة، كونه لم يطلب من المسلمين اليوم أكثر مما طلب منهم في أيام رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، فإذا ما جعل المسلمون القرآن موضوعًا للتذبب والتأمل، فإنه سيكون لهم الخطاب الحي والفاعل، وسينطلقون من جديد في رسم الخط الوسط في علاقاتهم مع العالم. فقوله رضوان الله عليه أن الأمر تحول شيئًا فشيئًا إلى حكم باسم الإسلام، واليوم كثيرون هم الذين يدعون أنهم أتباع الرسول ﷺ والإسلام في الحكم، ناظر إلى الأسباب التي تحول دون انطلاق الأمة الإسلامية في مسيرتها على هدى الرسول وأهل بيته ﷺ، إذ أنه لا يزال الخطاب الإسلامي حتى يومنا هذا في كثير من البلاد الإسلامية أسير الاحترام وطلب به الدنيا، ولا شك في أنه يستحيل في ظل حكومات الجور وما تمارسه من جور واعتساف وتأويل لكتاب الله تعالى بما يوافق الهوى أن يحتفظ الخطاب الديني بخصوصه ومميزاته التي كان يمتاز بها أيام رسول الله ﷺ. وبما أن حكومات اليوم تعتمد تشويه هذا الخطاب لتدعم مشروعها السياسي السلطوي، فإن إحياء الخطاب الديني سيقضي متعدراً ما لم يقم المسلمون بواجهتهم، وستبقى حياتهم ولادهم عرضة لمفردات ومفاهيم الحضارة الغربية (المادية) التي حدّر الإسلام (قده) من أفكارها وسلعها وسائر ما تجود به على بلاد المسلمين من مفاهيم الحياة...؟

وإذا كان الإمام رضوان الله عليه، قد اتخذ موقفًا سليماً من الحضارة المادية فيما صدر عنه من بيانات ووصايا، وطرح الإسلام بديلاً لها، فإن ذلك لا يعني أن الإمام قد اتخذ موقفًا سليماً من العلم وما انتهى إليه العالم من اختراعات وصناعات، إذ كيف يكون ذلك، والإسلام يحث على طلب

194
العلم والتطور شرط أن تبقى للإنسان كرامته وروحيته وهيمته، يقول الإمام (قده): "إذا كان المقصود من التمدن والتطور والصناعات المتطرفة التي تساهم في تقدم المدنية الإنسانية، فإن الإسلام يؤكد على ضرورة العلم والتقدم والصناعة، أما إذا كان المراد من التمدن والتطور هو إطلاق الحرية لعمارة كافة الرذائل. فهذا ما ترفضه الأديان السماوية، والعلماء والعقلاء رغم أن المتغرين والمساحين ونافذاتهم الأعمى يروجون ذلك"(1).

نخلص إلى القول، بأن الخطاب الدينى لا يكتسب حيويته وفعليته مما يتجه الغرب أو الشرق من مفاهيم ومفرادات وصناعات كما توهم بعض المتغرين والمستشرقين في البلاد الإسلامية الذين تلقوا كل شيء من الأجانب إلا الصناعات والعلوم فهي بقيت في بلاد الغرب والشرق دون أن تستفيد منها البلاد الإسلامية في شيء، وهذا إذا كان يدل على شيء فإنه يدل على مدى الاستقلال الحاصل في عالمنا جراء الاقتداء الأعمى بحضارة الغرب التي تم الأخذ بها دون تأمل ولا تبضير، وكان لا بد أن يعكس ذلك سلباً على واقع المسلمين والمستضعفين وثقافتهم وخطاباتهم الدينى والسياسي، حيث أن الخطاب الإسلامي في ظل التقليد الأعمى للآخرين تحول من كونه خطاباً إسلامياً إلى خطاب معبّر عن الحضارة المادية، وكانت النتيجة استقلالاً على مستوى الخطاب الدينى والسياسي، وعلى مستوى المفاهيم والمفرادات والقيم والمبادئ والأهداف، فلم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا اسمه بسبب تقلد المتغرين والمستشرقين لأمور الناس الدينية والسياسية، والأكثر من ذلك عجبًا هو أنه لا تزال هناك أصوات ترتفع وتدعو إلى إحياء الخطاب القومي والعلماني

(1) انظر: الوصية الخالدة للإمام، م. س.
والليبرالي وغير ذلك مما كان له أكبر الأثر في تخلُّف المسلمين وتجزئتهم، والذي حال دون تمادي المتغريين والمقلدين للغرب والشرق، والداعين إلى تمثيل الحضارة الغربية بكل أزماتها وسليمانها هو الثورة الإسلامية في إيران التي استطاعت بث الروح والحيوية في عالم المسلمين، وفي الخطاب الإسلامي فانطلق في مواجهة كل الأطرافات الوضعية، وحقق نتائج باهرة على مستوى المواجهة مع العدو الصهيوني سواء في لبنان أو في فلسطين أو في غيرهما من البلدان الإسلامية، وما كان ذلك ليتم لولا حيوية الخطاب الدينى الذي اكتسب أبعاده الشاملة مع الثورة الإسلامية ومن خلالها. إن الخطابات الأخرى سواء أكانت القومية أو العلمانية أو الليبرالية أثبتت فشلها فيما قامت به من مهمات، وفيما عبرت عنه من نظريات، وخير ما يمكن أن نتبرص به في هذا السياق هو ما تبناه الإمام الراحل رضوان الله عليه كما هدف إليه أوضاع العالم الغربي في ظل الحضارة المادية والقوانين الوضعية. وعما سيكون للإسلام من دور في اقتسام البشرية من أزماتها الروحية والمعنوية، فهو (فده) في رسالته إلى غورباتشوف بين أن المادية هي سبب الموت المحق على مستويات الحياة والمبادئ والقيم في مجتمعات الغرب والشرق، ونتيجة للتقليد الأعمى لهما وقعت مجتمعات المسلمين في أزمات متعددة، يقول الإمام: لا يمكن للمادية أن تنقذ البشرية من أزمة عدم الاعتقاد بالمعنويات، هذه الأزمة التي تعد أهم أساس لمعاناة البشرية في الشرق والغرب.

إنما يُؤسَّف له ويعجب منه هو أن المتغريين والمقلدين اجترحوا مفاهيم الغرب والشرق عن الحياة والإنسان، وتقلعوا إلى بلادهم ما أسفرت عنه الحضارة المادية من أزمات معنوية وروحية دون أن يتمتعوا بأدنى من رسالة الإمام الخميني إلى ميخائيل غورباتشوف.
نصيب مما حققه هذه الحضارة من إنجازات علمية وتقنية وصناعات مختلفة؟

لا شك في أن غياب المفردة والمفهوم الإسلاميين من حياة المسلمين قد أدى إلى الانسجام تمامًا مع الخطاب المادي الوافد من الغرب والشرق، وإذا كان لا بد من إشاعة المفردات والمفاهيم الدينية، فإنه لا يسع المسلمون إلا أن يحققوا الثورة الداخلية سواء على مستوى النفس أو على مستوى الواقع ضد الاستخفاف والعبودية والتقليد وغير ذلك مما كان ولا يزال سبباً في تخلفهم، بحيث تكون الثورة الإسلامية في إيران قدوة لشعوب العالم في طلب الحرية والاستقلال. وهذا ما ركز عليه الإمام (نحو) في خطابه الديني والسياسي، وطلب إلى المسلمين أن يتفاعلو مع الإسلام، محنناً إياه من الوقوع في شرق خطابات كثيرة تنسب نفسها إلى الإسلام، وتدعو أن الإسلام ليس شيئاً غير الإنسياق مع الحضارة والتمثيل بها والاستفادة من إنجازات العصر العلمي والتقنية وغير ذلك، وغالباً ما تصدر هذه الدعاوى عن أناس يحكمون باسم الإسلام ويبررون تبعيتهم للغرب أو الشرق بالاستناد إلى كثير من الآيات التي سبق لفقهاء البلاط أن أوшуها بما يلائم دعاوى المتغرين والمشايخ، وقد ترافق هذه الدعاوى الباطلة مع إشاعة مفاهيم ومفردات على أنها مفرادة ومبادئ إسلامية، من قبل أن الإسلام ليس ضد القومية، ولا ضد العلم، ولا ضد التطور والاشتراكية، وقد انتظلت هذه المزاعم والأقاويل على الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية فأخذوا بها واعتبروا الدليل على دينيتها وإسلاميتها ما حصل من تقدم مادي وصناعي، ساهمين عن أن التطور والتقدم المادي ليس دليلاً على صحة الاعتقاد وسلامة المعنوية والروحية، والأكثر من ذلك ألمًا، كما يقول الإمام (رض): «هو ان القطبين الشرق
والغرب أبقياً على الشعوب المظلمة المستعمرة متفلقة في جميع الأمور، وجعلها بلدانها استهلاكية وأوجدوا في أنفسهم حالة عميقة من الرهبة تجاه مظاهرة تقدمهما وقواعدها الشيطانية، حتى لم تعد لنا جرأة على المبادرة إلى أي إبداع وراح الكتاب والخطباء والمتغربون والمستشرقون الجهلة ينتقدون هازينين بثقافةنا وتقاليدنا وحتى صناعتنا وما قد ندعوه، وسعا لكي تفاقتنا الذاتية وبعث الآية فيها وترويج التقاليد الأجنبية مهما كانت متصلة وبذلية بسلوكاتهم وكتاباتهم ومدحاها وتحسينها لثبيتها لدى الشعوب»(1).

إن حيوية الخطاب الديني بكل مفرداته ومضامينه بنظر الإمام رضوان الله عليه لا تكون بالتبعية والتقليد الأعمى، وإنما بالاستقلال والحرية والوعي وتعيّنة النفس وتربيتها على الجهاد والصر في مواجهة الظلم والترف والاستكبار، وهذا كله يبقى غير ممكن ما لم يقتِ المسلمون واستعفون بالقرآن الكريم والرسول الأكرم وسائر الأمة والصالحين، لأن المستشرقين والمغزرين كانوا ولا يزالون يستغلون غربة الإسلام والقرآن عن حياة الناس لإشاعة الفحشاء والمنكر والبغي لإفساد المجتمع وتغيير خلق الله تعالى بوحي من شياطينهم الذين يتربّضون شراً بالإسلام والمسلمين.

(1) انظر: الوصية الخالدة للإمام رضوان الله عليه. م. س.
تأنيتا: شمولية الخطياب الدينية ومعالمه عند الإمام (قده)

إنما أراده الإمام الخميني قده وسعى إلى تحقيقه هو أن تعود الحياة إلى المفاهيم الدينية، وأن يترك المسلمون ما خدعهم به الغرب من مفردات ومفاهيم، وقد حرص الإمام (رض) على أن يكون المصطلح القرآني هو الأساس والجوهر لكل خطاب ديني، ولهذا نجد الإمام (قده) في نصوصه وبياناته يركز على الاستضعاف مقابل الاستكبار، وعلى التركية مقابل الاستعلاء، وعلى الإسلام والشريعة مقابل الديمقراطية، وعلى الإمام مقابل الكفر، فلم ير الإمام (قده) ضرورة ولا سبباً لأن يتشدق عالمنا بمصطلحات ومفردات ومفاهيم الغرب أو الشرق دون معرفة بمضمونها وما تهدف إليه، باعتبار أن هذه المصطلحات كانت ولا تزال مجهولة التعريف والتحديد وخاصة مصطلح الديمقراطية الذي تغلقت به كل مشاريع الاستبداد، فلا حاجة للأخذ بمصطلحات غير واضحة، ما دام يوجد في الإسلام كل ما تحتاج إليه البشرية في سعيها من أجل السعادة والسلامة في دينها ودنياها.

لذا فإن الإمام (رض) عمل من أجل إعادة التواصل مع الرسول

199
والرسالة بالشكل والمضمون، لأن النبوة فيما جاءت به من دعوات، وما قامت به من مهام لم تكن بحاجة إلى مفردات ومفاهيم مناهج المترفين والمستكبرين عن الكون والحياة والإنسان. وإنطلاقاً من هذه الحقيقة، فلم يكن عند الإمام (رض) مندوحة عن تأسيس الخطاب الديني والسياسي على ضوء حركة النبوة في التاريخ، وهذا هو الشيء الذي جعل الإمام (قده) منسجماً في دعويه وثورته، ومن ثم في دولة الإسلام مع خطاب النبوة إلى البشر، حيث أن الإمام (رض) أدرك في حياته، ومن خلال ما عاشه من أحداث أن إحياء الخطاب الديني غير ممكن ما لم يتواصل الناس مع تاريخ النبوة والإماماً لما لذلك من أثر في حياة الناس باعتبار أن الأنباء جمعاً دعوا الناس إلى التوحيد تحت راية الإسلام، وإلى الثورة ضد الظلم، وقد عمل الإمام (قده) من أجل إحياء هذا الخطاب على ضوء الإسلام ومن خلال تاريخ النبوة الحافل بالمجاهدات والرياضات والانتصارات. إن إحياء الخطاب الديني يستحضر كل ما هو أصيل وثابت وكامل بهدف تحرير المجتمع وإحيائه على النحو الذي ينفي كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى دون تمييز بين مسلم أو مسيحي، لأن المرتكز الأساسي في حركة الإمام (رض) هو الإيمان الإبراهيمي المتجلج بقوة في خطابه الديني والسياسي، يقول الإمام (رض) في وصيته الخالدة لمستضعفي العالم: "لا تقعدوا بانتظار أن يهككم الحرية والاستقلال حكام بلدانكم. أو تهككم ذلك القوى الأجنبية. يا مسلمي العالم اجتمعوا تحت راية التوحيد وفي ظل تعاليم الإسلام (1) وهذا الخطاب لا يستفاد منه أن المسلمين وحدهم المعنيون بهذا الخطاب، كون خطاب النبوة الخاصة والعامة كان يدعو الناس إلى الاجتماع تحت راية التوحيد. كما قال

(1) م. س. الوصية الخالدة.
تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن يعبدوا الله۴). إن المسلمين بحكم موقع وسطيتهم وشهادتهم وخبرتيهم مسؤولون عن إقامة حكم الله في الأرض وحماية المستضعفين والدفاع عنهم، وتحقيق الوحدة في مواجهة الكفار والمشركين، وقد جاء الإسلام كه: يقول الإمام: «ليوجع العالم تحت اسم الأمة الإسلامية»۳. كما أن عقيدة التوحيد، وجوهر العدل الإلهي، يقتضيان أن يكون من أهداف الخطاب الإسلامي نصرة المستضعفين ومجاهدة المستكبرين لا بهدف أن يعود المسلمين فقط إلى الإسلام، بل من أجل تحقيق العالم كله بنظام الإسلام، وهله نجد الإمام (قده) يوجع بين قضية المسلمين وقضية المستضعفين كما في قوله: «يا مسلمي العالم، ويا مستضعفي العالم… هيا إلى النظام الذي جاء من قبلك للعالم تعالي لنموكم وتكاملكم. ولساعدتم في الدنيا والآخرة، ولإزالة الظلم وحقق الدماء، ونصرة المظلومين في العالم، ولأجل التربية والتعليم الإنسانيين، ولأجل حرية واستقلال أقطاركم»۳.

إن الثورة الإسلامية التي انطلقت من إيران لم ولن تكون محدودة الأهداف، باعتبارها ثورة شاملة، وتحمل أطروحة كاملة، وهي مسؤولية بحكم مركزتها ودورها الوسطي والشاهد، وعالمية دعوتها وشمولية خطابها عن تحقيق المجتمع الإنساني بالإسلام وإحلال العدالة الإلهية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، كما قال تعالى: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنتي»۴، ذلك هو معنى

(۱) سورة النحل، الآية: ۳۶.
(۲) الاستقامة والثبات في شخصية الإمام، م. ص، ص۲۹۵.
(۳) م. ص. ن.
(۴) سورة هود، الآية: ۸۸.
إحياء الخطاب الديني على مستوى العالم الإسلامي والعالم المستضعف،
ان تكون الثورة الإسلامية ممتدة بكل أبعادها، باعتبار ان الإسلام دين
عالمي، وكذلك خطابه، وما على المسلمين كما يقول الإمام (رض) إلا
أن يعرفوا العالم بهذا الدين، ويخططوا لإقامة الحكومة الإسلامية تمهيداً
لإقامة الحكومة العالمية على يد الإمام المهدي عليه السلام، يقول الإمام:
"نُظروا بأن من وراء تعريف العالم بالإسلام نتائج حسنة وترحيباً شديداً
باستقبال به الإسلام" (1).

لقد تجلَّت عظمة الإمام (فذه) في نصرته للمستضعفين سواء أكانوا
هوداً أو نصارى أو مسلمين أو غيرهم، لأن الله تعالى كرَّم بنى آدم، ومن
جوهر الإسلام وعذائه وعالميته أن يحول القيّمون عليه بين الطواعية
وحاكيمية العباد والبلاد بحيث لا يكون لهم سبيل على المؤمنين
والمستضعفين، وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: "لَو أن المسيح اليوم موجودٌ
فإن سوَّف يكون معنا، ولا يمكن أبداً أن تكون دعوة المسيح منحصرة فقط
بالعبادة مع ترك الظلمين وشأنهم" (2).

إن مما يدل على شمولية خطاب الإمام وعالميته وحيويته في العالم
هو تفاعل غير المسلمين مع هذا الخطاب، وتزني أكثر حركات التحرر
لمفراداته ومضامينه لا من منطلق أنه خطاب صادر عن إمام مسلم وحسب،
بل من منطلق أنه خطاب يدعو الى الحرية والاستقلال وتحقيق العدالة
الاجتماعية، وينصر قضايا الشعوب وحقها في تقرير مصيرها.
والحق يقال: إن إيران الإسلام اليوم ليست جغرافياً ولا

(1) م. س. ص 372
(2) م. س. ص 374
تاريخ، وإنما أطروحة تجسد مشروع النبوة في مواجهة أطروحة المترفين والمستكبرين القائمة على منطق التقليد والهادفة إلى بناء الحياة المادية وتحقق الأبدية والذره من خلال المال والسلطة. وغير ذلك مما يظهر المترفون سبيلاً للسعادة والكرامة والسلامة، كما قال تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها لنا بما أرسلتم به كافرون، وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» (1).

وكيف كان، فإن تفاعل أحرار العالم مع هذه الثورة، وانسجامهم مع خطاب الإمام (قده) يؤكد عالمية هذه الثورة الإسلامية، وتجاوزها لذاتها فيما تدعو إليه وتسعى لتحقيقه من أهداف، وليس من المبالغة في شيء أن يقال بأن مستضعفي العالم في أي أرض كانوا وإلى أي دين اتسروا لا ينتمون وادنى شك في أن الثورة الإسلامية تعبر عنهم وتعمل من أجل خلاصهم، وكما قال الإمام (رض): «أرسل الله تعالى أن يمنحنا القدرة التي نطلق بها صرخة الموت لأمريكا وروسيا لا من كعبة المسلمين فقط، بل من كنائس العالم أيضاً» (2).

إذن معجزة الإسلام في هذا العصر، وما حققه الإمام (رض) على مستوى حضور الإسلام في حياة الناس يؤكد لنا حيوية الخطاب الديني في العالم، وهو سيكون أكثر حيوية وفاعلية فيما لو اقتضت الشعوب الإسلامية والمستضعفة بالشعب الإيرانية المسلم، يقول الإمام: «أما وصيتها للشعوب الإسلامية فهي أن اتخذا حكم الجمهورية الإسلامية والشعب الإيراني المجاهد نموذجاً وقدوةً، ووضعوا خداً بكل قوة لممارسات حكوماتهم الجائرة إن هي رفضت الانصياع لمطالب الشعوب، وهي

1) سورة سبأ، الآية: 34 - 35 .
2) م. س. ص 325 .
منطلقات الشعب إيران، فالحكومات التابعة للشرق والغرب هي علة مسكونة المسلمين (1).

إن الإمام الخميني (قده) حينما يدعو الشعب الإسلامية والمستضيفة إلى الاقتداء بالشعب الإيراني المسلم، واتخاذه نموذجاً يحتذى به، هو اما يدعو إلى التطلع إلى الأسباب والعوامل التي مكنت هذا الشعب من تحقيق حرية واستقلاله، بحيث تتمكن هذه الشعوب في ضوء ما تعرّف عليه من أسباب وعوامل وحقائق من ملاحظة أوضاعها الدينية والسياسية، فتنطلق من جديد في بناء نفسها، وإعادة الحيوية إلى دورها وخطابها، باعتبار ان الحرية والاستقلال والعدالة ليست أهدافاً إسلامية أو مسيحية أو دينية وحسب، وإنما هي أهداف إنسانية متعلقة بكرامة الإنسان، وبناءً على ذلك فإن من شأن الاقتداء بالشعب الإيراني المسلم أن تتمكن الشعوب المظلمة والمستعمرة من تحقيق هذه الأهداف، وإقامة الدولة العادلة والمستقلة فيما تلجاً إليها من سياسات، وفيما تتخذ من قرارات على مستوى الدولة والمجتمع.

والحق يقال: إن الشعوب الإسلامية والمستضيفة اليوم في أكثر البلاد الإسلامية تعيش في ظل مفردات ومفاهيم دينية وسياسية لا تمتّ إلى الإسلام بصلة لا من حيث الجوهر ولا من حيث المضمون. وإذا كان هناك ثمة مفردات ومفاهيم لم يتمكن المتغربون والمستشرقون من إزالتها لاستبدالها بألغاز أخرى، فلم يمنعهم ذلك من حريفها وإفراغها من مضمونها الإسلامي بحيث يكون لها معاني أخرى تنفق وما يحملونه من أفكار ومشاريع أجنبية، وقد نجحوا إلى حد ما في تجريد الألفاظ

(1) الوضية الخالدة، م. س.
ومفردات الإسلام من معنها بعد أن غزوا واقع المسلمين بكثير من المفاهيم والمفردات من قبل الديمقراطية والدستورية والقومية والوطنية والاشتراكي والعلمانية وغيرها، وهذا كله أدى أن يكون الإسلام تارة قومياً، وطوراً إشتراكيًا وثالثة علمانياً، وغالباً ما كانت المسوغات لذلتك تصدر عن المتقدمين والمتزنين بلباس الدين بحجة أن الإسلام مع التطور، ولا بد أن يكون الإجهاد خاضعاً لمقتضيات العصر ومواكباً لحركة التطور العلمية!!

فالأمام رضوان الله عليه في خطابه الشامل، ودعوته العالمية لم ينتهي مفردة أو مفهوماً أو مصطلحاً معييناً لبعث فيه روح الإسلام من جديد، بل نفى كل شيء لأجل إعادة الحياة لكل شيء، بمعنى آخر نقول: لم يكن الانتقاء سبيلًا إلى إحياء الخطاب الديني وسائر المفاهيم والمفردات الدينية عند الإمام (فده)، بل كان الخطاب الديني مرتكزاً إلى الإسلام المحمدي الأصيل، ومتميزاً بمفرداته ومفاهيمه دون اعتبار لما إذا كان هناك من المفاهيم والمصطلحات ما يوافق المفهوم الإسلامي، لأن منشأ الإلهاب كان ولا يزال هو الانتقاء الذي كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى تغلب المفاهيم والمفردات الأجنبية على المفاهيم والمفردات الإسلامية، وعلى فرض أنها كانت موافقة للإسلام وغير مخالفته له، لكنها كانت مع مرور الوقت وتغيّر لولع الناس بكل ما هو غريب، تتحول عن مواقفها للإسلام لتصبح غريبة عنه.

وقد حصل في التاريخ الإسلامي أن تلاعب الاستعمار الغربي والشرقي بالمفردات والمفاهيم التي يتواهم للوهلة الأولى أنها ملائمة للإسلام شكلًا ومضمونًا وخصوصًا في تاريخ إيران التي تأرجحت ولفترة طويلة من الزمن بين المشروطة والمستبدة، وكانت النتيجة خلافات
وصراعات بين الفقهاء من جهة، والسلطات من جهة أخرى، وذلك حينما طُرح مسألة الدستورية وما إذا كانت صالحة لتأسيس نظام غير مستبد، وكان من جملة من تصدٍّي لتسوية الدستورية عدد من فقهاء النجف الأشرف أبرزهم الإمام النائلي رضوان الله عليه. (في كتابه تنبيه الأمة وتنزيه الملة)، وقد قبَّل هذا الدعم للمشروطة من قبل فقهاء النجف، مع رفض مطلق لها من قبل فقهاء في إيران دعا إلى أن يكون الإسلام بمفرداته ومضامينه هو البديل، ولا شك في أن هؤلاء كانوا يرون تماماً أن المشروطة (الدستورية) لن تكون هي الحل لما تنطوي عليه من تعقيدات ومجاهيل لا قدرة للشعب الإسلامي المسلم على فكها وفهم معانيها، وفي نهاية المطاف لم يكن الحل إلا بالإسلام بعد مخاطر وتجاذبات وأحداث دموية تسبب بها الرأي والرأي المضاد في المفاهم والمصطلحات.

يقول الإمام رضوان الله عليه: «كلكم رأيتم، وسيسمع ذلك الجيل القادم أن أيدي محترفي الألعاب السياسية الشرقيين والغربين، قد أخرجوا من الساحة علماً الدين الذين وضعوا أساس الشروطية بجهودهم وأفعالهم، وعلماء الدين أيضاً انطلقت عليهم أحيلة المتلاعبين بالسياسة واعتبروا التدخل في أمور البلاد والمسلمين لا يتناسب مع مقامهم وتركوا الساحة إلى المهرومين أمام الغرب، وأنزلوا بالمشروطة والدستور والبلاد والإسلام ما يحتاج جُبرانه إلى زمن طويل» (1).

إن الحل، برأي الإمام، لا يكون إلا بالعودة إلى الإسلام مفردة ومفهومة ومصطلحاً، شكلًا ومضمونًا، إذ أنه ليس من المدنية أو العصرية

(1) الوصية الخالدة، للإمام الخميني (رض) م. س.

٢٠٦
في شيء أن تبدل المفاهيم والمفردات، أو أن يحتمل الإسلام مفاهيم وأشكالاً لا تنسجم ومضمونه، فهو كتاب يدعو إلى الحرية والاستقلال، وإلى إقامة العدل وتحقيق المساواة، وتبقى المدنية والعصرية رهَن التفاعل معه والأخذ به في شئ حقول ومبان الحياة الإنسانية. وإذا كان لا بد من الدستورية لحكم العباد والبلاد، فلتكن هذه تعبيراً عن روح وجوهر الإسلام، لأن حكومة الإسلام، هي في الحقيقة حكومة دستورية، ولكنها تختلف عن الدستورية المعنونة بالديمقراطية، التي تجترها الأنظمة السياسية في أكثر بلاد العالم اجتيازاً، اختلافاً جوهرياً سواء من حيث التشريعات القانونية، أو من حيث ملاحظة مصالح الناس وتحقيق العدالة الاجتماعية!؟ هكذا أراد الإمام الخميني أن يكون الإسلام عناوناً لكل شيء، وقد أفادته التجربة كثيراً فيما يعود إلى الحياة الدستورية والديمقراطية تحت عناوين الغربية والشرقية، وأيقن أن الإسلام ما لم يكن أطروحة الحياة ومحور الخطاب الدلني والسياسي، فإن الحياة الدستورية وغير ذلك مما جعله الاستعمار والتابعين له بدلاً للإسلام، قد تتحول إلى الإستبداد وممارسة الظلم بحجة حماية القوانين والحريات العامة كما كان يحصل في تاريخ إيران السياسي حينما أوهم السلاطين كثيراً من علماء الدين من أن السياسة والعمل بها عمل منافٍ لجوهر الإسلام، ولا تلبق بمقام العلماء كما أوضح الإمام (رض)، فكان الإسلام شعاراً للحياة الدستورية، ولكن في الحياة العملية كان تطبيقاً لا يحمل خصائص النظرية الإسلامية من حيث هي نظرية كاملة وشاملة، حيث ان السلاطين، كما يقول الإمام (رض)، كانوا يستعيرون قوانين وفهامج ومفردات الغرب والشرق، ومن ثم يسددون عليها ستار الإسلامية والدستورية الديمقراطية، وكانت النتيجة صراعات وحروب وقوميات عنصرية.
وطنيات مشبوهة أتى بها المتغربون والمستشرقون من هنا وهناك ليحولوا
 دون حيوبة الخلاف الإسلامي في حياة المسلمين، ولهذا يقول الإمام:
"إني أوصي الشعوب الإسلامية أن لا تنتظر أحداً من الخارج لبعينها على
 الوصول إلى الهدف وهو الإسلام وتطبيق أحكامه، يجب عليهم أن
 تنتفذا من أجل هذا الهدف الذي يحقق الحرية والاستقلال، وعلى علماء
 الدين أن يدعو الشعوب إلى الوحدة وتجنّب النعرات المختلفة لتعامل
 الإسلام، وإلى أن يمدوّن يد الأخوة إلى إخوتهم في الإسلام بمختلف
 بلدانهم وقومياتهم، فالإسلام العظيم سماه أخوة، وإن تحققت هذه
 الأخوة الإسلامية، فستكون أن المسلمين يشكلون أكبر قدرة عالمية"(1).

لكن ما يؤسف له، هو أن عالمنا لا يزال حتى اليوم يتأرجح بين
 الديمقراطية والاستبداد، ويخلط لمرفقات وفواضيم شتى، ويسعم
 لخطابات القومية والعلمانية التي كانت ولا تزال مسميات تحول دون
 حيوب الخلافة الديني والسياسي في حياة المسلمين، وما حققته الشعب
 الإيران المسلم من حيوبة في حياته الدينية والسياسية، وفي علاقاته مع
 العالم، يجدر بالشعوب الإسلامية والمستضعفة أن تنتظر فيما أجاد به هذا
 الشعب على نفسه وعلى العالم من دروس في الحرية، وأن تقتنى به طالما
 أن هذا الشعب استطاع توفير المناخات الملائمة لمن أراد حرية
 واستقلالًا، وإذا كانت الشعوب لا تستوي في لغاتها وأشكالها وألوانها،
 فذلك لا يعني أن قضاياها متباعدة، بل هناك قضية واحدة يمكن أن
 تلخص بالسؤال الآتي: كيف تحمي الشعوب الإسلامية خطابها الديني
 والسياسي في مواجهة الاستكبار وعمليته في داخل البلاد الإسلامية
 وخارجها؟! فإذا كان الإسلام هو الحياة وهو النظم، وهو الخطاب، فلا

(1) م. س، الوصية الخالدة.
شك أن المسلمين لن يكون لهم أكثر من هدف واحد هو إعطاء الإسلام كافئة أبعاده في الواقع، والقلب في القلوب والعقل والنفس.

لكن للأخطار متعددة، والحياة لا تتجاوز التقليد، والنظام السياسي تابع في أكثر البلاد الإسلامية، وهذا يحتم أن يكون الفعل الإسلامي على مستوى الأمة لاحظًا لما أفرزته التجارب الإسلامية الحقيقية من نجاحات وانتصارات، وأهم تجربة يمكن الاستفادة منها في هذا الزمن هي تجربة الشعب الإيراني المسلم الذي تجاوز فعله وخطابه مكانه ورمزه الخاصين به، وواجهو، ليكون له الحضور المناسب والامتداد الفعال في العالم كله. وهذا دليل على أن الفعل الإسلامي في هذا العصر لم يعد ملكًا لمن قام به، وإنما أصبح ملكًا للشعوب الإسلامية والمستضعفة كافة، مما يوجب على هذه الشعوب أن تكون على مستوى هذا الفعل، لا أن تبحث عن فعل آخر لتقضي به، فالقرآن هو اليوم وغدًا أطروة العالم مهما بلغت قوة فروعه هذا العصر، وأودني تأمل فيما حققت الثورة الإسلامية في إيران من انتصارات، لا بد أن يكشف عما سيرجود به المستقبل على الأمة الإسلامية - بفعل هذه الثورة - من حيوية تنفي عنها كل مظاهر الذل والتبوع والاستخفاف.

ما تقدم نخلص إلى القول، بأن حيوية الخطاب الديني وشموليته لا تكون بالتبوع والتقليد، ولا باجترار ما ينتجه الغرب والشرق من مفاهيم ومفردات مختلفة لروح الإسلام، وإنما باستلهام تاريخ النبوة في صراعها مع المترفين والمستكربين، واستحضار ما جاءت به النبوة من مفردات ومفاهيم، وهذا يقتضي أن يبادر علماء الدين المحترمون إلى تقلد أمور الناس الدينية والسياسية، لأنهم أولى الناس بهذا الأمر، ويعزل عن دور العلماء والفقهاء في الرعاية والهدية والتذبب يبقى الحديث عن الخطاب.
الدينى وحيويته حداثاً لا ينطوي على أي معنى، باعتبار أن العلماء هم عمدة هذا الخطاب، ومن الإسلام في كل شيء أن يحول العلماء بالله بين المتقدمين والمترفين وبين أن يكون لهم سلطان على الناس، وهنا يمكن أن نسأل:

هل من احياء الخطاب الديني في شيء أن يتخلى العلماء عن السياسة، وأن تعطي مقاليد الأمور للجاهلين بأمر الله ونهيه، ولم يترقص بالإسلام والمسلمين شراً تحت عنوان أن السياسة كذب وخداع وتفاق؟

لقد أجاب الإمام الخميني (رض) على هذا التساؤل بقوله: "إن ماقيل ويفال من أن اهتمام الأنباء محدود بالأمور المعنوية، وإن شؤون الحكم والإدارة للأمور الدنيوية عمل منبوذ اجتنبه الأنباء والأولياء والصالحين، وعليا أن نتجنبه أيضاً، وهذا خطأً مؤسف يؤدي إلى تلاشي الشعوب الإسلامية وفتح الباب أمام الاحتلال والاستعمار وناهي العالم ...").

كما أن ما تضمنته بعض النصوص الدينية لجهة الحديث عن اعتزال السياسة، فهو أيضاً مما بثته دوائر المعادين للأديان السماوية، لأنه يستحيل أن يكون الأنباء قد تخلوا عن السياسة للمترفين، وانطلاقاً من هذه الحقيقة وتعني بها قيام الأنباء بالمهمات الدينية والسياسية، يمكن القول بأنه ليس من الحظوة في شيء أن يقبل المسلمون والمسيحيون وسائر المستضعفين في الأرض بحكم الجفاة الطبيع في سبيل الفوز برحمة الله ورضوانه كما هو مضمون ومنطق رسالة القديس بولس في الكتاب المقدس لما بيتاً من أن المسيح لو كان اليوم موجوداً لما تساءل مع أعداء الدين، وكذلك ليس من الحظوة في شيء أن نعطي الخذ الأيسر لمن يصفعنا على

(1) الوصية الخالدة للإمام (رض).
الخض الأيمن باعتبار أن الأنيبياء جميعاً كسروا الأصنام، ومنعوا من الاستبداد، وأصلحوا في الأرض، وكفروا بالطاغوت قولاً وفعلاً ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

إن ملاحظة تاريخ الصراع بين النبياء والمشرفين، يؤكد أن النبياء لم يكونوا على تعاون مع المشرفين، ومن يعتبر نفسه امتداداً للنبيوة في الزمان، فلا يسعه إلا أن يقوم بالمهام الدينية والسياسية نفسها التي كان يقوم بها النبياء، إذ أن منطق الصراع وجوهره بين الحق والباطل يقتضي أن يستمر مشروع النبيوة في الحياة مع الفقهاء، ويتغير آخر نقول: إن منطق فروعون قد أفلح اليوم من استعليه، لا بد أن يقابله ومواجهة منطق النبياء والأئمة، منطق: «قد أفلح من تركى»، فهذه سنة الله ولن تجد لسنا الله تبديلاً ...

فالنبي موسى عليه السلام، كما يقول الإمام الخميني (قده) شار بوجه فروعون وحيداً، وكذلك نبي الإسلام لم يكن معه سوى الإمام علي وخديجة، وقد تمكن النبياء جميعاً من بعث الروح في المجتمع الإنساني بما توفروا عليه من عزيمة وصدق وإخلاص. وعليه فإن الخطاب الديني الشامل والحي لا يمكن أن يتم بمغزل عن السيرة الجهادية لأنبياء الله وأوليائه، وما لم يقوم العلماء المحترمون بمهام النبيوة، فإنه الخطاب الديني سيبقى رهين السياسات الشيطانية، وقد عبر الإمام عن هذا بقوله: «إن عزل العلماء المحترمون هو خطط شيطاني..»(1).

فالنبياء والأئمة عليهم السلام لم يجعلوا أولياء للناس لمجرد ذلك فقط، أي أن يكون الجعل الاعتباري لمجرد التبرك، كما أن البعثة لم تكن بهدف تنصيب النبياء والأئمة ملوكاً، أو ليخفوا من عزيمة الإنسان في سعيه من

(1) الوضية الخالدة للإمام (رض).
أجل بناء حياة سليمة ومتوازنة، بل بعثوا للكشف عن هوية ومضمون كل الملوكيات العارية التي استبدت وطغت وأثرت واستثمت بكل القيم والأهداف والمبادئ، حيث ان رحمة الله تعالى وعنايته وحكمته أبد أن يترك الناس حماية تقذفهم بهم أهواء الترف وسياسات الغرور في كل اتجاه، فبعث اليهم بما يحييهم، بالرسول والرسالة لإخراجهم من الظلمات إلى النور وهدايتهم إلى سبيل الرشاد...

خلاصة القول: إن النبوة الخاتمة أسست لمنطقة وفعل حضاري متكامل الأبعاد، وليس معنى إحياء الخطاب الديني أكثر من أن يستحضر المسلمون والمستضعفوون فعل النبوة وقولها في حياتهم العملية. فالنبوة لن تدخل الزمن لأجل أن تغيب، بل لتبقى فاعلة وحية وحاضرة بأطر وحيا الإيمانية والتواجدية، بخطابها الكامل والشامل، وإن أهم فعل حضاري يمكن أن يقوم به الإنسان اليوم هو إخضاع حركته التاريخية وحيويته الزمنية، وحياته الواقعية إلى منهج وفعل وحركة النبوة الخاتمة بكل ما جاءت به من مفاهيم ومفردات، باعتبارها نبوة خاتمة وكاملا وشاملة. كما قال تعالى:»وما أرسلنا إلا رحمة للعالمين« (1).

لقد عرف الإمام الخميني (قده) كيف يستحضر النبوة في حركته وثورته وخطابه الديني والسياسي، كما أنه استطاع أن يعطي هذا الخطاب كثيراً من امتداداته في الواقع، فأقام الدولة، وطبق الشريعة وحقق العدالة وأصلح في الأرض وكرر بالطاغوت ونادي بالولاية التي ما نودي بشيء مثلها...

هكذا، عادت الأمة اليوم إلى دورها الشاهد والوسيط مع

(1) سورة الأنبياء، الآية: 107.
الإمام (رض) ومن خلال قيادته ورعايته، وقد رحل الإمام (رض) وكبح أمل أن تمتد هذه الصحوة الإسلامية وروحية هذا الخطاب في العالم الإسلامي من خلال العلماء بفلك كي تنذ المسلمين والمستضعفين من أسر الاستعباد والاستغلال في أي أرض كانوا وإلى أي دين اشتهروا، وها هي الثورة والدولة والحكومة الإسلامية، كل ذلك هو اليوم معقد أمل ومبعث فخور للأمة جميعاً، وما دام الوعي الإسلامي اليوم قد ساهم بإحياء الخطاب الديني، فإن من شأن ترميمه وتفاعله أن يحفظ لهذا الثورة ديمومتها بكل ما تذخر به من مفردات ومفاهيم أصيلة، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله: "إن سر دمومة الثورة الإسلامية هو نفس سر انتصارها، والأمة تعليم ماهية هذا السر وأن يكمن، والأجيال القادمة ستقرأ في التاريخ أن دعمت هذا السر تكمنان في الدافع الإلهي والغاية السامية للحكومة الإسلامية والتزام الشعب حول هذا الدافع وتكشف الغاية"(1).

ان دور الإمام (رض) في إحياء الخطاب الديني، وإضاءة المفردات والمفاهيم الدينية ساهم ولا يزال يساهم وسيبقى يساهم في تنوير ما أظلم من أفكار ومفاهيم ومفردات إسلامية أصيلة. وإذا كان لا بد من الاختصار فلنقل: إن الإمام (رض) أضاء شعلة الإيمان ووصل الزمان وحقق كما يقول الإمام الخامسي حفظه الله، أعظم معجزة في هذا العصر. "إن الإمام (قده) هو محي التفكير الديني ومؤجج شعلة الإيمان وخالق أعظم ملحمة شعبية في عصرنا هذا"(2).

---
(1) الوصية الخالدة للإمام (رض).
(2) الإمام الخامسي حفظه الله، حديث الشمس، م. س. ص 87.
ثالثًا: دور علماء الدين والمرأكز الدينية في إحياء الخطاب الديني

إذا كان الإمام الخميني (قده) قد أرسى بجهوداته وتضحياته قواعد الخطاب الديني والسياسي، واستطاع أن يحقق المجتمع الإسلامي بالمفردات والمفاهيم الدينية التي كانت غائبة أو غريبة في مجتمعات المسلمين نتيجة لتخلي المسلمين عن القرآن ولحاقهم بالحضارة الغربية المادية، فإن الإمام في خطابه الإسلامي لم يغفل عن دور علماء الدين في إحياء الخطاب الديني بكل مفرداته ومفاهيمه، وعن قدرتهم على إصلاح ما فسد من أمور المسلمين، يقول الإمام (قده): "إن قيادة الأمة إلى الإصلاح ومعرفة الإسلام على وجه الصحيح، تستلزم صلاح أهل العلم وحملة الشريعة، بمعنى ضرورة تكامل نشاطهم التعليمي والاعتماد على النفس والثقة بها واجتناب الكسل والوهن والتكول، ومحاولة نحو آثار ما ينتشر في الناس من أباطيل. . . وتخطف القصور الذين باعوا دينهم بدنياً وغيرهم من صفوفنا، وابعادهم عن زئناً وتعريتهم وفضح أعمالهم"(1).

(1) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، دروس فقهية في النجف الأشرف، 1389 هـ.

٢١٤
وكما ورد في كثير من الأحاديث عن الأئمة، من أنه إذا صلح العالم، وما لم يقم علماء الدين بمسؤولياتهم الثقيلة والجسدية، فإنهم بذلك يكونون قد تركوا أمور الناس وشؤونهم الدينية والسياسية للحكام الجائرين. ومن يقتدي بهم من قهاء البلاط الذين باعوا دينهم بدناً غيرهم، كما يقول الإمام رضوان الله عليه، وهو يذكر أنه ذات مرة ذهب إلى بعض المدن في فصل الصيف، فرأى الناس مهدبين، والسبب في ذلك كما تبين هو أن عالم تلك المنطقة إنسان متقن صالح.(1) وقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام: أنه قال: "كونوا دعاةً للناس بغير أسلحتكم، ليروا منكم الوعي والجهاد والصلاة والحري По ذلك داعية".(2) يقول الإمام الخميني (قدس): "إن مجرد وجود العالم المتقي في منطقة ما كافٍ في إرشاد الناس والتأثير عليهم حتى إذا لم يقم بالوعظ والإرشاد".(3).

وكيف كان، فإن إحياء الخطاب الديني يبقى في الدرجة الأولى مسؤولية علماء الدين الذين عقلوا عن الله وفهموا عن الإسلام والأئمة ما ينبغي القيام به لتحقيق العدالة الاجتماعية، وإزالة الظلم والحقوم عن الشعوب المسلمة والمظلمة في العالم. لأنه إذا لم يقم هؤلاء العلماء العدول بمهمة الإصلاح والقيادة فإن كل شيء في بلاد المسلمين وحياتهم يصبح عرضة للمسخ والتشوه. وقد روجت الأنظمة الجائرة على طول تاريخنا الإسلامي بأنه ليس من مسؤولية علماء الدين القيام بالمهما

(1) الإمام الخميني، الجهاد الأكبر، ترجمة حسين كوراني، الدار الإسلامية، ص 13.
(2) م. ع، ص 13.
(3) م. ع، ص 13.
السياسية لما يراقبها من خبثٍ ومكرٍ وخداع، وهذا كله ينافي مع الإسلام، مما يؤسف له ان كثيرين من علماء الدين وقعوا في النباح، واستجابوا لهذه المزاعم وقد دفعوا بأنفسهم إلى الاعتزال والانزواء تاركين السياسة لمن يغدر ويفجر ويملك فنون الكذب والاحتيال والدهاء بحجة ان هذه الأعمال ليست من الإسلام في شيء، وكما يروي الإمام (قده) إن أحد رجال الدولة في إيران خاطبه في السجن بالقول: ان السياسة خبثٌ وكذبٌ ونفاقٌ اتركوا ذلك لنا، يقول الإمام: هذا صحيح. ولكن السياسة في الإسلام ولدى الأئمة الذين هم ساسة العباد لا تعني ما قاله لي ذلك الرجل. ـ(١).

لقد تأثر الخطاب الديني والسياسي عند كثير من علماء المسلمين بما روج له السلاطين وفقهاء البلاط، على الرغم من أن فقهاء البلاط كانوا يقومون بمهمات سياسية ودينية لتسويق مشروع الحاكم الجائر، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخطبون في الملاذ أن التدخل في السياسة عمل لا يتفق وجوهر الإسلام، وقد خدع الناس بهؤلاء ولم يلفتون إلى ما كان يقوم به فقهاء البلاط من مهام سياسية ليسألوه عن معنى الدين والسياسة في أوجء السوء والجهر السلطاني!!!

إن الإمام (قده) في خطابه الديني يحث علماء الدين المحترمين أن لا يؤذوا أنفسهم عن قضايا المجتمع، كما ان عليهم أن يكشفوا عن زيف وألابيم محترف السياسي التابعين للغرب والشرق في بلاد المسلمين، يقول الإمام (قده): إن العلماء قد خضعوا بألابيم محترف في السياسة فاعتبروا التدخل في شؤون البلد والمسلمين لا يناسب

(١) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م. س، ص ١٣٦. ٢١٦
مقامهم فأدعوها بأيدي المتغرين" (1).

فإن الإسلام دين سياسة عبادة وعبادته سياسة كما يقول الإمام (فده).

وإذا كان الإسلام كذلك، فكيف يمكن الفصل بين الدين والسياسة؟ بل ما يكون معنى الدين إذا كانت العباد والبلاد سترك للفراعة والمترفين؟ وهل ما قام به الرسول وآمر المؤمنين من مهام سياسية، قبل وبعد إقامة الدولة الإسلامية لم يكن عملًا سياسياً؟

لا شك في أن السياسة هي عبادة من عبادات الإسلام، وما لم يتصدّ علماء الدين المحترمون بهذه المهمة، ويقوموا بمهما الإصلاح، فإن المفردات والمفاهيم الدينية ستبقى دون تأثير في الحياة العملية للناس، باعتبار أن الأحياء لهذه المفاهيم ولكل ما ينطوي عليه الخطاب الإسلامي من مفردات إنما يكون مهماً وفعالًا في ظل إقامة الحكومة الإسلامية، ومن خلال تصدي العلماء المحترمون لمهام الرعاية والهداية والتدبير بحيث يكون هناك صيورة على مستوى الفعل السياسي، فلا يقتصر الأمر على خطاب ديني وسياسي مجرد عما يعيشه المسلمون ويتعرضون لمن مصائب ومحن وبلاءات بسبب تصدي الجهلاء، وكل ما تسمى بالعلم وليس به، لأمورهم ورعاية مصالحهم؟

إن الخطاب الإسلامي مع كل الذين حكموا باسم الإسلام لقرون من الزمن كان خطاباً إسلامياً بشكل لا بالموضوع، وهو غالباً ما كان خطاباً بمفردات ومفاهيم الفرعونية الخفية التي رفعت شعار الإسلام والشورى والعدلة لإيهام الناس بأنها من الإسلام في شيء، لكنها في المضمون كانت فرعونية تحكم باسم التفويض الإلهي، وغير ذلك من مقولات من

(1) الإمام الخميني، الوصية الخالدة.
قبل: أنا سلطان الله في الأرض كما قال المنصور، وإن الله أراد لي الملك وأنتم له كارمون كما قال معاوية بن أبي سفيان، ولو أردنا استعراض ما تطور عليه كتب التاريخ من النصوص الفرعونية الخفية لما انتزع لها هذا البحث.

والحق يقال: إن الترف العلني، بعد انتصار النبوة، لم تعد له قوة أن يملك فرصة الانقلاب على ما حققه النبوة على مستوى العقيدة والمشروع السياسي، فوجد المترف نفسه مضطراً لسلوك الطريق السري كي يحقق أهدافه، أي أن مقولة أنا ركب الأعلى، ويا أيها الملوك ما علمت لكم من إله غيري. هذه المقولات لم تخفى من الفعل الدينية أو السياسية نهائيّاً وهي لا تزال تقال حتى يومنا هذا، لكن منها ما يقال باللفظ ومنها ما يقال بالمعنى، وذلك يبقى خاطعاً لضعف أو قوة الإمام في مجتمع إنساني ما، إذ إنه حيث يكون الاستخفاف بالناس تكون الفرعونية، وحيث يكون الإمام تكون النبوة أو أثرها، وما ينبغي قوله هنا، هو أن المترفين وإن تخلوا عن مشروعهم السياسي ومقولاتهم التقليدية والدهرية بسبب قوة وحضور الإسلام، فذلك لم يكن إذعانًا منهم أو تسليماً بما جاءت به النبوة، وإنما خوفًا منها وقناعةً منهم بعدم جدواً تآليف أنفسهم، مما اضطرهم إلى التكلم باسم الدين ووضع أنفسهم بصفة الكمالية والحكم باسم الله، وكما يقول الكواكبى: «إنه ما من مستبد إلا ويتخذ لنفسه صفة قدسية يشارك بها الله» (1). لكن هذه الصفة قد تكون ظاهرة بارزة يعلنها الحاكم نفسه، كما فعل فرعون قديماً. وقد تكون خافية مستورة وإن كان مضمونها ظاهراً في سلوكه فهو على أقل تقدير لا يسأل عما يفعل وهم

(1) عبد الرحمن المواقبي، طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد، بيروت، دار النفاس، ص 61.
يسألون، وهذا ما فعله جميع الطغاة على مدار التاريخ(1).

إن الإمام الخميني في خطابه الديني والسياسي، وفي وصيته السياسية الإلهية لشعوب العالم الإسلامية والمستضعفة حينما يدعو إلى إصلاح المتقدين، وتطهير المراكز الدينية، وطرد فقهاء السلاطين(2)، هو انا يؤكد على البدء بɒحایі الخطاب الديني الصحيح من خلال القضاء على دور هؤلاء في حياة الناس وکشف ألواعهم لذا يكونوا أعداء للأمة من الداخل، يقول الإمام: "فهؤلاء يوجهون أكبر لطمة للإسلام ويشكلون أكبر خطر على، ويزرون الإسلام بصورة مشوهة ويوصدُ من هؤلاء كثير في الحوارات العقلية، ولهما تأثير على بسطاء الناس، كما انهم يعارضون أية صرخة لايقظ الناس من السباقات ويدعون إلى الكسل والتخاذل(3)، وقد ورد في الحديث في شأن فقهاء السلطة: اخسُوهُم على دينكم(4).

إذن، الخطاب الديني الحي والفاعل انا يكوٓن بتصدي الفقهاء العادل لأمور الناس الدينية والسياسية، بحيث تكون له القدرة على احياء ما يحتاج إليه المجتمع من مفردات ومفاهيم تعزز دوره وتهلله لأن يرتقي في كمالاته، أما أن ينزوی علماء الدين المحترمون، وترك الأمور للسلاطين وفقهاء البلاط فذلك ما اعتنى به المسلمون لفترة طويلة من الزمن، وقد حدّر الإمام من ذلك، داعياً إلى أن تكون الأمور ومجاربها بأيدي العلماء والمراجع لكونهم من أقدر الناس على الرعاية والبهدة والإصلاح.

(1) الإمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لنشوء الاستبداد، 1994، ص. 9.
(2) الإمام الخميني، الحكومة الاسلامية، م. س. ص. 132، 133.
(3) م. ع. ص. ن.
(4) م. ع. ص. 135.
وكيف كان، فإن الاستبداد لا يزال يتحكم بكثير من الشعوب المظلمة والمستضعفة في العالم وإن اختلت أشكاله وألوانه، ووسائله، فهو من حيث الطبعة والأهداف والتاثير واحد، وقد شدر طريقه في تاريخ اليهودية والهندية والإسلام من خلال ما يسمى بالسلطة المطلقة القائمة أساساً على اعتبار الحاكم حاكماً بأمر الله وذي طبيعة إلهية مصوسة يقوم عليه يدعى مجموعة تدعى أتباع هذا الدين أو ذلك، يدفع بها الترف وحب الدنيا والرياسة إلى أن تؤول النصوص المقدسة وفق ما تراه ملائمة لمصالحها وأهدافها الخاصة، وتقدم اتجهات شخصية وتأويلات ذاتية تمكنها من الوصول إلى الفقه باسم الدين فتكون لها مقاليد الأمور، وتستخدم في عملها أخط الوسائل والدنسات والقتل والروية والمال والارهاب والكذب على الله ورسوله لتحقيق رغباتها!!

إن المترفين والمستكبرين الذين حذرهم من الإمام الخميني ودعوا إلى نبذهم كانوا يحاربون الله والندوة وكل من يؤمن بها ويوجرون حرباً ضروساً ضد ما جاء به الآباء من تعاليم ومبادئ وقوانين، وقد تحولوا بعد هزيمتهم في صراعهم مع النبوة إلى محاربين لها باسمها وباسم الدين، كما هو شأن كل السلطات المطلقة والحكومات الجائرة التي كانت تعتبر نفسها من طبيعة إلهية، وتحمل نظرية الحق الإلهي المباشر، وقد تطورت هذه النظرية مع ظهور المسيحية والإسلام، وهذا التطور السلمي للترف والاستكبار يمكن ملاحظته فيما انطرت عليه بعض الكتب والأحاديث حول تقديم الطاعة للحاكم مما كان نوعه وصفاته باعتباره حاكماً اصطفاف الله وأودعه السلطة؛ ومن قبل هذا ما نقرأه في رسالة القديس بطرس الأول في أولياء الأمر، وما نقرأه في تاريخ الخلفاء والأمراء الذين حكموا باسم
الإسلام ولا تزال هذه النصوص حية في القول والفعل حتى يومنا هذا. فالترف الخفي الذي حاول الحكام الجائرون في تاريخ الأديان السماوية تدعيمه وتربيته لم يكن ترفًا وجوهرًا مشابهاً لما كان عليه الترف الفرعوني من صراحة ووضوح، وكما يقول الإمام الخميني: «لو أن المسلمين تسهلوا مع هؤلاء الجائرين والمترفين لما توانوا عن تنصيب أنفسهم آلهة للبشر»، وعن ادعاء الرؤية كما قال فرعون: "أنا ركيم الأعلى". لكن هذا الترف يبقى في كثير من الوسائل والأهداف، والحق يقال: إن الذي حل دون استمرار الترف الفرعوني بأسلوبه ومضمونه هو النبوة وما تركه من آثاراً إيمانية وسياسية ومعرفية في حياة الناس، ولهما كان هدف المترفين بالنبوة وأتباعها شراً، فلم يجدوا بدًا من استخدام الدين الجديد، وظهور أمرهم الشديد عليه، وقد استطاعوا إلى حد ما من تحقيق نجاحات كثيرة على مستوى التحريف للنص والتأويل له على النحو الذي يمكنهم من بسط سلطانهم الديني والسياسي على الناس، وكانت مشاريعهم أن ينجح في الدين والسياسة لو لم تكن هناك امتدادات للنبوة في الحياة البشرية. فالمقصود بالترف الديني هو ما قام به فقهاء السلطة في كل زمان من تبرير للسلطة المطلقة وللبقية الإلهي لهؤلاء بأن يحكموا باسم الله!

ولا زلت نشاهد في عصرنا هذا دور بعض رجال الدين في دعم سلطان الحكم المطلق، والحكومات الجائرة من خلال تقديم الفتوى اللازمة لذلك. إنه ترف ديني يستعمل اسم الله وفي سبيل الله قولاً، ولكن في الجوهر والفعل يخدم السلطان الجائر، ويستعمل آلهة الدين للدنيا، كما

(1) انظر: الإمام الخميني، حديث الشمس، منظمة الإعلام الإسلامي، ترجمة رعد جبارة، 1992، ص 33.

٢٧١
قال أمير المؤمنين ﷺ: «بلآ أصبَت لقناً غير مؤمن عليه، مستعملًا آلة الدين للدنيا، ومستظهرًا بنعم الله على عباده، وبحجمه على أولائه»(1).

كان ولا يزال الترف الدیني بعد انقضاء الیبیة عمدة الاستبداد السياسي، وما لم يحكم اتباع الیبیة والعارفون بما جاءت به من تعاليم وقوانين وأحكام في الدين والدولة، فإن الاستبداد السياسي سيٰقى مدعماً بكثير من النظريات الدينية والفتاوى الشرعیة، وما يدلّ على هذا هو أن السلاطین في التاريخ الإسلامي قد أنشأوا الفرق أو على الأقل دعموها لقوئ وتنشیر لتساعدهم على تأليف الأفكار الدينیة والسياسیة التي تسهم في تقویة نظام الحكم القائیم تحت شعار الحكم بما أنزل الله تارة، والقتال لأجل أن يعود الأمر شوری بین المسلمين طوراً، كما حصل في زمن بني أمیة وبني العباس وغيرهم.

لنسا نقصین بالترف الیدینی المبیر للاستبداد السياسي غير ما تقدم ذکره من وجود رجال دین، تسموا بفقهاء السلطة، في خدمة المشروع السياسي للسلطان الجائر الذي دلت حیانةً وسیرته وأعماله على تمثلات حقیقة للفرعونیة القديمة وتشییبات أکیدة لهاً، وأدینی تأمل في تاريخ المسلمين يکشفُ عن أن العلماء الحقیقین بالکتاب والسنة وكل الذين شكلوا امتداً حقیقاً للرسول وأهل بيته ﷺ كلكاً شکایانهم ومعاناتهم من الترف الیدینی أكثر مما كانت من الاستبداد السياسي المتمثل بالسلطة الجائرة بدلاً من وجهه الإمام علي ﷺ في حرب الجمل، وفي حرب صفين، وحرب النهروان وفي غيرها من المواقع العسكرية، وأكثر ما كانت هذه المعاناة في المواقع السياسية التي كان يحتدم الصراع فيها حول طبیعة

---

(1) الإمام علي ﷺ، نهج البلاغة، قصار الحكم ١٤٧.
الحكم ومن تكون له الأحقية به، أو حول الشورى وما إذا كانت بديلاً للنص وغير ذلك ..!؟

ولو أردنا إقامة البرهان على ما للترف الديني من أثر سلبي في حياة الناس في عصرنا الحاضر لما احتاجنا إلى مزيد من التأمل والبحث فيما آلت إليه المدارس الفقهية والمذاهب الكلامية في ضوء تحكمات الاستعمار الجديد بالمنطقة العربية الإسلامية، وبرز مدارس ترف جديدة ساعدت على إيجاد الكيان الصهيوني في فلسطين، وقتل روح الجهاد في أفراد وجماعات الأمة الإسلامية، وكيف لا تصل الأمة إلى هذا المستوى من الهزيمة على صعيد الروح والمادة معاً إذا كان كل شيء مبرراً من قبل بعض المدارس الفقهية والكلامية، ومؤمناً له الغطاء الكامل من قبل القيمين على هذه المدارس، وقد شهدنا مؤخرًا، وحرصاً منذ سنة 1991 التي بدأت فيها مفاوضات مدريد بين العرب وإسرائيل كثيراً من الفتاوى المبررة للصلح مع إسرائيل على قاعدة قوله تعالى: «وإن جنحوا للسلم فافنجح لها» (1)، و«والصلح خير» (2) !؟

إضافةً إلى ما ادعاه بعض المنورين في الدينين من ان الجهاد ليس معناه قتال الكفار والمشركين، وإنما معناه محاربة الجهل والفقر والمرض، وما إلى ذلك من مقولات واجتهادات ذاتية وتأويلات شخصية تبرر الصلح مع العدو الصهيوني، وتدعو إلى إطاعة علاقات طبيعية معه ..!؟

إذا نزعم بأن بعض المتدينين والمنتديات ممن يفترض فيهم أن يتحملوا مسؤولية الدفاع عن المشروع الإسلامي والعامل من أجل تطبيقه قد وصلوا إلى مرحلة من الترف سواء في المال، أو في السلطة، قلما استطاع

---

(1) سورة الأنفال، الآية 61.
(2) سورة النساء، الآية 128.
أن يصل إليها المترف السياسي المستبد. وما أن الدين ليس ترفاً ولا حرصاً على الدنيا بما فيها من أموال ومتاع الغرور لما بينه النبوة والرسالات من أنه مسؤولية وأعباء ودفاع عن قضايا المستضعفين وحقوقهم، فإن ذلك يحت معادة النظر فيما انتهت إليه الحوارات العلمية والمدارس الفقهية والكلامية في العصر الحاضر من ترف دنيي وسياسي لمعرفة الأسباب الكامنة وراء تصدع هذا البناء المقدس بسبب ما لحق به من غرور وكبيرة وترف وتهواون بالمسؤولية الشرعية التي ألقت على عاتقه منذ القدم. إن الأمة لا تزال ترى في هذا الصرح العلمي المقدس الأمل والرجاء والعلم والقوى، وما لم يتحرر هذا الصرح الذي يحتوي على كل العلوم التي تحتاجها الأمة لبناء نفسها وتحقيق مشروعها، وما لم يتحرر أهله من عقيلة الترف التي تستبض بالأكثرة منهم، فإن المستقبل سيفسد على الأمة بكثير من المصائب والبلاءات قد لا يكون أقلها تحكم إسرائيل بخيرات وثروات وقرارات هذه المنطقة الغنية من العالم. يقول الإمام الخميني: "إن الحوارات الدينية هي موطن الفقهاء العدوّ، ومعدن أمناء الله وخلفاء الرسول، ومن يكون أمين الله في عباده بلاده لا يطمع في شيء من فضول الحياة، ولا يفعّل للظلمتين أمراً، ولا يزكي لهم عمالاً، ولا يعقد لهم عقدة، ولا يبني معهم بناءً."  

وهنا أراني مضطراً للقول: بأن انقسام العالم اليوم إلى مترفين وفقراء وأقوياء وضعفاء لم يكن ذلك بسبب رجالات السياسة فقط بل ساهم في هذا الانقسام والاستبداد فقهاء السلطة أيضاً، حيث أنهم أعطوا رجال السياسة مقاليد الأمور بتلكيف من دوائر الأمن والاستخبارات(1)، ودخلوا

(1) الحكومة الإسلامية، م.س. ص 141.  
(2) انظر، الإمام الخميني، كتاب الحكومة الإسلامية، م.س. حيث أنه في كلامه = 224
معهم في أتون الترف والفساد حتى بلغ الأمر بهم درجة البطر بالنعم والتفرُّط بها، بدل أن يرشدوهم ويقدموا لهم النصيحة فيما ينبغي أن يعملوا من أجل حماية الأمة من شرور الفضاعة والطغاة.

لقد ساهم هذا الترف وما تسبب به من انقسامات على مستوى الأمة في خلق الظروف المناسبة لابداع الكيان الصهيوني في فلسطين، وما كان ذلك ليتم لولا التهانى بكل المباديء والقوانين والإرشادات، التي أتى بها الأنباء لاحياء المجتمعات البشرية. وإذا كان التهانى يدل على شيء، فإنه يدل على عقلية الترف وسياسة الترف الحاكمة في المجتمع، وقد أثبت التجارب التاريخية أن هذه العقلية لا بِد أن يتولد عنها فقر مادي وروحى، هذا فضلاً عما يتولَّد عنها من جهل بأمور الدين والدنيا، وإذا ما استمرت هذه العقلية في حكم الدول والمجتمعات فإن النتائج ستكون لا خسارة فلسطين وحسب، بل خسارة شاملة على مستوى وجود الأمة وحضورها وفعلها.

لقد أرشد الإمام الخميني إلى حقيقة ما ينبغي القيام به من قبل علماء الدين والمراجع العظام، والإمام (قده) كما نعلم - قرأ بدقة لا متناهية تجارب الاستبداد الديني والسياسي وعرف مواطن الخطأ، ومفاتيح الأمة؛ وأدرك أسباب المصائب التي وقعت على المسلمين تحت شعارات شنت في الدين والسياسة، وارتفع فوق أطروحات القومية والمشروطة والمعلمانية وغيرها ليلامس حقيقة الإسلام المحمدي الإصول، ومن موقعه هذا استطاع أن يرشد ويحذف العلماء والفقهاء بأن يبتعدوا عن الترف في الحياة، لأنه يؤدي إلى أن يكون الدين مشروعًا مستمراً في مشاريع الترف الدينية والسياسية، يقول الإمام الخميني: "أعرضا عما ضمن لكم في هذه

 masaيف هذا المعنى.
الحياة الدنيا، وزكوا أنفسكم، واتقوا ربككم وإنكم لا سمح الله - إنما تدرسون علوم الدين لتترفوا في الحياة، فأنتم أئذى لكم أنكم لا تبلغون من الله شيئاً، ولا تنالون لديه مقاماً محموداً، والله يحرمكم من التوفيق إلى فضيلة الاجتهاد والفقه والبهاء في أحكام الدين، ولستم بذلك أمناء الرسول ولا ورثة الأنبياء، ولا حصنان الإسلام، اتركوا زخارف الحياة واتركوا بعيش الكفاف ليقتني الناس بكم في عفة نفوسكم»(1).

إن سلامة الدين على مستوى العقيدة والشريعة لم تكن بسبب السلطان ومن لازى به من فقهاء البلاط، ولا بسبب المترفين الذين اتخذوا الدين شعراً ودثاراً، وإنما استمر الدين حياً مع العلماء العدول الذين أسووا للثورة ضد الظلم والظالمين، وقد تعرض هؤلاء العلماء إلى كثير من المحن والمصائب في سبيل إبقاء تعاليم الدين حية في المجتمع الإنساني، كما أن وجود هؤلاء العلماء قد حال دون أفساد عقائد الناس بما تمكنوا من الحفاظ عليه في ظل حكم الاستبداد والترف. إن العلماء بالله وإن كانوا قلة، فقد استطاعوا توجيه النقد إلى كل الذين تزيفوا بزي الدين زوراً ونفاقاً ودأبوا على تسويغ مشروع السلطان السياسي، وتشويه سيرة العلماء الحقيقيين ليحولوا بينهم وبين تسلم السلطة(2). يقول الملا صدراء: «لقد اتهمهم وتشوهوا النقد إلى فقهاء البلاط لما رأوه من أنكبابهم على تحصيل الجاه والرياضة وتمشية أغراض الملوك في ما لا يجوز. أنظر إلى ما يقاسه في نفسه ومجتمعته العالم بالله والمجاهد في سبيله»(3).

______________________________
(1) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م. س. ص: 14. 
(2) م. ع. ص 177. 
(3) الملا صدراء، مفاتيح الغيب، مؤسسة مطالعات إيران، ص: 199.
المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- القرآن الكريم، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1991 م.
- نهج البلاغة، الإمام علي 5، دار الأضواء، بيروت، 1986 م.
- المصادر المطبوعة: للإمام الخميني (رض).
- الإمام الخميني، الاستقامة والثبات، ترجمة كاظم ياسين، بيروت، 1996 م.
- الخطاب التاريخي، هدية جريدة العهد اللبنانية، تاريخ 22 شباط 1989 م.
- الحكومة والولاية، حديث الشمس، منظمة الإعلام الإسلامي، 1992 م.
- الوصية السياسية، النداء الأخير، مؤسسة الإمام الخميني الثقافية، ط1، إيران، 1992 م.
- الأربعون حديثاً، تعريب الغروي، دار التعارف، بيروت، ط4، 1992 م.
- الجهاد الأكبر، ترجمة حسين كوراني، دار الإسلامية، 1992 م.

ثانياً: المراجع

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث، بيروت، (لا ت).
- ابن رشد، فصل المقال فيما في الحكمة والشريعة من اتصال، ط 3، دار المشرق، بيروت، 1982 م.
- ابن كثير، البداية والنهائية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989 م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار التعارف، في القاهرة، (لا ت).
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، دار الهدادي، بيروت، 1995 م.
- أبو حسن الأشعري مقالات الإسرائيليين، دار الحداثة، بيروت، (لا ت).
- أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، ط3، 1983 م.
- ألبرت حوراني، الفكر العربي، عصر النهضة، دار النهار، ط4، 1986 م.
- إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، عدد 183 م.
- الأمير تشارلز، الإسلام والغرب، ط1، 1993 م.
- أنور الجندي، سقوط العلمانية، دار الكتاب اللبناني، (لا ت).
- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، عدد 173.
- جعفر المهاجر، سيرة فتحياء أبطال، ط1، 1994 م.
- جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، القاهرة.
- جيل كيبل، مستقبل الأصولية، جريدة السفير، المركز العربي للمعلومات، عدد 3، 1993 م.
- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ت).
- السيوطي، تاريخ الخلفاء، منشورات الرضي، (لا ت).

228
- صموئيل هانتغتون، صدام الحضارات، القاهرة، مطبعة مدبولي، 1977م.
- عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، دار الأنصار، القاهرة، 1984م.
- عبد الرحمن الكواكبى، طبائع الاستبداد، دار النفاس، بيروت، 1995م.
- علي شريعتى، الأمة والإمامة، دار الأمير، بيروت، 1996م.
- علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، دراسة ونصوص، وجه كوثراني، دار الطليعة، بيروت، 1996م.
- علي الخامنی، الحكومة والولاية، حديث الشمس، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ترجمة رعد جباره، 1992م.
- فرح موسى، فقهاء السلطة، وسلطة الفقهاء عند الإمام الخمينی، دار الوسيلة، بيروت، 1995م.
- فرح موسى، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة، عند الإمام شمس الدين، دار الهادي، 1995م.
- فرنسس فوكويرام، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الاتحاد القومي، بيروت، 1993م.
- فهمي هويدي إيران من الداخل، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 1988م.
- كمال الشبيبى، دائرة المعارف الإسلامية.
- محمد باقر الصدر، دروس إسلامية، دار الزهراء، بيروت، 1989م.
- محمد حسين هيكل، قصة إيران والثورة، دار الشروق، ط 3، 1983م.
- محمد، حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلى، بيروت، 1979م.
ـ محمد بن محمد بن النعمان العكربي، المعروف بالشيخ المفيد، أوائل المقالات، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، 1986 م.
ـ مالك بن نبي، شروط النهضة، دار دمشق، (لا ت).
ـ محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان، دار القلم، بيروت، 1980 م.
ـ محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، دار العلم للмуلايين، بيروت، 1984 م.
ـ محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، نقد وتحليل، دار مجد، بيروت، 1985 م.
ـ محمد مهدي شمس الدين، في المجتمع السياسي الإسلامي، المؤسسة الدولية، بيروت، 1992 م.
ـ مرتضى مطهری، الحركات الإسلامية في القرن العشرين، دار الهادي، بيروت، 1984 م.
ـ مرتضى مطهری، الإسلام وإیران، دار الحق، بيروت، 1985 م.
ـ موسى الصدر، منبر ومحراب، الدين والعلم، دار الحواراء، بيروت، 1989 م.
ـ موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة، دار الأفكار، بيروت، 1991 م.
ـ هيغل، موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط1، 1983 م.
ـ وجه كوثراني، الفقه والسلطان، دار الراشد، بيروت، 1989 م.
فهرس المحتويات

الموضوع

الإهداه .................................................. 5

1 - إيران والانبعاثات الدينية ................................... 9

2 - الإسلام والعولمة الغربية ................................... 11

3 - إيران وقيادة الحوار الحضاري ..................................... 19

الفصل الأول: الثورة الإسلامية: منطلقات وأهداف ............... 27

أولاً: ماهية الثورة وعوامل الانتصار .................................. 29

ثانياً: نهضة المجتمع الإيراني وتمييز أهدافه ....................... 44

ثالثاً: الأهداف الإسلامية في ظل نظام الشاه ............................. 57

الفصل الثاني: المجتمع الإيراني وخيارات الحل الديني ............ 71

أولاً: معنى الدين في اللغة والاصطلاح ................................ 73

ثانياً: الدين في الحياة الإيرانية القديمة ............................. 77

ثالثاً: إيران الإسلام وخيارات الحل الديني ......................... 82

231
الفصل الثالث: الإمام الخميني وثقافة عاشوراء .................................... 97
تمهيد: ......................................................................... 99
أولاً: دور الإمام الخميني في إحياء ثقافة عاشوراء .......... 103
ثانياً: الإمام الخميني والموقف من الثقافة المضادة ..... 111
ثالثاً: دور الأئمة(ع) وامتداد عاشوراء .................. 123
الفصل الرابع: خصائص ومميزات الثورة الإسلامية في إيران .......... 133
تمهيد: ......................................................................... 135
أولاً: المركز الاستعماري في فهم الثورات الإسلامية .. 142
ثانياً: الإمام الخميني وحتمية الحل الإسلامي ............. 153
ثالثاً: ديمومة الثورة وخسارة الرهان ......................... 160
الفصل الخامس: الإمام الخميني وإحياء الخطاب الديني ........ 179
تمهيد: ......................................................................... 181
أولاً: حيوية الخطاب الديني وآثاره عند الإمام الخميني .. 191
ثانياً: شمولية الخطاب الديني وعالميته عند الإمام الخميني 199
ثالثاً: دور علماء الدين والمراكز الدينية في إحياء الخطاب الديني 214
المصادر والمراجع ..................................................... 227
فهرس الموضوعات ...................................................... 231
هذا الكتاب

يأتي في خضم مقولات العصر وتعقيداته، وفي إطار ما ترسمه حضارة الغرب من خطوط شاحبة، وتسعى إليه من عولة وعالمية طاغية. وقد حاولنا في هذا الكتاب أن ننظر على آفاق المستقبل، وهناك أمل يحدونا في أن تكون الإطلاقة كأشرفة عما يمكن أن تؤول إليه أوضاع الشعوب سواء في ظل حوار الحضارات، أو في ظلم صدامها، كما يحدوننا الأمل أيضاً في أن تكون الإطلاقة مستشرفة لكل آفاق المستقبل، بحيث يمكن لنا التعرف إلى ما بثته الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني من إشعاعات روحية ومعنوية باتجاه الشعوب المسلمة والمستضعفة، إضافة إلى ما شكلته هذه الثورة من منعطفات تحفز الباحث في مجال الاستراتيجيا على تصميم ذاته ونظرتها. لأجل أن يستكشف طبعة هذه المعطيات، التي كان لها أكبر الأثر في تحول العالم كله نحو الدينية.

لقد تضمن هذا الكتاب أبحاثاً ودراسات عن إيران والثورة والمستقبل، وذلك نظراً لما آل إليه وضع إيران من مركزية ومحورية في ضوء اطروحتها الإلهية، وتشكيلاتها البنائية الجديدة، التي ميزتها عن سائر ما عرفه العالم من اطروحات ومنظمات.